

الدار القروية للطباعة والنشر

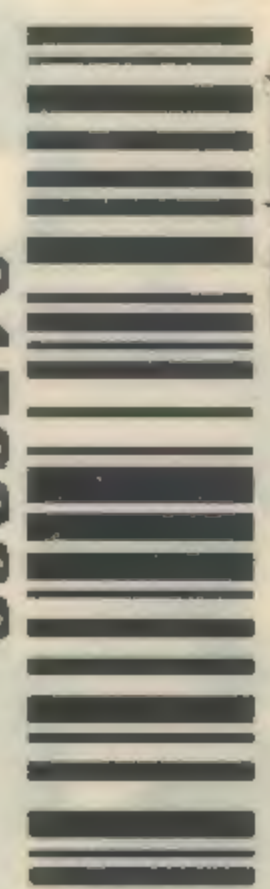


تاريخ ما أهمله التاريخ
عبيد جمامي

النهر على الين

من مختارات الاذاعة والتليفزيون

0156368



Bibliotheca Alexandrina

الكتاب الماسى
قصص عربية

تاريخ ما قبل الإسلام

الناشر صلاح الدين

صبيح مامان

إهداء

إلى روح العالم العظيم والفتاة
المظفر الذكي أحبة الغريب مثل
القريب، واحترمة العدو مثل الصديق
وبلغ العرب في عهده أوج المجد
والعزة والحكمة الملك الساهر
صلاح الدين يوسف الأيوبي ...
أهديه هذه المجموعة من الأقاصيص
وهي محبولة متواضعة مني للمساهمة في
كتابة تاريخه وتدوين مفاخره والأشادة
بعبقريته ...

حبيب جلال

مصر



الملك الناصر صلاح الدين
في شبابه

تصدير

سئلت مرة من هو ، في نظرى -البطل المثالى بين ابطال الشرق،ومن هو البطل المثالى بين ابطال الغرب ؟

فاجبت انه صلاح الدين الايوبى - بين ابطال الشرق وابطال الغرب على الاطلاق .

كان هذا اعتقادى . ولا يزال . بعد أن قضيت العمر في مطالعة سيرة العظماء في التاريخ ، تاريخ الشرق وتاريخ الغرب على السواء .

فقد بلغ صلاح الدين منتهى ما يمكن ان يبلغه حاكم وقائد وزعيم، في ممارسة الحكم والقيادة والزعامة :

منتهى الدراية في حكمه ...

منتهى العدالة في أحكامه ...

منتهى الشجاعة في حروبه ...

منتهى الحلم في معاملة خصومه ...

منتهى العطف في معالجة شؤون رعاياه ...

منتهى الوفاء تجاه من كانوا له أوفياء ...

منتهى الاصاله في كل رأى أبداه ...

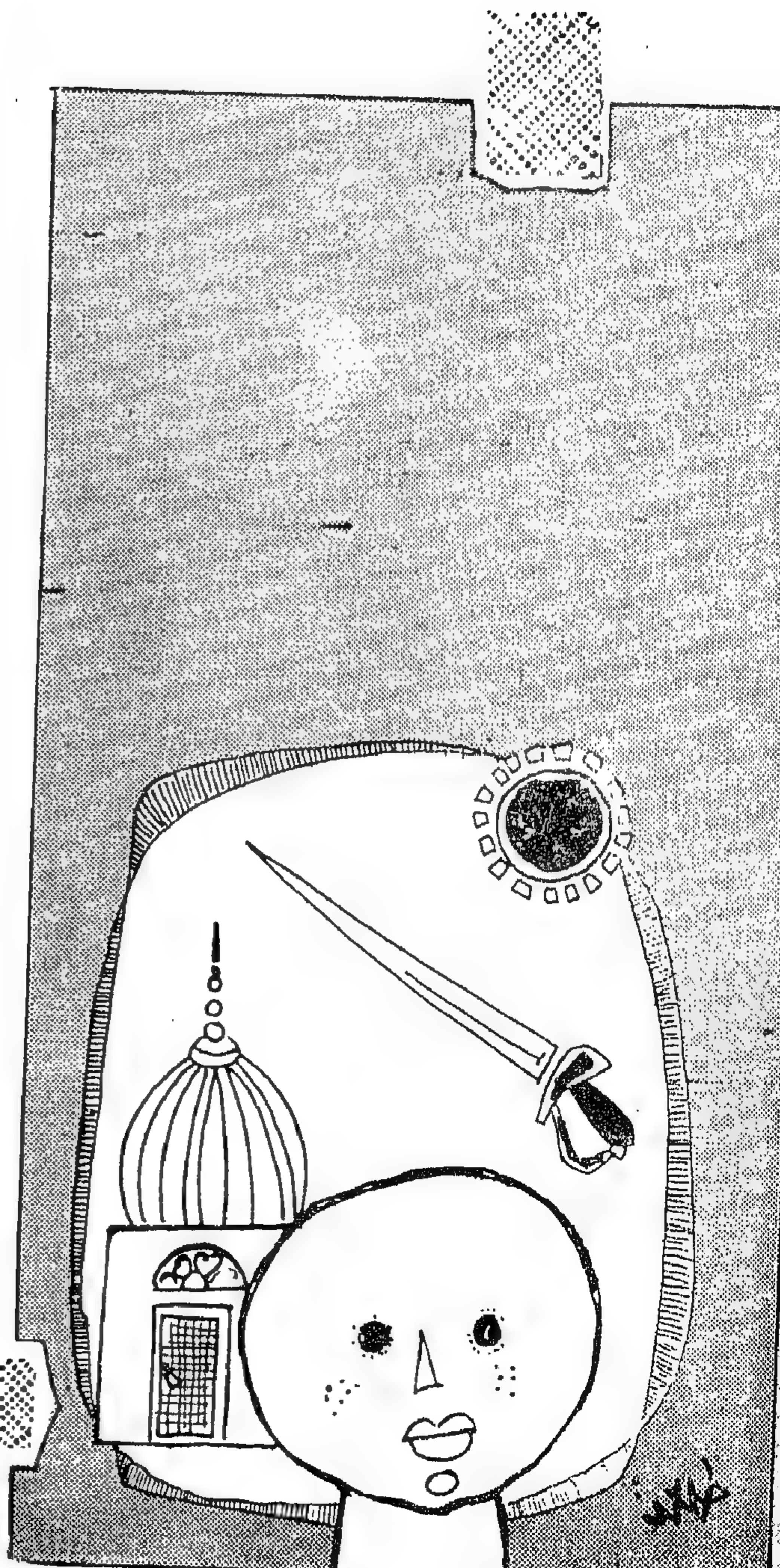
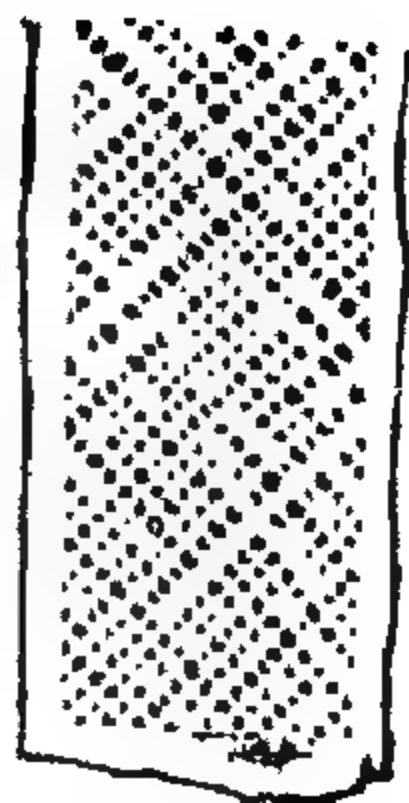
وقد تجلت البطولة في أروع مظاهرها ، خلال الحوادث الجسام التى أمتاز بها عهد صلاح الدين الايوبى : بطولة الكبار المعروفين ، وبطولة الصغار المجهولين .

وفي هذه الحلقة من سلسلة «تاريخ ما أهمله التاريخ» نقلت للقارىء نماذج من دراية الملك الناصر ، وعدالته ، وشجاعته ، وحلمه ، وعطفه، ووفائه ، وأصاله رأيه .

وأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة صادقة لشخصية صلاح الدين الايوبى ، من خلال ما تحلى به من فضائل وخصال .

القاهرة - فبراير - شباط ١٩٦٢ حبيب جاماتى

1923 m.d. 12/12



من هو صلاح الدين الايوبي ؟

هو يوسف بن ايوب بن شادى . اُله من قرية «دوين» ببلاد
أذربيجان . وهم أكراد من قبيلة الهذائية . نزلوا ببلدة «تكريت» بالعراق
واستعربوا . وفي تكريت ولد يوسف صلاح الدين فى سنة ٥٣٢ هجرية ،
الموافقة لسنة ١١٣٧ للميلاد . وقدر له أن يكون أول من يتولى الملك من
أسرته .

وتوفى فى دمشق ، سنة ٥٨٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٩٣
للميلاد ، فى السادسة والخمسين من العمر .

ابن نجم الدين ايوب .

الذى الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هجرية الموافقة لسنة
١١٧١ للميلاد .

تولى العرش بالقاهرة . وخضعت له سورية فوحد البلدين .
حارب خصومه ومزاحميه فى الداخل فتغلب عليهم . وحارب
الصليبيين الوافدين من الخارج فتغلب عليهم أيضا .
ولما وافته المنية ، كان قد استرجع من الافرنج معظم الاقاليم التى
تملكوها وبقوا فيها أكثر من مائة سنة .
ولم تقم لدولة أورشليم قائمة من بعده .

أما دولة الايوبيين - التى أنشأها صلاح الدين - فقد حكمت ٧٩
سنة . ولم يحمل سلاطينها لقب «خليفة» كما فعل الفاطميون قبلهم . بل
عادوا الى الاعتراف بخلافة العباسيين ببغداد .

وقد حكم بعضهم القطرين المصرى والسورى معا . وحكم البعض
الأخر مصر أو سورية فقط .

وخلفهم المماليك التركمان والشراكسة .

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز
فيسح الفقه القريب
الأسبوع
الأسبوعية

صالح الزبي

وربكمادول



لا يذكر اسم صلاح الدين الايوبى عادة الا ويذكر معه اسم خصمه ملك الانجليز ريكاردوس قلب الاسد . والاسمان ملازمان للحرب الصليبية الثالثة . وقد اسهب المؤرخون ، العرب منهم والافرنج على السواء ، فى وصف ما حدث بين البطلين فى خلال تلك الحرب مما توجزه فيما يلى :

عدد الحروب الصليبية ثمانية . اثارتها كلها أوروبا . من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠ للميلاد :

الحرب الاولى اسفرت عن اقامة دولة «أورشليم» فى فلسطين وبضع امارات فى الاراضى السورية ، فهى الوحيدة التى نجحت ، أما الحروب السبع التالية فقد انتهت كلها بالفشل ، وفقد الفرييون فى ختامها كل ما كانوا قد احتلوه من أماكن . . .

بدات الحروب الصليبية «دينية» ثم انقلبت الى «سياسية» ومنها انبثقت الفكرة الاستعمارية . . .

لما اعتلى ريكاردوس العرش ، تبارى الفرسان بضرب السيف فى مهرجان قال فيه الملك : «سمعت أن أمهر من يضرب بالسيف هم العرب وسأذهب لمنازلتهم فى هذا المضمار» .

كان هذا فى سنة ١١٨٩ ميلادية الموافقة لسنة ٥٨٥ للهجرة ، وكان صلاح الدين الايوبى قد استرجع من الافرنج مدينة بيت المقدس فى العام السابق .

فتحالف ملك الانجليز ريكاردوس ، وملك الفرنسيين فيليب اوغست ، وامبراطور الجرمانيين فردريك بربروس ، وقرروا الزحف برا وبحرا على الارض المقدسة وعرفت حملتهم هذه بالحرب الصليبية الثالثة . . .

مات فردريك غرقا فى نهر بآسيا الصغرى .

ونجح ريكاردوس وفيليب فى محاصرة مدينة «عكا» والاستيلاء عليها ، فقفل فيليب عائدا الى بلاده ، وبقي ريكاردوس وحده وجها لوجه مع صلاح الدين الايوبى .

كل خصم من الاثنين جدير بالآخر .
كان السلطان في الثانية والخمسين من العمر . والملك في الثانية والثلاثين .

وفي خلال حصار عكا سنة ١١٩١ ، أدرك صلاح الدين ان الخصم الذي اجتاز البحار وجاء لمنازلته في قلب مملكته ليس كبقية رجال الحرب ، وانه جدير باللقب الذي أطلقه عليه مواطنوه «قلب الاسد» .

وأدرك أيضا انه جلف غليظ أهوج ، شديد الاعتداد بنفسه ، سريع الاندفاع ، لا يقدر العواقب ولا يحسب حسابا للعقبات .

أراد أن يكسب وقتا بالتفاوض مع هذا الخصم العنيد . ليوقفه عند عكا التي لاقتحمها وأسر فيها نحو ثلاثة آلاف من خيرة الرماة والفرسان . ولكن ريكاردوس - بحجة أن صلاح الدين يماطل ويراوغ - أقدم على أول عمل من أعماله الهوجاء ، فذبح الأسرى عن آخرهم ، مخالفا في ذلك تقاليد الجروب ومبادئ الانسانية !

وقال السلطان في فورة غضبه : « ان الاسد لا يسفك دما الا اذا كان جائعا . أما الذئب والضباع فهي التي تسفك الدم لمجرد القتل ! »

وقرر ان يقطع المفاوضات ويثار للضحايا . . .

وبدا الصراع الرهيب ، ونزل البطلان الى حلبة المباراة الرائعة !

ندم ريكاردوس على ما أقدم عليه في عكا من قسوة مخضبة بالدم ، ملوثة بالعار ، فراح يتفنن في مجازاة خصمه في ضروب الفروسية والمواقف النبيلة ، لكي يمحو ذلك العار ويزيل اثر تلك الدماء !

تتابعت المعارك على طول الساحل الفلسطيني ، فما كان فرسان ريكاردوس يصلون فيها صولة ، حتى يتبعهم فرسان صلاح الدين بجولة توازيها في البطولة والاقدام

زحف ريكاردوس على « حيفا » ثم على « أرصوف » حيث اشتبك الفريقان في معركة من أشد معارك الحروب الصليبية هولا ، في السابع من شهر أيلول - سبتمبر ١١٩١ « ٥٨٧ هـ » وكتب الفوز في هذه المرة أيضا لقلب الاسد . .

وكان صلاح الدين قد وضع خطة « الارض الجرداء » فجعل رجاله يتراجعون أمام الغزاة ، ويقطعون في طريقهم الميساه ، ويردمون الإبار ويحرقون الزرع . وكانت أعمال التحصين تجري خلال ذلك على قدم وساق في بيت المقدس ، الهدف الاخير للحملة الصليبية الثالثة



الملك ريكاردوس قلب الاسد
قائد الحملة الصليبية الثالثة
وخصم صلاح الدين الايوبي

دخل الصليبيون مدينة « عسقلان » فوجدوها خرابا ! وواصلوا الزحف في المسالك المؤدية الى بيت المقدس خلال الجبال والوديان والتلال ، فاذا بهم يمرون في صحراء خاوية خالية !

في ليلة عيد الميلاد ، سنة ١١٩١ ، كانوا على مسافة عشرين كيلو مترا من المدينة المقدسة . ولم تقع انظارهم على أحد من فرسان صلاح الدين ...

وقفوا لاهثين ، حائرين ، مترددين ، واضطرب قلب الاسد للمرة الاولى ، أدرك أن هناك خدعة حربية أعدّها له خصمه ، فتشاور مع قواد جيشه ، وأصروا هم على القيام بهجوم عام على أسوار القدس ، وارتأى هو أن الارتداد عنها والعودة الى الساحل خير وأوفى!

وفي طريق العودة ، وافاه رسول من لدن السلطان يقول له : « انعد الى التفاوض ووضع حد لهذه الحرب ، فقد أخذ الصليبيون بيت المقدس في حملتهم الاولى ، لان ملوكنا وامراءنا كانوا متخاذلين مختلفين . اما اليوم فاننا نقابلكم صفا واحدا ولن تأخذوا بيت المقدس مرة ثانية! »

ورضى ريكاردوس بأن يدخل مع صلاح الدين في مفاوضات . لعلها أعجب مفاوضات عرفها التاريخ : فقد قامت على فكرة انشاء دولة مسيحية عربية في فلسطين ، تكون تابعة لسيادة الدولة الايوبية في مصر والشام ، حتى اذا ما تم الصلح على هذا الاساس ، تبعه زواج يدعمه ، بين الملك العادل أخى صلاح الدين والاميرة جان أخت ريكاردوس قلب الاسد !

وافق الملك ، ووافق السلطان ...

ولكن الاميرة رفضت أن تتزوج رجلا من غير دينها ، ورفض الملك العادل أن يخرج من دينه !

وتوقفت المفاوضات للمرة الثانية ...

وللمرة الثانية زحف ريكاردوس على بيت المقدس ، في شهر حزيران - يونيو ١١٩٢ « ٥٨٨ هـ »

وللمرة الثانية أيضا وقف يشاهد الابراج والاسوار والحصون ، ويفكر ويتردد ، ثم يرفض الاصفاء لنصيحة قواده بأن يهاجم المدينة وعاد ادراجه الى الساحل ..

لكى يستأنف الزحف مرة ثالثة في الشهر التالى - تموز - يوليو

١١٩٢

ويقف أيضا الوقفة نفسها ، ليفكر ، ويتردد ، ويقرر العدول
نهائيا عن مهاجمة المدينة المقدسة التي جاء من بلاده لاسترجاعها
ويتقهقر الى الساحل ، ليثبت فيه حكمه ، وينشئ فيسه
دولة جديدة ..

منذ ذلك الوقت ، سلك صلاح الدين مسلكا آخر ، وغير خطته
الحرية ، بعد أن تم له استكمال وسائل الدفاع ووسائل الهجوم
عرض على خصمه استئناف المفاوضات مرة أخرى على أساس
أن يرد ريكاردوس المدن التي استولى عليها ، ويحتفظ بعكاء فقط ، على
أن تكون تابعة لسيادة السلطان
رفض ريكاردوس ، وانتقل صلاح الدين الى خطة الهجوم ، وبدأت
ال الجولة الأخيرة ..

في شهر آب - أغسطس سنة ١١٩٢ ، اصطدم الفريقان في مدينة
يافا وحولها . وفي تلك المعركة التي استغرقت بضعة أيام وقع حادثان
دلا على ما كان يكنه كل من الفريقين من احترام وتقدير للفريق
الأخر ..

حدث أن وثب أمير عربي على ريكاردوس قلب الاسد ، رافعا
سيفه ، فتفادى ريكاردوس الضربة ورد على خصمه بضربة من سيفه
شطر بها جسم الفارس العربي شطرين ، فتوقف القتال فجأة ،
ورفع فرسان صلاح الدين سيوفهم وراحوا يهتفون للملك الانجليزى
امعجابا بتلك الضربة الهائلة ، وضرب أمير عربي ضربة قطع بها عنق جواد
انجليزى فوقف فرسان ريكاردوس يهتفون له ويهللون !

وحدث مرة أخرى أن قتل حصان ريكاردوس فأعطاه أحد رفاقه
حصانا آخر قتل أيضا ، وأخذ حصانا ثالثا من رفيق ثان فقتل مثل
ال حصانين السابقين ، ووقف ريكاردوس على صخر يضرب بسيفه يمينه
ويساراه وقد أحاط به أعداؤه . وإذا بفارس من فرسان الملك العادل
يشق الصفوف نحوه . ويقدم به جوادين عزيين أصيلين قائلا له : «ان
مولاي السلطان وأخاه الملك العادل يرجوان منك قبول هذين الجوادين ،
لكى تواصل القتال وأنت راكب ، لانه لا يلىق ببطل مثلك أن يحارب
وهو واقف على قدميه ! »

بعد المعارك المتوالية ، التي لم يستطع فيها ريكاردوس قلب الاسد أن
يحرز نصرا يمكنه من فرض الصلح الذي يريده على خصمه ، وبعد أن
أدرك الملك أن طريق القدس لن تفتح امامه مرة أخرى ، وأن الفوز

النهائى لن يكون بجانبه قرر ان يعود الى مفاوضة صلاح الدين ، وأن يصل معه فى هذه المرة الى اتفاق يضع حدا لسفك الدماء

وفى اثنائى من شهر أيلول - سبتمبر سنة ١١٩٢ ، تم عقد الصلح بين البطلين، وقد قال صلاح الدين ان ذلك الاتفاق هو صلح الاشراف ورضى بأن تفتح الطريق الى بيت المقدس ليسلكها الراغبون فى زيارتها من الحجاج المنتصاري من الشرق جاءوا او من الغرب وتعهده ريكاردوس ، باسمه وبالنسابة عن قومه ، بأن يحترم نصوص الاتفاق ولا يستأنف القتال . وان يرحل بجيشه عن ارض فلسطين . ويعيد بعض المدن التى استولى عليها ، ويحتفظ ببعضها للامراء النصارى الذين كانوا فيها قبلا .

على تلك الصورة انتهت الحرب الصليبية الثالثة ، التى بدأ بها امبراطور وملكان ، وواصل القتال فيها ملك الانجليز وحده . .

وكان بعضهم قد همس فى اذن ريكاردوس ان صلاح الدين الايوبى يحاول ان ينال منه بغير السلاح الشريف . وانه يسعى الى دس السم له فى الطعام ، بواسطة خونة من رجاله الانجليز .

وحدث مرة فى خلال هدنة اتفق عليها الفريقان . ان مرض ريكاردوس واشتدت عليه وطاة الالام ، فقبل له ذات يوم ان طبيباً عربياً وصل الى المعسكر ويرغب فى المثل بين يديه .

دخل الطبيب وفحص المريض واعطاه دواء شربه ريكاردوس فى الحال . واذا بالطبيب يكشف عن شخصيته :

« أنا صلاح الدين يا ريكاردوس ! ولو كنت اضر لك شراً وارغب فى دس السم لك ، لفعلت هذا الان ! ولكننا لا نقتال قدراً ، ولا نقتل الا فى ساحات الحرب ! » .

ولما شفى ريكاردوس ، رد الزيارة لصلاح الدين شاكرًا ، فقدم له السلطان « شراب الورد » المثلىج ، وعرف الفرييون منذ ذلك الوقت ما هى « الشربات » ويسمونها « سوربى » .

وعرفوا من ضروب الفروسية ، والشهامة ، والوفاء ، والنبيل ، واكرام الضيف ، ما كانوا يجهلون !

የሰላም ምስክር



حدث في سنة ٥٧٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٢ للميلاد ، أن
الافرنج في بيروت - المدينة الجائمة على ساحل لبنان - فتكوا
بقافلة كانت تحمل الارزاق والاسلحة الى يوسف صلاح الدين
الايوبي ، فهاج هائج السلطان ، وثار ثأثره ، وعزم على الانتقام من
المعتدين ، والاستيلاء على المدينة البحرية وضمها الى املاكه .

وكان الامر قد استتب له فقبض على زمام السلطة في الاقطار المصرية
والشامية ، وجعل يهاجم ، الواحد بعد الآخر ، الحصون والمعازل الباقية
في قبضة الافرنج ، تمهيدا للاستيلاء على بيت المقدس ، حيث كان يقيم
الملك بلدوين الرابع . على راس الدولة التي أسسها الصليبيون هناك .

سنحت له الفرصة للاستيلاء على بيروت . فاغتنمها ، وسار اليها بفريق
من ابطاله ، ففزا برها ، وكان أخوه « العادل » قد أرسل اليه من مصر
ثلاثين مركبا فسار الى دارا وعسقلان وغزاهما وخربهما ثم عاد الى
بيروت وهاجمها من جديد . .

لكن ملك القدس ، بلدوين الرابع ، أسرع الى نجدة المدينة ، فحارب
صلاح الدين واضطره الى العودة على اعقابيه . . .

وتوالى المعارك وتتابعت منذ ذلك الوقت بين الفريقين ، وكان
صلاح الدين قد غادر القاهرة على الا يعود اليها الا بعد ان يرفع اعلامه
على المدن والقلاع الشامية جميعها ، سواء اكانت خاضعة للافرنج او
نسبواهم من أمراء العرب ، فتطاحن الأبطال في الميادين ، من حلب
الشهباء الى صحراء سيناء الى واحة دمشق الى بادية الشام . .



في سنة ٥٧٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٣ للميلاد ، كان صلاح
الدين قد أخذ قلعة حلب عنوة ، واستولى على تلك المدينة وطرد منها
أميرها ، فرجع بعد ذلك الى الجنوب ، وعبر نهر الأردن بجيشه ، وأحرق
بيسان ، وتوغل في ذلك الوعر متجها الى حصن من حصون الافرنج
الحصينة ، ومقل من معاقلم المنيع ، لاقامة الحصار عليه، وانتزاعه من
أصحابه .

ذلك الحصن الحصين ، والمقل المنيع ، هو مدينة « الكرك » بأسوارها
وآجامها وصخورها . مدينة الكرك ، الصغيرة بحجمها ، الكبيرة بأسمها ،

الرابضة في وسط الجبال والهضاب ، بحاميتها الشجاعة ، تتحدى الغزاة والمهاجمين ، وتصدهم عنها خائبين .

طلب صلاح الدين الى اخيه العادل أن يمدّه بنجدة قوية من جيوشه المصرية ، فلبى العادل النداء ، وسير الى الكرك جيشا عظيما ، التحق به هناك رجال صلاح الدين . ونصب العرب المجانيق حول المدينة ، وأقاموا عليها كميناً من جميع الجهات .

وكان ذلك في شهر تشرين الثاني - نوفمبر من تلك السنة

هجم العرب على الاسوار والابراج مرة بعد مرة ، دون ان يتمكنوا من اقتحامها أو أحداث ثغرة فيها أو هدم ركن منها .

ذلك لان الافرنج كانوا قد احتاطوا للامر ، فجلبوا من الاقطاعات التابعة لهم ما استطاعوا جلبه من رجال الحرب والذخيرة والعتاد ، فصمدوا للمهاجمين ، واثقين ان القلبة ستكون لهم في النهاية ، وان السلطان سيضطر الى رفع الحصار والابتعاد عن مدينتهم ، بعد أن يشعر بمعجزه عن الاستيلاء عليها .



لترك الجنود والقواد في حومة القتال ولننتقل الى داخل الاسوار ، ونتجه الى ناحية معينة ، الى برج من الابراج المشرفة على الهضاب ، حيث نرى حركة غير عادية ، وجلبة غير جلبة الجند في مجالسهم ومعسكراتهم .

في ذلك البرج أناس يروحون ويجيئون ، بينهم الرجال والنساء والاطفال . هذا يحمل أزهارا ، وذلك يحمل شموعا مضاءة ، وتلك تضم بين يديها مجموعة من الشرائط الملونة وبين الجماعة أيضا رهبان يسرعون وفي أيديهم المنابع والمباخر ، وجيش من الخدم ينقل من مكان الى مكان الاطباق والدنان المملوءة بأنواع الطعام والخمور .

وعلى جميع الوجوه يطفح السرور ، لكن الابتسامة تمتزج من وقت الى آخر بشيء من المرارة . . .

في داخل القلعة المحاصرة ، يستعد الافرنج لاقامة الافراح ، احتفالا بزواج عريس وعروس من الاشراف .

ومن أعلى برج من الابراج ، وقفت « اتيانات » أميرة شرق الاردن ، وزوجة صاحب القلعة ، وأرسلت نظرها الى ابعد ما تستطيع في الوعر الذي ضرب فيه المسلمون مضاربهم ، بألوانها الزاهية .

انها تمتد من أسفل الاسوار الى الافق البعيد ، تلك المضارب .

واشعة الشمس تنعكس على أسنة الرماح المغزوسة عند ابوابها ، وعلى الدروع الملقاة على الأرض حولها .

انها هنا ، تلك المضارب ، باطنابها الملاصقة للابراج ، تتحدى قلعة « الكرك » الحصينة : لقد جاء صلاح الدين ، سلطان الديار المصرية والشامية ، بجيشه اللجب ، وأقام الحصار على « صخرة الصحراء » كما كان الناس يسمون الحصن الهائل ، بغية الاستيلاء على ذلك المعقل الذي كان الصليبيون يسيطرون منه على طرق سورية ومواصلاتها .

صلاح الدين ! انها تعرفه . وتعرف مبلغ حقسه على زوجها ، رينودى شاتيون ، الشرس اذا ما ذكرت الشراسة ، القاسى اذا ما ذكرت القسوة ، وتعرف اتيانات ايضا ان ذلك الزوج هو الذى جلب على امارته الويلات ، وعلى مملكة اورشليم الكوارث ، بأعماله الطائشة المجرمة .

لقد اعتصم فى قلعة الكرك ، وجعل يرقب القوافل فى روحاتها وفدواتها ، وينقض عليها ، فيسلبها احمالها ، ويلذع رجالها ، وينحدر بشجاعته وشرفه الى مصاف اللصوص قطاع الطرق !

عندما وقع اختيار الأميرة اتيانات على الامير رينو زوجها على أثر وفاة زوجها الاول الكونت دى ميلى ، كانت معجبة بأقدامه وقوته وفروسيته ، فوضعت حياتها وحياة ابنها « هومفروا » فى حماية سيفه البتار ، وأعطته إمارة شرق الاردن وحصن الكرك ، مؤملة فى مستقبل غير هذا ، راجية للرجل الذى اختارته مهمة غير هذه !

كانت تعلل النفس بأن يكون رينو فخر الدولة الصليبية وحامى ذمارها !

أمكن أن يكون هو ، هو نفسه ، رينودى شاتيون ، الذى يثير بأعماله الفاضحة هذه العاصفة على امارته ؟

تنهدت اتيانات واستسلمت للاحلام !

نعم انها تعرف صلاح الدين الذى يحاصر القلعة ويضيق عليها الخناق . . .

لقد كان أسيرا فى قصر ابيها ، وهى شابة فى السادسة عشرة من العمر . . .

تذكرت يوم زفافها الاول . .

اقام الافرنج فى ذلك اليوم مهرجانا دعوا فيه فرسان العرب الى مباراة على ظهور الجياد ، اشترك فيها صلاح الدين وخرج منها ظافرا . . .

جاء بالجائزة التي ربحها ، والقاها على قدمي اتيانات ، وانشدها
ايانا لشاعر عربي !

وشغرت الفتاة النبيلة بنظرات الفارس الشجاع تكتنفها من كل
ناحية ، وخيل اليها ان في تلك النظرات شيئا من العطف والاسى !

تذكرت اتيانات كل ذلك . وتذكرت ايضا ان السلطان صلاح
الدين شهم كريم ، وانه يميل بعد الطعن والضرب في الميادين الى سماع
تفريد الاشعار وخرير المياه في ظلال الاشجار ، وانه يقضى ساعات طويلة
معمض العينين ، بين الوسائد الحريرية ، يصغى الى اوتار الاعواد . .
وابتعدت اتيانات فجأة عن المكان الذي كانت تنظر منه الى خيام
العرب !

واتجهت الى المكان الذي كان القوم يستعدون فيه لاقامة الافراح !

لقد اعتزمت اتيانات امرا ! . . انها تفكر في ان يشاركها صلاح
الدين في سعادتها ، بمناسبة زواج ابنها . .

انها تحب ذلك الابن الوحيد ، هو مفروا ، حبا افرغت فيه كل ما
يحويه قلبها من عاطفة بعد وفاة زوجها الاول ، وبعد ان خاب أملها في
زوجها الثاني . . .

وقد اختارت للابن الحبيب عروسا من بيئته ، هي اليزابيث ، ابنة
أمورى ملك القدس .

مات الملك فتزوج رينودى شاتيون الملكة الارملة ، وتبنى الطفلة
اليزابيث ، فعاشت في كنفه . . .

وماتت أمها . . .

وتلفت رينو حوله باحثا عن زوجة ثانية ، في الوقت الذي كانت
فيه اتيانات زوجة الكونت دى ميلى ، تتلفت ايضا حولها باحثة عن زوج
ثان ، بعد وفاة الكونت . . .

وهكذا جمعت الضدف بين الارمل والارملة ، فوجد رينو ضالته
المنشودة ، ووجدت اتيانات الرجل القوى الذي كانت في حاجة اليه .

وكبر الطفلان معا ، جنبا الى جنب ، هو مفروا يتيم الاب ، واليزابيث
يتيمة الابوين .

ورأت اتيانات ان تربط بينهما برابطة الزواج ، ووافقها رينو على

ذلك ، واعلنت في حصون الصليبيين خطبة هومفروا بن اثيانا على اليزابيث ربيبة رينو .

وتحدد موعد الزواج ، ومكانه .

وشاءت الصدف ايضا أن يكون المكان ، في ذلك الموعد بالذات ، محفوقا بالخطر ، بسبب الحصار الذي ضربه صلاح الدين على قلعة الكرك ، ليستقم من عدوه رينودتى شاتيون ...

قبيل غروب الشمس ، فتح باب من ابواب الكرك ، والقى المعبر على الخندق المحيط بالإسوار ، فاجتازه أربعون من الرجال والفلمان ، حاملين على اكتافهم ورؤوسهم آنية وأطباقا كثيرة ، متجهين الى معسكر العرب ، وأمامهم فارس في عدة حربه ، ممتطيا جواده ، رافعا يميناه علما أبيض اللون ناصعا ...

طلب الفارس من الحراس أن يذهبوا به الى صلاح الدين الايوبى ، فاجابوه الى طلبه . وأمر السلطان بادخاله عليه في مضربه ، ولما مثل الفارس الافرنجى بين يديه خاطبه قائلا :

— ايها المولى . أوفدتنى إليك الاميرة « اثيانا » والدة الامير هومفروا دى تورون ، الذى نحتفل اليوم بقرانه، وعهدت الى بأن أبلغك رسالة أملتها على وان أضع بين يديك هذه الهدايا التى يحملها رجالى .

فارتسمت على وجه صلاح الدين امارات الغبطة ، ودعا الرسول الى الجلوس ، وقال بصوت متهدج ..

— اننى أذكر اثيانا ولا أنساها . واذا كنت آسف لشيء اليوم ، فلاننى أقيم الحصار على الحصن الذى تأوى اليه ، ولكن زوجها هو السبب !

وطلب السلطان من الرسول أن يفضى اليه برسالته . فقال الرجل :

« ايها السلطان العظيم . تقول لك الاميرة اثيانا : يعم الابتهاج الليلة مدينتنا الصغيرة ، ونحتفل بزواج ولدى هومفروا ، ولكننى أبيت الا أن يكون لك نصيب في أفراحنا يا صلاح الدين . الا تذكر أياما كنت فيها سجيناً في قيورنا ، تلعب مع الطفلة اثيانا ، وتطوف معها الحدائق والبساتين ؟ لقد كبرت اثيانا يا يوسف ، وتزوجت ، ورزقت ولداً هو اليوم سيد قومه ، ولا شك في أنك سوف تحبه لو رأيته كما كنت تحب أمه وهى صغيرة ، لأنه جميل وشجاع مقدام ، جدير بحبك وعطفك وأعجابك يا صلاح الدين ، وقد خملت أربعين من رجاله وغلمانه

نصف ما أعددناه لحفلة الليلة. من طعام وشراب هدية لرجالك وغلمانك .
فاشتركوا معنا ياعقبان الميادين في هذا الاحتفال العظيم والعيد الكبير .
واذكر دائما بالخير ياسلطان العرب ، تلك التي عرفت بها طفلة والتي لم
تشك لحظة واحدة في أن الرجل الخامل الذي كنته ، سوف يصبح في
المستقبل في عداد الأبطال البواسل وتقبل تحية الوداد والاعتراف لك
بالنبل من صديقتك الصغيرة بالامس الكبيرة اليوم »

سكت الغريب . واجاب صلاح الدين :

« ايها الرسول الافرنجى

« عد الى مولاتك اتيانات وقل لها ان يوسف صلاح الدين لا يزال
يذكر تلك الايام التي قضاها في الاسر ، متنقلا بين قصور الافرنج وأبراجهم
وحصونهم ، وانه لا ينسى مادامت الحياة تدب فيه أن تلك الطفلة التي
أحبها وأحاطها بالعطف كانت تبعث في نفسه الامل والرجاء ، وتدفع عنه
بإبتسامتها الحلوة ، ومداعباتها اللطيفة ، شبح اليأس والضعف والقنوط !
فل لها اننى أحفظ لها جميل الذكرى ، وآمل ان يكون شأنها معى كشأنى
معه . اننى أتقبل هديتها ، وسأوزع محتويات هذه الأطباق والانية
على رجالى وغلمانى ، لكى يشاركوا الافرنج الليلة في أفراحهم ، ويأخذوا
نصيبهم من وليمة العرس . ولتكن اتيانات واثقة ان القتال سيتوقف
الليلة وغدا وبعد غد . فان رجالى لن يقتربوا من البرج الذى تقام
فيه حفلة الزفاف ، ولن يزعمجوا العروسين وذويهما بصياحهم وضجيجهم
وقعقة أسلحتهم . فاذهب . واحمل الى مولاتك العزيزة الشريفة ،
اعطر تحية وأطيب سلام من صلاح الدين ، صديقها بالامس ، وصديقها
اليوم ! »

وعاد الرسول من حيث أتى . وصحبه اثنان من رجال صلاح
الدين : واحد يحمل صندوقا صغيرا فيه جواهر وعطور . وواحد
يقود جوادا أصيلا ..

الجواهر والعطور هدية السلطان الى العروس اليزابيث . والجواد
الاصيل هديته الى العريس هومفروا

وأصدر صلاح الدين أمره الى القواد والجنود فأوقفوا القتال ،
وشهدت أسوار الكرك وسهولها وآكامها في تلك الليلة مشهدا لم تدون
صفحات التاريخ مثله في جميع العصور : جيشا يتوقف عن مهاجمة
قلاع يحاصرها منذ أسابيع ، ويشترك في أفراح يقيمها عدوه المحاصر
داخل الأسوار !

هذا ما حدث مرة واحدة في التاريخ ، بأمر من يوسف صلاح الدين

الايوبى ، سلطان الديار المصرية والشامية ، اكراما لصديقه الافرنجية
اتيانات ، فى شهر تشرين الثانى - نوفمبر من سنة ١١٨٣ للميلاد ،
الموافقة لسنة ٥٧٩ للهجرة !

لم يسقط الحصن فى تلك السنة بأيدى المسلمين ، لان رينو ارسل
يطلب النجدة من ملك بيت المقدس ، جى دى لوسينيان ، قلبى الملك
النداء وزحف على الكرك بجيش عظيم ، فاضطر صلاح الدين الى رفع
الحصار امام ذلك العدو الكثير العدد .

لكنه عاد الى محاصرة القلعة فى السنة التالية ، وكانت النساء قد
غادرن المكان والتجأن الى أسوار اورشليم ، ولم يبق فى الكرك غير
الرجال ، وقد استعدوا للقتال مستميتين .

وهاجم صلاح الدين القلعة برجاله ، وما أسدل الليل ستره على
الارض حتى كان المسلمون قد اقتحموا تلك الاسوار المنيعة ، وانتشروا
فى داخلها ، ورفعوا اعلامهم على أبراجها .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين ، فى مختلف الميادين . .

وبعد سقوط الكرك بأقل من أربعة أعوام ، هزم صلاح الدين
جيوش الافرنج فى معركة حطين ، وأسر ملكهم وامراءهم ، وقتل بيده
الكونت رينو دى شاتيون ، زوج اتيانات ، الاميرة التى عرفها صفيرة . .
كانت اتيانات فى بيت المقدس مع النساء الاخريات ، تنتظر مرتعدة
خائفة نتيجة المعركة الحاسمة .

وانبعثت من صدرها صرخة ألم وحسرة ، عندما حمل اليها
الرسول الخبر المفجع ، فعلمت أن ابنها وقع فى الاسر ، وأن السلطان صلاح
الدين الايوبى قد نحر زوجها رينو نحرًا بضربة من خنجره !

بكت اتيانات . ثم ارتدت ثوب الحداد الذى ترتديه الارامل ، وذهبت
الى الكنيسة حيث ركعت تصلى ، وتتصفح قلبها . .

بكت لانها شعرت فى وقت من الاوقات بأنها تكره زوجها !

بكت لانها لم تكن تحب زوجها كما يجب أن تحبه !

بكت لانها تركت لأفكارها العنان فانطلقت تلك الافكار الى رجل
آخر . .

بكت لأن ذلك الرجل الآخر هو الذى قتل زوجها بخنجره !

دخل السلطان يوسف صلاح الدين الايوبي بيت المقدس على رأس جيشه المظفر وخضعت له المملكة الافرنجية من صحراء الكرك الى ساحل البحر الابيض .

وجيء اليه بالاسرى والسبايا ، وكانت اتيانات بينهم !
وقفت امامه بين جنديين من جنوده جامدة ، لا تبدي حراكا ، ناظرة الى الارض .

ووقف صلاح الدين يرمقها بنظرة ملؤها الحزن والحسرة !
ماذا ينتظر منها غير العدا والكره والاشمئزاز ؟
اما قتل زوجها ؟ اما أسر ابنها ؟ انه يعرف نساء الافرنج وماطبعن عليه من كبرياء وانفة واباء !

لا .. لا ينتظر صلاح الدين من اتيانات شيئا !
امر باحضار الابن الشاب فجيء به اليه ، وعندما وقف هومفروا امام امه ، اخذه صلاح الدين بيده وقال للاميرة الافرنجية :
- انبى اعيد اليك ولدك . فارحلى به وبزوجته ، انكم احرار !
واراد ان يضيف على ذلك ان صورة الاميرة المحبوبة ستظل مطبوعة على صفحات قلبه وان فكره سيتبعها أينما سارت وحلت ، لكنه لم يجرؤ على ذلك !

وضع السلطان تحت تصرف الاميرة وابنها وزوجته كوكبة من فرسانه لمرافقتهم الى حيث يريدون ..
وظل صلاح الدين واقفا . فركبت الاميرة اتيانات فرنسا البيضاء ، وابتعدت بعد ان ألقت نظرة أخيرة على الرجل الذى قامت بينها وبينه عاطفة هي أقوى من المحبة ، وأضعف من الحب ..
'ونظر' اليها السلطان صامتا ! ..

ثم رفع يده لتحية الاميرة الافرنجية ، وعاد الى الاهتمام بما هو اعظم شأنًا من امرأة جميلة تبتعد على صهوة فرس بيضاء !

چند ماہ



وصل الرسول الى مضارب العشيرة فاذا به يجد القوم في شغل شاغل عن الحوادث الجسام التي كانت الديار الشامية ميدانها، في تلك الحقبة المضطربة من تاريخها، أنهم يدقون الاوتاد وينصبون خيمة حاكتها نساء الحي من وبر الابل، وينظفون القصاع والصحاف والقوارير، ويخلطون في الاجران التوابل والمساحيق، ويجددون سروج الخيل، ويجلون النصال والرماح ..

ان العشيرة تعد العدة لاقامة الافراح، احتفالا بزواج اعز مريس واجمل عروس في مضارب الحي : عودة بن فالح ومسعودة البدوية ..

غير ان ذلك الرسول كان قد جاء ليحث القوم على التأهب للحرب .. انه موفد من الامير سيف الدين بن المشطوب، ليقول لعبيد العشيرة وحكيمها، الشيخ فالح الملقب بابي الخيل : « يا فالح ! لقد هاجم الاعداء مدينتي حمص وحماء، حيث لك اخوان واهل تربطك بهم رابطة الرحم . وساسر قدا او يعد غد لنجدة حماه ورفع الحصار عنها، فهل لك ان تلتحق مع فرسانك بالكتائب الزاحفة تحت قيادتي، لتشاركنا في مخاطر القتال، ومفاخر النصر، واسلاب المعركة ؟ »

لم يتردد « فالح ابو الخيل » ولم يستشير احدا من بني قومه، بل اجاب على الفور : « قل لسيف الدين انني لها .. وليكن لقاءنا بعد يومين، عند مخاضة الصفصاف، على نهر العاصي ! »

وعاد الرسول ادراجه، حاملا الى الامير الذي اوفده، جواب صديقه البدوي ..

كان الشيخ فالح من اشهر مروضي الخيل في زمانه . نزع جده من نجد واستقر في بادية الشام، وورث هوعنه وعن ابيه معرفتهما الواسعة في اصول الجياد . فاشتهر وذاع صيته . وناداه مرة السلطان نور الدين محمود بن زنكي « يا ابا الخيل » فاصبح ذلك الاسم لقبا لازمه واطلقه عليه الناس .

واما العشيرة التي التفت حول الشيخ فالح، فلم تكن في الواقع غير مجموعة من الاسر البدوية والحضرية، هام افرادها بحب الخيل وانصرفوا الى هواية تربيته، وترويضها، فتألفت منهم تلك العشيرة التي خضعت للشيخ فالح وألقت بين يديه قيادها، فاتخذ لها الرجل مقرا عند اطراف البادية، على مقربة من مشارف نهر العاصي .

خرج فالح ذات يوم في رحلة تجارية الى مدينة بعلبك ، وعاد منها
ومعه طفلة يتيمة ماتت أمها وقتل أبوها في معركة مع الصليبيين ، وتبنى
الشيخ الطيب تلك الطفلة التي نشأت وترعرعت في كنفه ، مع ابنه
الوحيد « عودة » وفي رعاية زوجته « ساطعة » . وسميت اليتيمة
« مبنوعة البدوية » .

ولما بلغت الرابعة عشرة من العمر ، كان عودة قد جاوز السابعة
عشرة ، فأفصى الى أبيه برغبته في اتخاذ الصبية زوجة له . ولم يمانع
فالح ، ورضيت الأم برغبة وحيدها ، وانصرفت العشيرة برجالها ونسائها
الى اعداد العدة للعرس الذي كان في الواقع عرسا للعشيرة كلها . .

وشاعت الاقدار أن تغير مجرى الامور ، وإن يستطى الرجال متون
خيولهم للذهاب الى الحرب لا للقيام بالعباب الفروسية ، وأن تنطلق
الأهاليخ والزغاريد من أفواه النساء ، لاذكاء « الحماسة » في الصدور ،
لا لتحية العروس في هودجها ، ومصاحبتها الى خدرها . . .

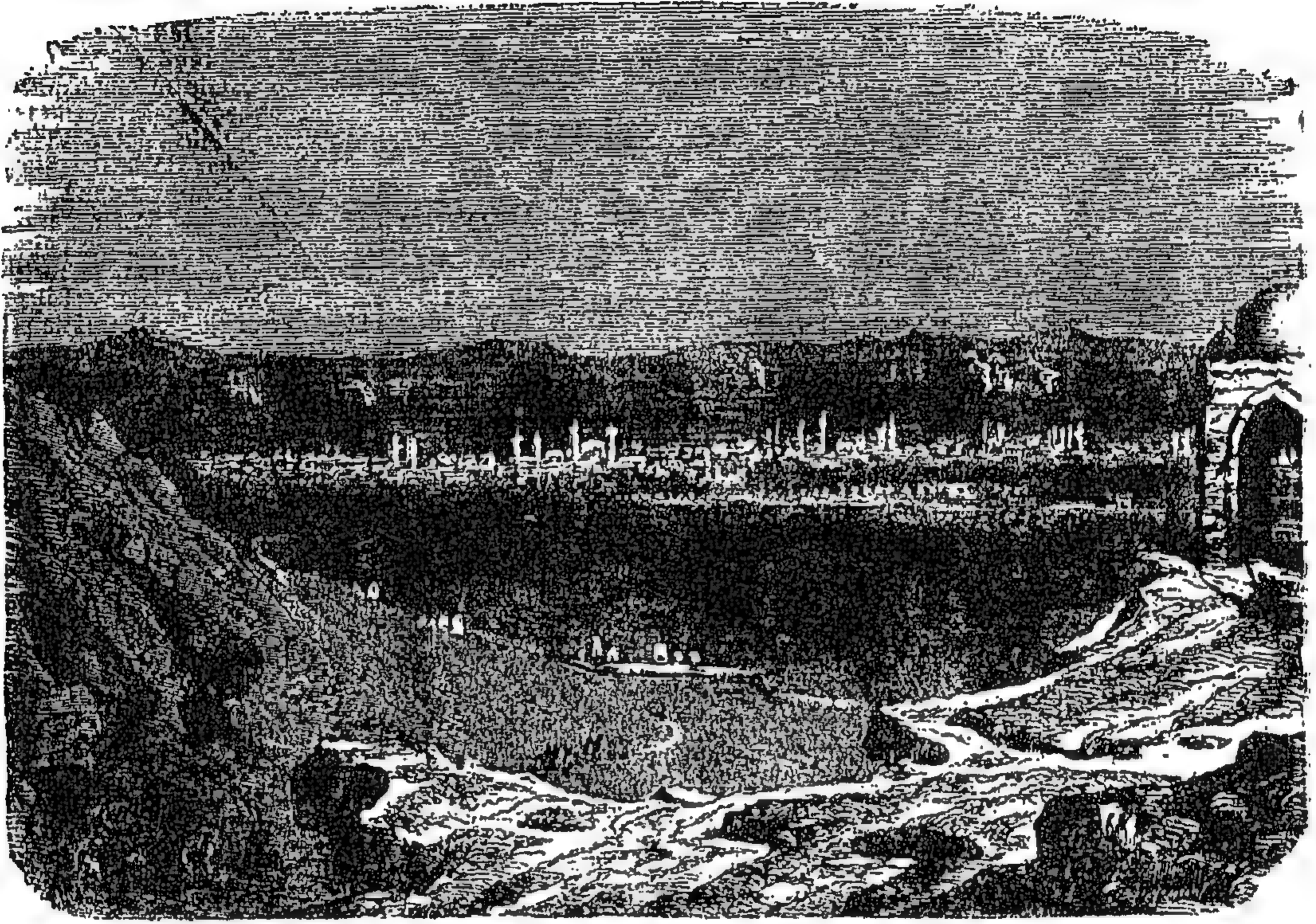
● نحن في سنة ٥٧٣ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٧٧ للميلاد .

مات الملك العادل نور الدين محمود ، سلطان الديار الشامية ، وأسرع
صلاح الدين الأيوبي من القاهرة الى دمشق ، وشرع في الاستيلاء على
السلطة ، وتوحيد القطرين في دولة واحدة متماسكة الاطراف والأجزاء ،
وبادئ بنقيبه سلطانا بعد أن خضعت له المدن السورية الكبيرة ، دمشق
وحمص وخمّاء وحلب ، وأخذ من الخليفة العباسي في بغداد اعترافا بلبقه
وسلطته ، ومضى في إخضاع البقية الباقية من الأمراء والاقبال المتمردين ،
وفي التاهب للإقامة الجيوش الصليبية التي بدأت تتحرك للتوغل في
داخل البلاد .

تحالف الافرنج مع الروم البيزنطيين ، وهاجموا دمشق وأخذوها
عنوة ولكن صلاح الدين استرجعها منهم وعين فيها أخاه شمس الدولة
تورانشاه نائبا عنه . وولى على مدينة حمص ابن عمه ناصر الدين محمد
بن شيركوه ، وعلى مدينة حمّاه خاله شهاب الدين محمود . وعاد الى
مصر لتنظيم شئونها ، ودفع خطر الغزو عنها ، لما بلغه أن الخلفاء
الصليبيين والبيزنطيين يستعدون لمداومة سواحلها من البحر .

لكن الخلاف دب بينهم ، فبأدت حملتهم البحرية بالفشل ، واغتتم
بعض إمرائهم قرصة غياب السلطان عن سورية ، ووجهوا أنظارهم الى
مدنها وحصونها .

وفي شتاء سنة ١١٧٧ ، حشد الافرنج جيشا كثير العدد وافر العدة ،



تحالف الافرنج والبيزنطيون وهاجموا دمشق واخذوها عنوة ، لكن
صلاح الدين استرجعها منهم واتخذها مقرا لملكه

في مدينة طرابلس في سفوح لبثان ، وزحفوا به وهدفهم حمص وحماه ..
ووثبوا على حمص ..

خرب المعتدون القرى والمزارع ، واضرموا فيها النار ، واسروا
الفلاحين في حقولهم ، وضربوا الحصار حول حماة ، وارسلوا الى طرابلس
فوافل من البغال والجمال ، تحمل الاسلاب والاسرى .

لكن ناصر الدين محمد بن شيركوه ، حاكم حمص ، طارداً للقوافل
على رأس حماية المدينة ، وادركهم في منتصف الطريق ، واسترجع من
الافرنج من أسروه وما سلبوه ، واستحوذ على القوافل والقائمين على
حراستها ، وعاد الى مدينته ، وانصرف الى تحصين مواقعها وتنظيم
الدفاع عنها .

غير ان الجيش الصليبي ، بعد أن اجتاح الحقول والمروج والقرى
حول مدينة حمص ، لم يتوقف لحصارها ، بل واصل زحفه شمالاً ،
والتحق بالقوة التي سبقتة الى مدينة حماه وحاصرتها ..

كان حاكمها ، الامير شهاب الدين محمود ضعيفاً مريضاً ، لا يقوى
على الحراك ، ولا يستطيع مواجهة الخطر الداهم بما تقتضيه الحالة من
عزم ونشاط . ولم يكن يوسع جاره ناصر الدين أن يشجده ، خوفاً من
أن يكشف مدينته لهجوم فجائي من العدو . فبعث شهاب الدين الى
نائب السلطان في دمشق ، تورانشاه الايوبي ، يطلب منه أن يوافيه
بالنجدة لانقاذ المدينة من السقوط ، وسكانها من اللدبح والاسر ..
ولم يفعل تورانشاه شيئاً مما كان الواجب يحتم عليه أن يفعله . بل
انه لم يدرك مدى الخطر الذي يهدد المدينتين حمص وحماه ، والذي
سوف يمتد بعدهما الى دمشق نفسها . . .

لم يكن تورانشاه يتصف بأخلاق مماثلة لأخلاق أخيه صلاح الدين .
بل كان ضعيف الإرادة ميالاً الى المرح وملذات الحياة . وقد أدرك واحد
من تابعيه ، الامير سيف الدين بن المشطوب ، ما قد يترتب على مسلك
رئيسه من عواقب وخيمة . فقرر من تلقاء نفسه أن يقدم حيث أحجم
تورانشاه ، وان يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن حماه وانقاذها ، شاء
تورانشاه أم أبى !

أوفد سيف الدين رسلاً الى الحواضر والبادي ، واستنفر الرجال
واستنهض الهمم ، ففرع الفرسان اليه من كل صوب ، وراح يحشد
يجمعهم في السهول والنجاد ، أو يتواعد معهم على اللقاء في الطريق ،
ليقودهم في الزحف الى الشمال .. .
واقسم ابن المشطوب على أن يقدف بالافرنج الى الغرب ، ويظهر منهم
وادي العاصي

كان الشيخ فالح أبو الخيل في انتظار سيف الدين بن المشطوب حسب وعده ، عند مخاضة الصفصاف ، على ضفاف النهر ..

فقد تشاور مع كبار العشيرة وصغارها ، بعد رحيل الرسول ، فوافقوا جميعا على تأجيل العرس الذي كانوا يتأهبون لاقامته ، وتلبية الدعوة التي وجهت اليهم للاشتراك في الحرب ..

وأبت النساء الا أن يرافقن الرجال ، جريا على عادتهن ، كلما خرج أزواجهن أو اخوتهن أو أبناءهن في غزوة بعيدا على مقر العشيرة ،

بقى في الحى خمسة رجال أقعدتهم الشيخوخة عن المسير . وخمس نساء لرعاية الاطفال ، مع « ساطعة » زوجة سيد العشيرة ، وثلاثة شبان لحراسة المضارب والماشية . ومشى الباقون بقيادة الشيخ « فالح أبو الخيل » ، على ظهور خيرة جيادهم المظهمة ، وعلى أنغام المزمار وقرع الطبول وانشاد الاهازيج ..

وكان خلف فالح ابنه عوده وعروسه مسعودة ! .. وقالت الصبية وقد كحلت عينيها وتقلدت سيفها :

— حماه ! .. هل تعدنا بأن تعود الى ربنا بعد النصر ، ونحتفل بعرسنا ، وندعو اليه القائد الذي لبنت ندائه ، ومرت الآن الى لقائه ؟
فأجاب فالح بلهجة الواثق مما يقول :

— نعم يامسعودة .. اعدك .. ولكننى سأقيم لك ولعودة عرسا في حماه ، لم تشهد المدينة مثيلا له ! وسنرجع منها الى حيننا ومضاربنا ، في زفة لم تشهد هذه الربوع ايضا مثيلا لها !

وعند المخاضة ، التحق فالح وعشيرته بالجيش الزاحف .. سيعون فارسا وفارسة ، رحب بهم سيف الدين بن المشطوب وشكرهم على حماسهم في تلبية دعوته ..

فوجيء الافرنج بوصول تلك النجدة الى الحسامية المدافعة عن المدينة . ووجدوا أنفسهم بين نارين . وتضعفت صفوفهم . ودارت رحى المعارك أربعة أيام بلياليها . وواجه الاغراب سيلا من السهام يتساقط عليهم من وراء المعقل التي اقامها المدافعون عن حماه ، وضربات متوالية من كتائب الفرسان الدائرة حولهم في الخارج ، وكان سيف الدين في خلال ذلك القتال الرهيب ، يدخل المدينة ويخرج منها بلا انقطاع ، يقود هجوم الفرسان الذين جاءوا معه من مختلف الجهات ، ودفاع الصامدين وراء المعقل بقيادة زعماء الاحياء .. وما غرنت شمس اليوم الرابع ، حتى كان الافرنج قد رفعوا الحصار ، وتراجعوا ، ثم انسحبوا في ظلام الليل !

وكتب النصر لسيف الدين بن المشطوب ، وبكى شهاب الدين محمود ،
حاكم المدينة ، من الفرح ، وهو يعانق البطل الذي أنجده ودفع عنه
عار الهزيمة .

دفن سكان حماه شهداء المعركة في ظاهر مدينتهم . وأقاموا على
أرواحهم الصلوات .

وكان بين الشهداء أربعة من رجال الشيخ فالح أبي الخيل ، أراد
الرجل أن يعود بهم إلى ريع العشيرة ليدفنهم في سفح الجبل فابى
شهاب الدين وزعماء الأحياء إلا أن يدفنهم مع غيرهم ممن سقطوا
في الميدان لكي يبقى التل الذي واراها في ترابه ، محجة للناس من
بعدهم ..

وبعد سبعة أيام من احراز النصر ، أقام الشيخ فالح أبو الخيل ،
عملاً بوعده ، حفلة العرس التي تأجلت قبل ذلك ببضعة أيام . واشترك
سكان حماه في تلك الأفراح ، أبتهاجاً بالنصر من ناحية ، واعراباً منهم
عن عرفان الجميل ، نحو العشيرة الباسلة التي خفت اليهم وقت الشدة
وكان العرس من الروعة بحيث لم تكن المدينة قد شهدت مثله من
قبل ، فتحقق للشيخ فالح ما وعد به العروس وهي في طريقها معه إلى
حماه ..

وخرج موكب العرس من المدينة ، يتقدمه هودج يحمل مسعودة
البدوية ، وخلفه هودة بن فالح على صهوة جواده ، ويحف به ويتبعه
مئات من الفرسان ، فكانت زفة لم تشهد تلك الربوع مثيلاً لها ، كما
وعد فالح أيضاً عروس العشيرة الجميلة !

واخترق الموكب حدائق حماه وبساتينها ، وانساب على طول مجرى
النهر ، بين نواير العاصي التي اختلط صريرها بغناء النساء وزغاريدهن .

وفي مضارب الحى ، ظل القسوم ومن جاء معهم من حماه ، في فرح
ومرح ، سبعة أيام كاملة ، تسابق فيها الفرسان ، وتبارى الأبطال في
ضرب السيف ورشق السهام والجريد والرماح ..

وهكذا بر فالح بوعده لربيته مسعودة . وبر سيف الدين بقسمه ،
فأنقذ حماه ، وقذف بالافرنج إلى الغرب ، وطهر منهم وادى العاصي .

مَدِينَةُ الْمَدِينَةِ



جمع السلطان صلاح الدين الأيوبي حوله البقية الباقية من فرسان
حرسه ، وليس بينهم واحد لم تترك المعركة في جسمه أثرا ،
وقال لهم بصوت لم تزل منه مرارة الهزيمة :

.. لقد خسرنا هذه المعركة ، ولم أفهم بعد كيف خسرناها .. لكننا
سنعد العدة للثأر ، وسبوف يكون انتقامنا رهيبا .. فلنعد
الآن إلى منازلنا .. والله معنا ..

وانطلق الفرساني يخترقسون صحراء سيناء ، في طريقهم
إلى مصر ..

كانت معركة تل جازر - المعروفة عند الأفرنج بمعركة
« مونجيزار » من أغرب المعارك في التاريخ ومن الحوادث التي يحار
العقل في تعليلها وتفسيرها . فقد زحف السلطان صلاح الدين الأيوبي
بجيشين لجبين .. سارا من مصر والشام في آن واحد . على مملكة
أورشليم الصليبية .. فارغم ملكها الشباب المريض بلدوين الرابع على
الالتجاء إلى أسوار عسقلان ، وضرب حول المدينة الحصار .. وأطلق
رجالها في أنحاء المملكة .. وكان عددهم نحو خمسة وعشرين ألفا ..

تشاور ملك الأفرنج مع قواده وأعوانه .. ومعظمهم من فرسان
الهيكل ، فقر رأيهم على الخروج من المدينة المحاصرة .. ومباغتة
لعدائهم ، وشبق طريقهم إلى بيت المقدس .

وكان عدد القوة التي يقودها بلدوين لا يتجاوز أربعمئة فارس
مدرعين بالحديد والفولاذ !

مغامرة عجيبة لا يقدم عليها عاقل ..

ومخاطرة جنونية كتب لها النجاح والفوز : فقد اشتبك الفريقان
على التلال الممتدة في « أرض الرملة » وهي اليوم مدينة تعرف بهذا
الاسم ، واشتد القتال على الخصوص في تل جازر - فعرفت المعركة
باسمه ، وانهزم جند صلاح الدين ، وخرج الصليبيون من المعصنة
نأسلاب لا تحصى ، وكان أملهم الوحيد في بادية الأمر أن يبلغوا بيت
المقدس سالمين !

.. كانت معركة « تل جازر » أعظم انتصار حربي أحززه الصليبيون في
الأرض المقدسة ، وذلك في سنة ١١٧٧ ميلادية ، الموافق لسنة ٥٧٣
هجيرية ..

وروى صلاح الدين نفسه لاختصائه خبر انكساره وارتداده ،
فقال : «ستظل موقعة تل جازر من الالغاز الحربية التي لن تحل ...
فقد فوجئت في الميدان بثلاثة أسنة مشرعة وموجهة الى صدرى ، ولو
لم يتداركنى رجال الحرس ، ويحولوا بينى وبين الفرسان الثلاثة
المغربين على لما نجوت من الهلاك» .



لم يعمد الفريقان الى الراحة بعد تلك المعركة الهائلة ، بل انصرف
كل منهما الى الاستعداد للطوارئ . فراح صلاح الدين يدعو الامراء
والاقطاعيين الى حمل السلاح لمحو العار الذى لحق به وبهم فى - تل
جازر - وراح بلدوين الرابع يجند الشبان والكهول والشيوخ
من سكان مملكته ، ويدعم الحصون القائمة على الحدود ، ويشيد
قلاعاً جديدة لحمايتها من الغارات . ومن تلك القلاع الجديدة
اثنان يمدان من اروع الاعمال الهندسية التي قام بها الصليبيون فى الشرق
وهما قلعة «هونين» فى جبال لبنان الجنوبية ، وقلعة «معبر الاردن»
فى وادى قادس ..

تولى فرسان الهيكل امر القلعة الاردنية ، فتعهدوا ببنائها واقامة
حامية فيها . وفى شهرى اكتوبر ونوفمبر - تشرين الاول وتشرين الثانى
سنة ١١٧٨ للميلاد الموافقة لسنة ٥٧٤ للهجرة تم ذلك العمل العظيم
وارتفعت اسوار القلعة على التل المشرف على النهر ، عند المجازة
التي عبر يعقوب «ابو الالباء» نهر الاردن منها ، والتي سميت «بيت
يعقوب» ثم عرفت باسم - جسر بنات يعقوب - الى يومنا هذا .

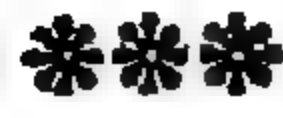
وكان بين الذين ساعدوا فرسان الهيكل فى اعمال البناء ، وساهموا
فى تموين الجيش الصليبي اثناء اقامته فى ذلك المكان لحماية الممال
والبنائين رجل يدعى «فيليب» من ابناء فرنسا ، وابنه الشاب
«كونراد» .

جاء الرجل الى بيت المقدس صبياً ، وسقط من السفينة عند
وصوله الى البر فلويت ساقه ، واطلق عليه الناس اسم «فيليب
الاعرج» .

نشأ فى فلسطين ، وتزوج امرأة ارمنية من بنات انطاكية ، فرزق
منها ابنه الوحيد - كونراد - وماتت الام يوم ولادته ، فأحبه «فيليب»
حبا جما ..

وانخرط الاب والابن فيما بعد فى سلك الجندية ، فحسباً ربا فى
الميادين ، وتخصصا فى نقل الرسائل بين الصليبيين والمسلمين ، لانهما
تعلمتا لغة البلاد واتقناها نطقاً وقراءة وكتابة .

ومن المعارك التي خاض فيليب وكونراد غمساها ، معركة « تل جازر » التي انتصر فيها الصليبيون .



علم صلاح الدين ، وهو في دمشق ، بأن الملك بلدوين يحصن الحدود وان المعقل تنبت من الارض شهرا بعد شهر ، فعزم على استدراك الخطر قبل استفحاله ، وفي اوائل سنة ١١٧٩ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٧٥ للهجرة شرع السلطان في القيام بسلسلة من الغارات على تلك المعقل والحصون ..

وبدا بجبال لبنان ، فحل في قلعة « بانياس » التي ملكها المسلمون من قبل ، وضرب حولها مضاربه ، وصار يخرج من ذلك الموقع المنيع على رأس قوات صغيرة سريعة الحركة ، فيضرب الافرنج ضربات مؤلمة في جهات صور وصيدا وبيروت . وفي العاشر من شهر حزيران - يونيو ١١٧٩ ، وقعت بينه وبينهم معركة - مرجعيون - فانتصر فيها صلاح الدين انتصارا باهرا ..

وفر الصليبيون من امامه يطلبون النجاة بالتجائهم الى قلعة « هونين » وقلعة « بوفور » وهي - شقيف ارنون - واسوار صور وصيدا ..

جاء بالاسرى الافرنج الى صلاح الدين بعد المعركة ، فاذا بينهم قائد فرسان الهيكل « اود » وصاحب الرملة « بلدوين » وأمير طبرية « هوج » وغيرهم من الاقيال ، فقبل صلاح الدين القدية ممن دفعها ، وسبق الآخرون الى دمشق . ووقع نظر السلطان على شهاب من الاسرى خيل اليه انه يعرفه من قبل ، او انه على الاقل قد رآه مرة فانطبعت صورته في ذهنه .

ناداه صلاح الدين فاقترب منه وهو يعرج ، ودار بينهما هذا الحوار :

— ما اسمك ؟

— كونراد بن الاعمرج ..

— ابن فيليب الاعمرج ؟ اننى اعرفه ..

— وهو ايضا يعرفك ..

بـ ولكنك تعرج ، أنت أيضا .. أجرح أم ماهة ؟

ـ جرحت في معركة تل جازر ..

فانتفض السلطان ، اذ كان هذا الاسم كافيا لتذكيره بتلك الهزيمة ويوجه الرجل المائل بين يديه ، ولقد عرفه الآن ، ان كونراد الاعرج هذا ابن الاعرج فيليب ، هو أحد الفرسان الصليبيين الثلاثة الذين هاجموا صلاح الدين في حسمة الوقي .. وحاولوا قتله برماحهم !

خندق السلطان ببصره في الشباب الاعرج

ثم قال :

ـ لقد أردت اغتيالاً في تل جازر !

لم يضطرب الشاب لهذه الكلمات المفاجئة بل اجاب بلهجة ثابتة :

ـ القتل في الميدان ليس اغتيالاً ايها المولى . ولو قدر لي النجاح حينئذ لكان قومي الآن في مامن من الخطر .. لكن الله انقذك لأنه يريد لك الحياة !

ـ ويريد لي النصر في النهاية ياكونراد . وان كنت انت قد حاولت قتلي . ولا أقول « اغتيالاً » . فانك لم تفعل في ذلك اليوم غير ما يمليه الواجب ، أنك شجاع مثل أبيك ..

ـ واعرج مثله ! واخشى ان يمنعني العرج من الاشتراك في القتال ..

ـ بوسعي الآن ان اضرب عنقك يا كونراد الاعرج .. ابن الاعرج ..

ـ ولكنك لن تفعل ايها المولى ، لانني اعزل وضعيف ، فقتلي حين وصلاح الدين ليس خياناً . لما انا ، فقد هاجمتك وأنت على صهوة جوادك والسلاح بيدك ..

لم يأمر صلاح الدين بضرب عنق الاعرج ، ولم يحتفظ به اسيراً في قلعة ، بل أطلق سراحه بعد أن قطع كونراد على نفسه عهداً بان يبقى في أملاك السلطان ، ولا يهرب عائداً الى أهله وقومه ، وكان الناس في ذلك الوقت يشقون باليهود ، ويحترمون الموائيق ، ويرتبطون بكلمة الشرف !

وعلم صلاح الدين من أسيره انه واحد من مئات العمال الذين ساهموا في بناء قلعة معبر الاردن . وأنه يعزف المرات المؤدية الى

داخلها ، واسرار أبوابها الخفية ودهاليزها وملتوياتها ، فأحاطه بعنايته ،
وشمله برعايته ، وعول على استخدامه في مهاجمة ذلك الحصن
المنيع ...

وانقاد الشاب للسلطان بعد أن عاش في كنفه بضعة شهور ،
فأصبح له أطوع من بنائه ، ورضى بأن يكون لجيشه دليلاً ، وله
مساعداً ..

وجنح كونراد الأعرج الى خيانة قومه ، فهل فعل ذلك طمعاً
في المال ، أو إعجاباً بصلاح الدين ، أو حباً في الجاه على أمل أن يولييه
السلطان الحكم في مقاطعة أو حصن أو برج ؟ هذا مالا سبيل الى البت
فيه . فقد انقلب الجندي الصليبي الى حليف لصلاح
الدين .. وكان لهذا الانقلاب أثره في سقوط قلعة الاردن
وتدميرها ..

في الرابع والعشرين من شهر - آب - اغسطس ١١٧٩ ، ظهرت
طلائع الجيش الأيوبي فوق التلال المواجهة لمعبر الاردن ، وكان
صلاح الدين يقود الجيش بنفسه ، ومعه كونراد الأعرج . وكان الملك
بلدوين قد علم بزحف المسلمين على القلعة ، فاستعد من ناحيته لارسال
حملة تشد أزر الحامية المرابطة فيها . فاعتزم صلاح الدين أن يهاجم
الأسوار قبل أن تصل تلك الحملة فتأخذه من الخلف .

واستمر الهجوم خمسة أيام بلا انقطاع . وفي التاسع والعشرين من
شهر اغسطس ، نسف البرج الأكبر المشرف على مدخل القلعة ،
فأنهار على الجنود المدافعين عنه ، وتدفق المسلمون من تلك الثغرة
الى الداخل . وقد تم نسف البرج ، وبث الالغام تحت الأسوار
وتوجيه المهاجمين في دهاليز القلعة ، بمعرفة كونراد الأعرج ونواشطته ،
وكانت أوامر صلاح الدين صريحة وأضحة : يقتل المدافعون عن الحصن
ويؤخذ الدين يلقون السلاح أسرى ، وتضرم النيران في القاعات والمخازن
وتدك القلعة دكاً ، بحيث لا يبقى لها أثر تراه عين ..

وشاهد قائد فرسان الهيكل خراب حصنه فإلقى بنفسه في النار
ومات حرقاً ..

وكان انتصار صلاح الدين تاماً كاملاً !

ومن غرائب ذلك اليوم المشهود أن جماعة من النصاري الشرقيين
كانوا يحاربون تحت راية صلاح الدين الأيوبي ، فضلاً عن تعاون
كونراد الصليبي معه ، وأن جماعة أخرى من المسلمين ، التركمان كانوا
يساهمون مع فرسان الهيكل في الدفاع عن القلعة ، ممياً يبدل على أن

الحروب الصليبية كانت قد فقدت كثيرا من صفتها الاولى ،
وتحولت الى عنراك سياسى للفتح والسيطرة .



امر صلاح الدين بان يساق الاسرى الى دمشق ، ريثما ينظر
في امرهم ..

وقيل له ان بين انقراض القلعة جريحا من الافرنج يعالج خسرحة
الموت ، ويطلب بالحاح ان يحمله الجند الى السلطان ، او ان يتكرم
السلطان بالذهاب اليه حيث هو ، قائلا ان صلاح الدين الذي يعترف
الافرنج بكرمه وشهامته ، ان يضمن عليه بهذه النعمة ، ولن يرفض
ارادة رجل مشرف على الموت ..

ذهب السلطان الى الجريج . فاذا به امام شيخ ذى هيبة وجلال
ينزف الدم من جميع انحاء جسمه ، وقد اغمض عينيه ، وانتابته رجفة
عامة وجعل يئن من الالم ، ويتمتم بصوت خافت :

«صلاح الدين .. كونراد .. صلاح الدين .. كونراد» .

اقترب السلطان منه ، وانحنى عليه واخذ راسه بين يديه ، واسنده
على صدره ، وخاطبه ببشاشة ولطف :

— انا صلاح الدين

— آه ! .. انحمد لله ! ..

— من انت لا ..

— فيليب الاعرج ..

— ابو كونراد ؟

— نعم .. ابو كونراد الذى يقيم عندك منذ وقوعه
في الاسر ..

— اتريد ان تراه ؟

— احى هو ام ميت ؟

— حى يرزق !

فاستجمع الرجل قواه ، ورفع رأسه ، وفتح عينيه ، ولمع في نظراته
بريق الامل والرجاء .. واستطرد قائلا :

:- انبئني بالحقيقة ايها المولى ، فانا اريد ان اموت هادىء البال ،
مرتاح الضمير ، منشرح الفؤاد . اقبل لى ان ولدى قد حاد عسى
اسبيل القويم ، وخان قومه وعشيرته ، وباع نفسه لك يا صلاح الدين .
وانه جاء فى معيتك الى هنا .. متخفيا فى ثوب بسدوى
عربى ..

- من قال لك هذا ؟

- تتناقله الالسة فى كل مكان .. وقد حاولت ان اعثر له على
اثر فى خلال المعركة فلم اوفق . وانا الآن اودع الحياة يا صلاح الدين ..
ولا اريد ان افارقها ، قبل ان تطمئن نفسى ، واعلم اذا كان ولدى باقيا
على عهده لليك وقومه ، ام حنث بالعهد وخان الملك والقوم ؟ .. آه لو
تحققت مخاوفى ، لت حزينا كئيبا كسير خاطر ، ملعونا من الناس .

- واذا كان ما قيل لك غير صحيح ؟

- افارق هذا العالم فرحا ممتنا شاكرا .. فخير لى ان يكون ولدى
قد مات شريفا ، من ان يعيش خائنا !

خارت قوى الاعرج بعد هذا الجهد الذى بذله لمخاطبة صلاح الدين
فامر السلطان بان يعد فراش من المعاطف والاعشاب ، وظل جالسا
بقربه يواسيه ويلطفه ..

وعمد صلاح الدين الى الكذب فاخفى عن المسكين حقيقة
امر ولده ..

- ان ابنك يا فيليب اسير فى دمشق ، لكنه حر فى التنقل داخل
الدينة .. وقد غشك من قال لك انه خائن ! فباركه قبل موتك ..
وامنحه رضاك الابوى ، واذكره فى العالم الاخر .. انه شهيد همام
جدير بابيه الشهم الهمام .

فارتسمت على فم الاعرج ابتسامة الفرح والحبور ، وانبس طت
اسايريه .. فاخذ يد صلاح الدين فى يديه المرتجفتين ورفعها ببطء
الى شفتيه ، وطبع عليها قبلة فاضت بها روحه صاعدة الى خالقها ،
وهو يتمتم بهذه الكلمات ! .. :

« شاكرا .. الحمد لله ! »

• وكان كونراد على بضع خطوات من ابيه ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منه .

مات فيليب الاعرج مطمئن البال سعيدا بين يدي صلاح الدين الايوبي الذي التفت الى الابن الخائن وقال :

ـ لقد اشتريت حريتك بثمن باهظ يا كونراد .. عد الى قومك ، واستغفرهم عما بدر منك ، اذا كانوا على علم بخيانتك .. او احتفظ بالسرمكتوما في صدرك ، اذا كانوا يجهلون ما حدث .. اذهب .





قال الحاجب مخاطباً الملك بلدوين الثالث ، صاحب عرش اورشليم :

— آننى اتوجس خيفة يا مولاي من هذا الغريب الذى يلح فى الاستئذان بالثول بين يديك . فهو يرفض الافضاء باسمه ، ويكتفى بالقول بانه عربى من بلدة — عيلبون — جاء يطرح عليك امرا عسائ جانب عظيم من الاهمية ..

فاجاب الملك مبتسما :

— ادخله يايوسف ، فانت ايضا من سكان هذه البلاد ، وتعلم مثلما أعلم أن القدر ليس من شيم الناس هنا ، وان الخصام القالم بيننا وبين أعدائنا وجيراننا على امتلاك الارض المقدسة تسوده روح اشجاعة . والشهامة والوفاء .. ادخل الغريب اذن ولا تخف .

ودخل الغريب واماط عن وجهه اللثام ، فاذا به امرأة لفحت اشعة الشمس بشرتها فجعلتها اقرب الى السواد منها الى السمرة المالبوفة عند العربيات ، وقد التحفت بمبائة من وبر الابل ، فانتفض المبيك وقد بدت عليه الدهشة ، لكن المرأة بادرت بقولها :

— ان «فالحة» ايها الملك تقود الرجال فى الميادين مرتدية ثيابهم ..

— انت فالحة ؟

— انا فالحة بنت عامر أخت صابر العاملة .. سارقة الخيول كما تسموننى انتم واعدائكم .. جئتك ايها الملك لاعرض عليك صفقة رابحة .. فقد علمت انك فى حاجة الى مال كثير ، وانت تسعى للحصول على هذا المال من التجار والمرايين اليهود ، وانهم يسكون منك مالههم طمعا فى فوائد لا قبل لك بها .. فدع اليهود فى مملكتك ينامون على اكداس الذهب التى انتزعوها من المسلمين ومنكم واسمع ما اعرضه عليك واعمل بنصيحتى ..

— ومن اطلعك على اسرارى ؟ ومن قال لك اننى فى حاجة الى مبال .. ؟

— ان فالحة تعرف كل شئ ايها الملك . وقد جاءتك تبغى ثلاثة اشياء : توفير المال لك لانها نصرانية تعطف عليك يا ملك الصليبيين ، والانتقام من الرجل الذى قتل اباهما واخاها ، والفوز بنصيبها من الارباح التى سوف تجنيها انت من الصفقة !

اطرق بلدوين هنيهة مفكراً ، ثم رفع بضرسه الى الفتاة وقال
بالهجة المقتنع :

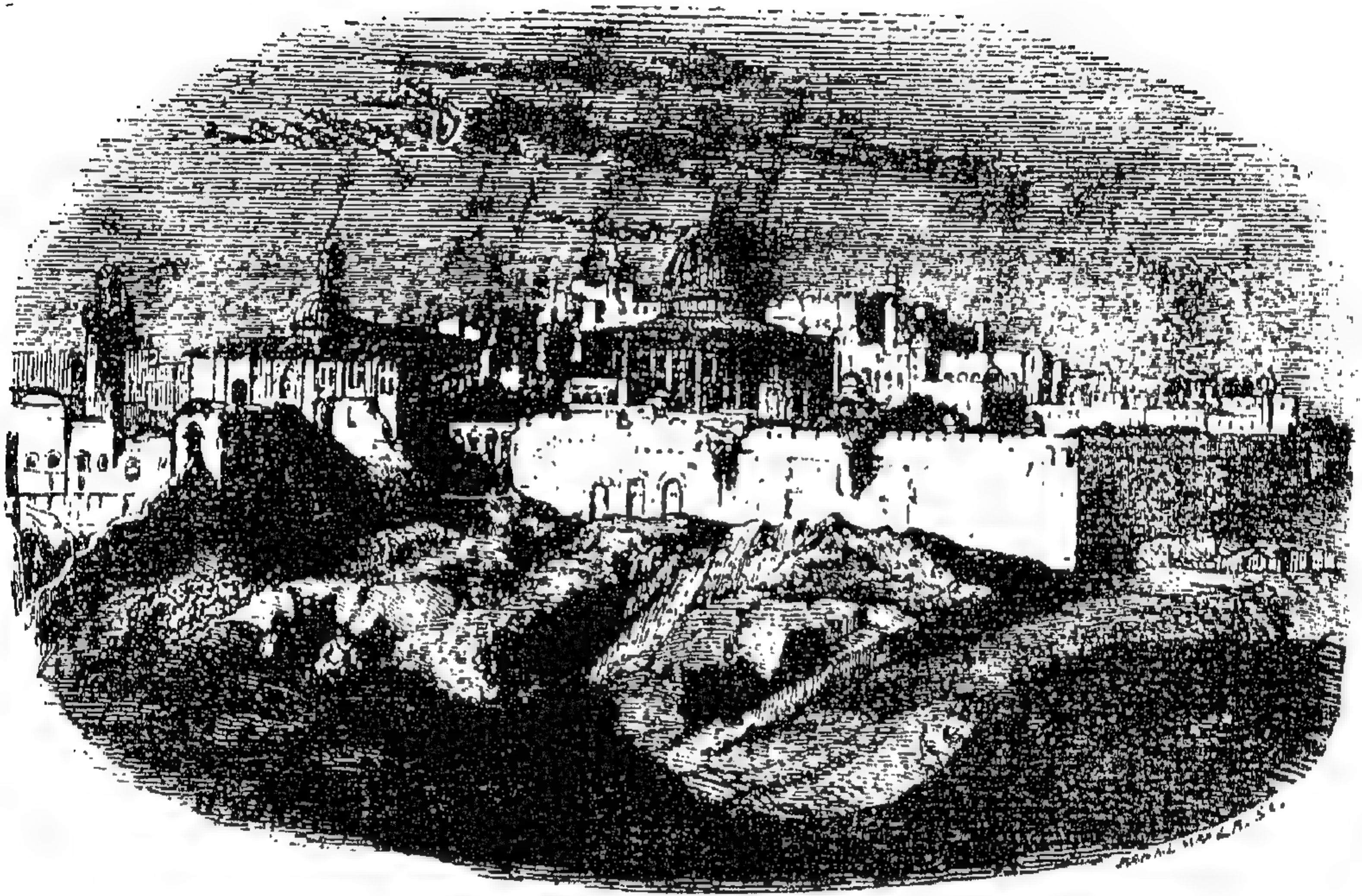
— اننا نعرفك يا فالحة ونعرف ما جبلت عليه من جرأة واقدام
وصدق واخلاص . . فالملك بلدوين يصفى اليك : تكلمى !

كانت فالحة بنت عامر تعيش مع ابيها واخيها بفد وفاة امها
في بيت صغير بجبل الجليل ، على مقربة من بحيرة طبرية . وهى اسرة
مسيحية رحلت الى تلك البلدة من جبل عامل بلبنان ، وحدث
مرة ان ذهب ابوها عامر واخوها صابر في قافلة الى بعلبك ، فاعتسرض
القافلة جماعة من فرسان نور الدين صاحب دمشق ، ونشب قتال
بين الفريقين كانت الغلبة فيه للجنود فقادوا رجال القافلة الى سيدهم
واظهروهم امامه في مظهر المعتسدين ، فأمر نور الدين بقتلهم ، ومن
بينهم عامر وابنه . .

واشتعلت نيران الحق في صدر الفتاة ، وقد اصبحت يتيممة
لأسند لها ولا معين ، فعولت على الثار واقسمت على الانتقام ، واستنفرت
لغيرها من رجال قريتها فلبوا النداء ، والفت منهم عصاية للسلب والنهب
وزاحت تقطع المسالك ، وتدهام القوافل ، وتسطو على مضارب العربان
في السهول والجبال ، وتخصصت في سرقة الخيول فكانت تسوقهتاً
افواجا وفرادى ، وتعرضها للبيع ، وتجمع من هذه الاعمال المحرمة
اموالاً بطائلة تغدقها بلا حساب على رجال عصابتها . .

.. وضع منها المسلمون والصليبيون على السواء . وكان هؤلاء
يحلون منها أولئك ، وأولئك يشكونها الى هؤلاء !

ففى سنة ١١٥٧ — الموافقة لسنة ٥٥٢ هجرية — كان الصليبيون
والمسلمون في مهادنة ، خيم السلام خلالها على الارض المقدسة ، وانصرف
السكان الى اعمالهم هادئين مطمئنين ، يضرعون الى الله ان يديم عليهم
تلك النعمة الغالية . وكان المسلمون في تلك الفترة من الزمن يأتون بقطعان
الماشية ويطلقونها في المراعى الواقعة داخل ممتلكات الصليبيين ، فيسفوح
جبل الشيخ الذي كانوا يسمونه « حرمون » وعند بحيرة الحولة . وعلى
ضفاف الاردن عند منابعه في جبل لبنان . وكان المسلمون ايضا يؤمرون
على الخصوص غابة كثيفة على مقربة من قلعة بانياس ، ثلاثم مراعيها
خيادهم المطهمة وافراسهم الاصيل ، فيضربون مضاربهم بين الاشجار
ويعهدون الى جماعة من التركمان المأجورين بحراسة الخيول في تجوالها
.. ولم يكن الصليبيون المقيمون في القلاع والحصون والقرى والمزارع



بيت المقدس قديما
والاسوار حول قبة الصخرة

يتعرضون لهم على الاطلاق ، عملا بشروط المهادنة ، بل ان العلاقات بين الفريقين كانت على اتم ما يمكن من الوفاق والوثام

ولم يعكر صفو تلك العلاقات الطيبة ، في السنتين الاخيرتين ، فسير ما كانت تقدم عليه فالحة من خرق لشروط المهادنة ، وخروج على نصوص المصالحة ، بين رعايا بلدوين ملك اورشليم ، ورعايا نور الدين صاحب دمشق .. !

وفي اوائل سنة ١١٥٧ ، خرج الحراس التركمان التابعون لنور الدين بعدد عظيم من اطياب الخيول اصلا ، وقصدوا بها الى غابة بانياس حيث اطلقوها كمادتهم في المراعى الخصبة ، فانتشرت الخيول في تلك البقاع وقد اطمأن حراسها اليها ..

تلك الخيول الكثيرة هي موضوع الصفقة التي جاءت فالحة بنت عامر تعرضها على الملك بلدوين الثالث !

فقد زينت له الامر بما شاء لها خيالها من تبسيط : وقالت ان في وسعها الاستيلاء على تلك الخيول التي لا تقع تحت حصر ، وتسوقها الى بلدة بانياس او الى القدس او الى اية بلدة يريدھا الملك ، ثم تعرض للبيع ويفرج الملك ضيقه بما تدره عليه الصفقة من مال ..

واصغى الملك للنصيحة بالرغم مما بينه وبين المسلمين من اتفاق ووفاق ، ووسوس له الشيطان - وقد تجسم في شخص الفتاة فالحة - ان يخالف قوائين الضيافة ويهاجم خصمه بدون سابق انذار ..

انه غارق في الديون .. والدائنون يطالبون بالسداد ويلحون في الطلب . وهذه الفتاة تعرض عليه امرا سهلا المنال . ونور الدين اضعف من ان ينتقم لنفسه من غزو طابريء يفقده بضعة الاف من الخيول !

وداهمت قوة كبيرة من الفرسان الصليبيين المدججين بالسلاح الحراس التركمان في المراعى الشاسعة ، فذبحوا فريقا منهم ، وقر الباقون لايلوون على شيء ، وساق الغزاة امامهم عددا هائلا من جياد الخيل ، وقطعانا لا تحصى من الماشية . وعرفت هذه الحادثة بغزوة الخيول ..

.. وكان ذلك ايلانا باندلاع نيران الحرب من جديد ، بين المسلمين والصليبيين ، ظلت تاكل الاخضر واليابس مدة ثلاثين سنة !

فان نور الدين صاحب دمشق لم يصبر على الضيم ولم يسكت على الاهانة . بل جرد حملة بقيادة اخيه امير الامراء ناصر الدين ، وزحفبت هذه الحملة على قلعة ثمرود وكانوا يسمونها السببية ، بعد « غزوة الخيول » بثلاثة شهور ، واصطدم المسلمون بالصليبيين في

السّهول والجبال بين هذه القلعة وموقع بانياس ، فانهزم الصنليبيون .
وقتل منهم خلق كثير . . واسترجع ناصر الدين بعض الخيول والماشية
المسلوبة . .

وبينما كان فرسانه يثفقدون الجرحى في ميدان المعركة ، عثروا على
الفتاة فالحة مثخنة بالجراح فاقدة الوعي . فنقلوها الى مكان أمين
وأحصوا في جسمها أربعين طعنة رمح وضربة سيف !

وعندما بلغ خبرها مسمع ناصر الدين ، ابى الا ان يزورها ويواسيها ،
ويبدي لها اعجابه واجلاله !

وامام الفتاة الباسلة المفامرة ، ركع القائد المنتصر ، وقال بصوت
تجلى فيه التأثير العميق :

— ان كل جرح من هذه الجراح يكفى لقتل رجل . ولكن الله يردك
بعين عنايته يا ابنتى . فعودى الى بيتك حرة طليقة . وأرجو الا يعاودك
الحنين بعد اليوم الى استئناف اعمال السطو واللصوصية !
وحمل الفرسان الفتاة الجريحة وسلموها الى قومها . .

اقامت فالحة بنت عامر في قريتها غيلبون حيث عالجت نفسها من
جراحها ، وانصرفت الى زراعة الارض وتربية الدواجن ، واوشكت ان
تدسى ماضيها وما خاضته فيه من مغامرات طائشة . .

ولكنها خرجت من عزلتها ، أو أخرجت منها في سنة ١١٧٥ للميلاد ،
الموافقة لسنة ٥٧١ للهجرة . .

ففى تلك السنة ، كان صلاح الدين يوسف الايوبى قد قضى على
منافسيه في سورية ومصر ، وتخلص ممن كانوا ينازعونه الحكم ، ونادى
بنفسه سلطانا بعد موت نور الدين ، ودانت له البلاد الشامية والمصرية ،
وراح يعد العدة للقضاء على دولة الصليبيين في بيت المقدس . .

وكان السلطان المحظوظ قد سمع بأخبار فالحة بنت عامر العاملة ،
ورغب في رؤية تلك المرأة العجيبة ، وتم له ما اراد ، وذهبت اليه فالحة
بنفسها الى دمشق !

وقال صلاح الدين :

— يا فالحة ! . . اننى اكبر المشجاعة حيثما وجدت ، لا فارق عندى
بين مسلم ونصرانى . واكافىء الابطال سواء اكانوا يحاربون فى صفوف
جيشى أو تحت البوابة الاعداء . وقد علمت بخبر الجراح الاربعين التى

أصبحت بها في معركة الجليل منذ ثمانية عشر عاما . وقد أهديتك اليوم
لاربعين من جياد الخيل العربية الاصيلة . فتقبلها هدية من صلاح
الدين ، اكراما لجراحك الاربعين !

واجابت فالحة وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— يا سيد الابطال !.. لقد اخذت الى السكينة بعدما عفا عني
ناصر الدين ، وكان في وسعه أن يجهز على او يتركني فريسة للمسوت
البطيء في ساحة القتال. ولم اتخذ لي زوجا من الرجال بل عشت وحيدة
في بيتي . وما كنت اظن انني سأخرج يوما من عزلتي . لكنك الآن تفتح
امامي افقا جديدا ، وترسم لي طريقا سوف أسير فيه على خطاك وتحت
لوائك . فان الاربعين من جياد الخيل التي تهديها الى فالحة ، ستألف
منها كتيبة من الفرسان تخوض معك غمار المعارك يا صلاح الدين،
وتشاركك في الميادين ، سراءها وضراءها !

على هذه الصورة ، وفي تلك الظروف ، تألفت كتيبة « الجليل »
من اربعين فارسا من العرب المسيحيين ، وساهمت في الحروب بقيادة
فالحة بنت عامر العاملية ، مدة اثنتى عشرة سنة ، وتفرق شمالها بعد
معركة حطين في سنة ١١٨٧ ، فقد قتلت فالحة في تلك المعركة وهي في
الخامسة والخمسين من العمر ، ودفنت في قريتها عيلبون ..

ولو نبشت القبور في تلك البلدة الصغيرة ، التي جاء ذكرها في
النوراة باسم « ايالون » لعثر المنقبون على رفات كشرين من اولئك
النصارى الذين حاربوا في صفوف المسلمين ، وعلى رفات كثيرين من
المسلمين أيضا ، الذين حاربوا في صفوف الصليبيين . فان تلك الحروب
التي اثرت باسم الصليب وتحت شارته ، فقدت بعد سنة واحدة من
نشوبها ، صبغتها الدينية البحتة ، وتحولت الى تطاحن في سبيل السلطة
والصلحة !..



دأرت رحي القتال وحمى وطيسة في الصحراء حول تدمر، واحتكت
ركاب العرب بركاب التتر، فكانت موقعة هائلة روت فيها
دماء الأبطال رمالا لم يسلف فوقها سائل منذ شهور.. وما ان غربت الشمس
حتى كان فرسان العرب قد مزقوا جيش التتر شر ممزق. فأطلق من بقي
منهم على قيد الحياة للخيول الاعنة طلبا للنجاة في بطن الصحراء.
وعاد العرب بقيادة الامير منقذ الشهابي، يسوقون امامهم عددا وافرا
من الرجال أسرى ومن النساء سبايا

وكان بين الاسرى الشاب « مرتان » والفتاة « جهار »

هي ابنة احد زعماء التتر وهو ابن خالها. وكانا قد تعاهدا على
الزواج، عملا برغبة الوالدين واجابة لنداء القلب في آن واحد.

قادهما الامير منقذ الى احدى قلاع في سهول حوران، ولم يعاملهما
كما يعامل الاسرى الاذلاء، بل اكرم مثواهما كأنهما غريبان نزلا عليه
ضييفين..

لكن الشاب والفتاة كانا يحنان الى الربوع النائية، التي نزل فيها
اهلهما وضرب فيها ابناء عشيرتهما المضارب. فجعلا يتحينان الفرص
للفرار..

جلس مرتان يوما يبث حبيبته نجواه وقد هاجت شجونه، فحال
دون تسرب اليأس الى قلب الحبيبة ومناها بطيب الآمال وحلو الرجاء.

— علمت يا جهار ان الامير منقذا وافراد أسرته عزموا على الرحيل
عن هذه الديار والنزول في وادي التيم..

— كيف علمت ذلك؟

— سمعت الخدم يتحدثون به. فان الامير من الانصار المقربين
الى السلطان نور الدين. وقد حنق عليه السلطان صلاح الدين فخاف
الامير سوء العاقبة وقرر الاقامة في الجبال الشمالية هربا من انتقام
صلاح الدين. فعلينا أيتها الحبيبة الان ندع الفرصة السانحة تمر دون
ان نفتنمها فنفر من الاسر ونستعيد حريتنا!..

علم الافرنج اصحاب السواحل بقدوم الشهابيين الى وادي التيم،
فجردوا عليهم جيشا قويا لمحاربتهم وصددهم. فكانت بين الفريقين
معركة حامية في سهل البقاع، أسفرت عن فوز الشهابيين، فطاردوا
اعداءهم واحتلوا البلاد واقاموا فيها عنوة وقسرا

ونمكن مرتان وخطيبته جهار من الهرب في خلال المعركة . فسارا نحو الشمال على أمل أن يصلا إلى عتائر التتر الضاربة وراء المناطق الحضرية .

قضيا ليلتهما الأولى في خرائب بعلبك ، والمتقيا في صبيحة اليوم التالي بقافلة من قوافل التجار قاصدة إلى الشرق فانضمما إليها

لكن غزوا من البدو البرجل هاجم القافلة فتشتت المسافرون وعبثا حاولت الفتاة جهار أن تقف لحبيبها على أثر ..

ذرفت المسكينة دموعا حارة وجعلت تندب سبوء طالعها وقضت تلك الليلة بين الصخور الصماء التي لم ترق لنحيبها ..

تابعت السير بالمسير ليلا ونهارا . فالتقطها أخيرا أحد الرعاة على مقربة من « قلعة الحصن » وأرسلها مع أصدقائه إلى جبل لبنان ، ومن هناك قصدت إلى الأرض المقدسة ، والتحقت بالقوافل متنكرة في ثوب رجل ، فوصلت إلى مصر وهي تتساءل ماذا تخبئ لها الأقدار أيضا من مفاجآت !

سمعت بما يتصف به السلطان صلاح الدين الأيوبي ؛ وهو الذي تولى الملك في الوقت الذي وصلت فيه الفتاة إلى مصر ، فلجأت إلى قصره ، وطلبت حمايته ، فأنزلها الملك الناصر في كنفه ، بين وصيغاته أسرته وخدمته ..

وكان ذلك في عام ٥٦٧ للهجرة ، الموافق لعام ١١٧١ للميلاد .

واطمأنت المسكينة ولكنها ظلت تذرف الدمع على فراق ذويها .

وقع عليها نظر القائد أحمد النوري ، فأعجبته ، وطمع في أن يستحوذ عليها ، وراح يرقب الفرصة لتحقيق رغبته ..

ليس الأمر سهلا . فهي ضيفة على السلطان ، نقيسم في قصره ، تتمتع بحمايته . لكن جراءة النوري لا تصدها الصعوبات .

أرسل إليها من غرر بها ، وحملها على الخروج من دار السلطان ، ثم تم لزبانية القائد اختطافها فذهبوا بها إلى منزل منعزل في ضواحي القاهرة ..

واستأثر بها أحمد النوري . فباتت جهار تندب حظها العاثر ، وتبكي شبابها الممتن ، وتتحسر على حبها الضائع !

وشاءت الأقدار أن يظل مرتان على قيد الحياة وأن يفر من بلاد الشام فأمدا إلى مصر ..

طلب المتول بين يدي صلاح الدين فأذن له وقص على السلطان
قصته . وقال له ان أخبار خطيبته جهار قد بلغت اليه وانه علم بنزولها
خسيفة على حرم السلطان ..

فاكفهر وجه صلاح الدين وقال :

- اجل يا بنى ، خطيبتك نزلت ضيفة على حرمى ، لكن ندلا زنيها
قد اختطفها من القصر وام يتمكن رجالى من القبض عليه ولم نعلم بعد
من هو ذلك المعتدى الاثيم !

- اذا لدى رجاء افضي به اليك يا مولاي : دعنى ابحت عن خطيبتى
ومر اذا شئت ان يمد الى رجالك يد المساعدة !
- لك ما تريد !

خرج مرتان من القصر ويده امر خطى من السلطان ، وبحث طويلا
فاكتشف السر .. علم ان القائد احمد النورى يحتجز الفتاة فى ذلك
المزل البعيد ، فتربص له ذات ليلة واعد القوس والسهم وعزم على
الانتقام منه .

ظل ساعات طويلة يسرق السمع ..

خيال على سطح المنزل ..

لاشك فى أن القائد صعد يستنشق الهواء ..

ها هو ذا قد اقترب من حافة السطح ..

شد مرتان الوتر وارسل السهم ..

صرخة مفاجئة فى سكون الليل ، وجسم يهوى من السطح الى
الحضيض !

لكن الصرخة ليست صرخة رجل ..

أسرع مرتان الى ذلك الذى ظنه عدوه الالد ، فاذا به امام امرأة تن
وتتوجع ، والدم يسيل غزيراً من صدرها !

- اواه ! حبيبتي ! جهار .. ما اتعسنى واشقانى !

- مرتان .. خبر لى ان اموت بيدك .. صعدت الى سطح المنزل
طلباً للانتحار .. نعم .. بئست من الحياة بعيدة عنك .. فساعدتنى
انت على التخلص منها .. شكراً لك ايها الحبيب !

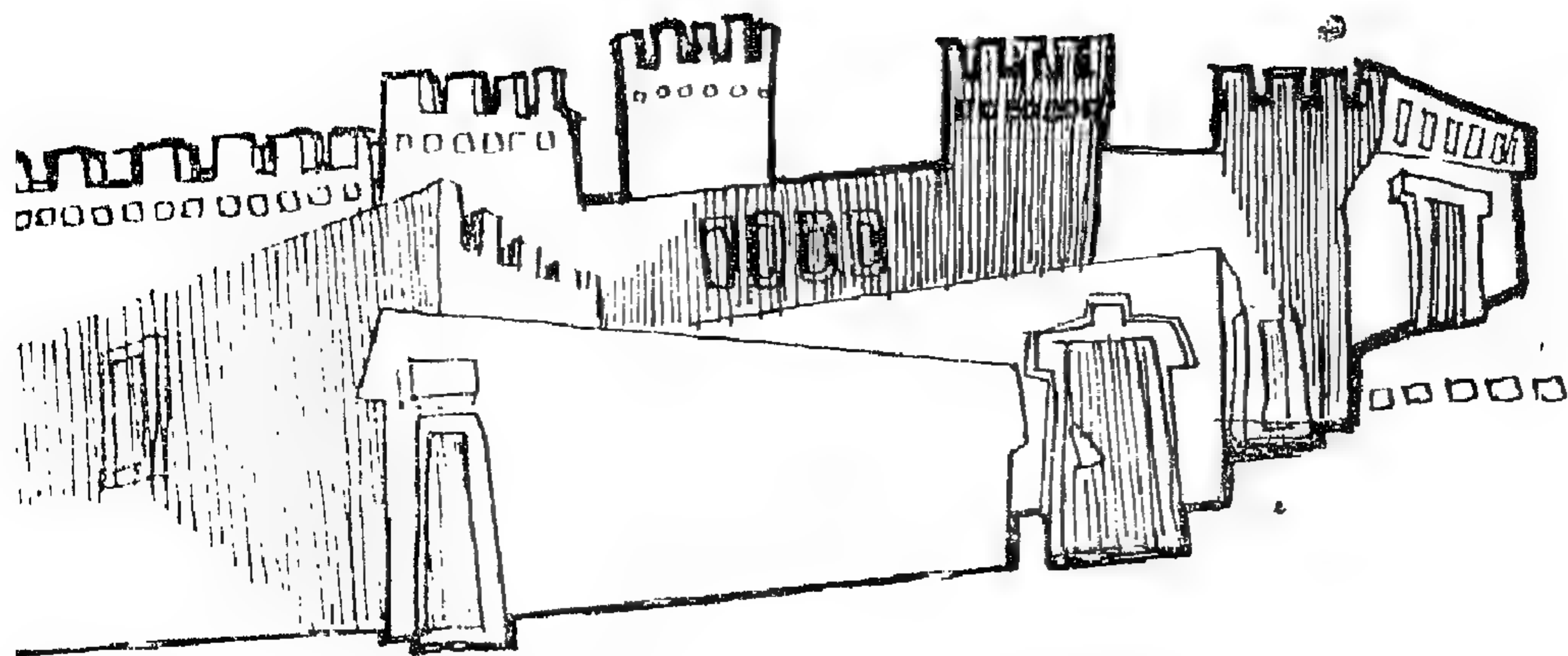
فأكب العاشق التمس على حبيبته يمزج دموعه بدمائها ، وقد
أغمضت جفنيها ولسان حالها يقول :

قتل النفوس محرم لكنه حل اذا كان الحبيب النفساء
أرضى ويفضب قاتلى فتعجبوا يرضى القتل وليس يرضى القاتل

بلغ مسامع السلطان خبر ما حدث . فوبخ النورى على ما صنع ،
وطرده من حرسه ..

وأحل محله الفتى العاشق ، والحبيب القاتل مرتان التترى ، الذى
أقسم للملك الناصر يمين الولاء ، وكان له منذ ذلك الوقت طائعا وفيا ..

أما قصة جهار ، فقد تناقلتها الالسنه ، وأصبحت موضوعا لاغنية
نظم كلماتها حبيبها الذى قتلها بيده ، وصار الناس ينشدونها كلما دارت
بينهم أجاديث الحب والوفاء !



اليوم العاشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٦ للميلاد التقى فارسان يمتطى كل منهما صهوة جواد عربى اصيل ، فى الطريق الوعرة المؤدية من مدينة صور الى حصن عكاء ، فأوقف انفارسان جواديهما ، وانطلقت من بين شفاههما ، فى آن واحد ، هاتان الكلمتان :

— يا لمحسن الصدف .

وقال احدهما :

— كنت مسرعا اليك يا عامر لوداعك الوداع الاخير ، قبل التحاقى بجيش سيدى الكونت رودمير ، الم رابط على مقربة من هنا .
فأجاب الآخر :

— وكنت من ناحيتى ايضا مسرعا اليك يا فيليب ، لوداعك الوداع الاخير ، قبل التحاقى بجيش السلطان صلاح الدين الزاحف على مواقع الافرنج فى هذه الديار .

وترجل الفارسان ، وتعانقا طويلا ، وجلسا على حافة الطريق ، فوق سخرة تشرف على البحر الهادى ، وجعلا يتبادلان الحديث والذكريات ..

كان فيليب دورسال الفرنسى جنديا فى خدمة الكونت رودمير ، الذى كان يحارب فى صفوف الصليبيين ، ويتنقل من ميدان الى ميدان برجاله وعتاده ، على حسب الظروف والاحوال ومقتضيات الحروب .

وحدث ذات يوم ، فى احدى المعارك التى دارت رحاها فى جبال نابلس ، أن انتحى فيليب ناحية من ميدان القتال ، فاذا به امام جريح يفقد دمه بفزارة ويئن من الالم . فاقرب منه الجندى الفرنسى وعرف فيه بطلا عربيا مشهورا ، كثيرا ما رآه فيليب فى الميادين ، وكان الافرنج انفسهم يعترفون له بالشجاعة ويقرون له بالبسالة ، لانه لم يكن بين ابطال ذلك العهد المجيد من ينكر على صاحب الفضائل والخصال فضائله وخصاله .

كان الجريح يطلب ماء ، فحملة اليه فيليب ، وعندما روى العربى ظمأه ، فتح عينيه وتمتم قائلا :

— اقتلنى الآن أيها الجندى الصليبي ، فانى ارحل عن هذا العالم قرير العين بعد أن وفيت الواجب حقه . وأرجو أن يكون النصر فى هذه الموقعة لاعلام المسلمين !

فقال له فيليب :

- وهل سمعت يا ابن الاكارم ان احدا من رجال رودمير اجهز على جريح أو تهجم على أعزل ؟ لقد عرفتكم يا عامر التهامي ، وشاهدت فعالكم في الميادين . وثق ان الجندى الذى تراه الآن امامك يجلس فيك الشهامة والاباء : سأنتقد حياتك . وقد تسنح لك الفرصة في مستقبل الايام فتنتقد حياتي !

وانتهت تلك المعركة بانهزام المسلمين . ولكن فيليب دورسال الفرنسى لم يلحق برفاقه ، عندما اندفعوا في مطاردة اعدائهم ، بل ركب جواده ، وحمل معه عامرا التهامي الجريح ، الى مكان منعزل في الجبل ، حيث قضى ليلته بقربه ، وضمد جراحه ، واعاد اليه الحياة .

وتوتقت عرى الصداقة بين الرجلين ، فانتقلا معا الى جبال لبنان ، حيث اقاما مدة من الزمن ، بعيدين عن الحصون والقلاع وساحات القتال .

وكانت الحوادث تتتابع وتتسارع في اثناء ذلك ، ونيران الحرب تندلع السنيتها في كل مكان بين المسلمين والصليبيين . فقال عامر ذات يوم لفيليب :

- اى صديقى . اننى احن الى ديار اهلى ومضارب عشيرتى . فسأقصد الى وادى التيم حيث ينزلون ، وأقضى بينهم مدة من الزمن ، ثم ابعث اليك باخبارى او اوافيك في عزلتنا هذه !

فاجابه فيليب :

- اننى ادرك يا صديقى الدافع الذى يحملك على ذلك ، لأننى اشعر به ايضا ، وارغب مثلك فى الذهاب الى الاهل والخلان . فسأقصد من ناحيتى الى عكاء حيث ينزل رجال رودمير ، وبينهم اخوتى وابناء عمى . ولن تفرق الايام بيننا يا عامر !..

وافترق الصديقان على امل اللقاء !

وكان اللقاء فى اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة .

فقد حل عامر التهامي فى مضارب عشيرته بوادى التيم ، وقوبل بالتهليل والتكبير ، وكان القوم يظنونونه ميتا . وعلم الرجل ان الملك الناصر يوسف صلاح الدين قد اوفد رسله الى القبيلة يطلب قيامها الى القتال ، والتحاقها بجيش المسلمين فى طبرية ..

وعلم فيليب على اثر وصوله الى عكاء ان الملك جى دى لوسينيان



مدينة صور قديما
التي دارت حولها معارك طاحنة في عهد صلاح الدين

الصليبي قد اوفد رسله الى الامرات والحصون والقلاع المسيحية ، يطلب من رجائها الاستعداد للحرب ، وموافاته الى بحيرة طبرية للقاء المسلمين .

ورأى عامر ، ورأى فيليب ، ان الواجب يقضى على كل منهما بالسبر حيث تأمر السلطة العليا . واراد كل منهما قبل اللحاق باخوانه ان يعود الى صديقه ويودعه الوداع الاخير . .

واتجه عامر الى عكاء للقاء فيليب . .

واتجه فيليب الى لبنان للقاء عامر . .

وشاءت الصدف ان يلتقيا في ذلك الطريق المؤدى من صور الى عكاء . . .

فكان بينهما حديث وكانت دموع وكان فراق ! فسار كل من البطلين العدوين الصديقين ، الى حيث يدعوه الواجب ، مليانداء الدين والملك !

قرر صلاح الدين السير في القتال الى النهاية ، وانتزاع الاماكن المقدسة من ابدى الصليبيين وامرائهم واقيسالهم واساقفتهم ، فاطلق الحرب من عقالها ، ونادى بقومه ان هبوا الى الجهاد قبل ان يعدوا لاعداء عدتهم للدفاع ، وتصل الامداد التى وعدوا بها من بلاد الغرب ، والتى تحملها اليهم سفنهم العديدة فوق مياه البحار .

وانقضت سنة كاملة والحرب سجال بين الفريقين . فتارة يضحك النصر للمسلمين وتارة يعبس في وجوههم . وسالت الدماء حول اسوار المدن وفوق قمم الجبال وفي بطون الاودية ، من عكاء الى اورشليم الى نابلس الى الكرك والصحراء .

واراد السلطان ان يضرب ضربة قاضية ، عندما بلغه ان جيشا لجة يقطع البحار الى سواحل الشرق . فحشد كتائبه في الكرك والشوبك . ووافاد هناك جيش من حلب بقيادة زين الدين داردم ، وجيش من دمشق بقيادة قيمانز النجمى ، وجيش من البادية بقيادة مظفر الدين كوكى ، وغيرها من الجيوش جهزها الامراء والقواد من حدود مصر الى تخوم العراق ، فزحف السلطان بتلك القوة الهائلة الى بلدة طبرية الحصينة .

وكان الافرنج قد جمعوا جموعهم وساروا للقاء المسلمين ، قبل ان يصلوا الى ساحل البحر ، فالتحم الجيشان في موقعة فاصلة ، في يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميلاد .

قاتل الفريقان قتال الاسود ، وقد ايقن كل منهما أن الارض المقدسة ستؤول الى من يعتقد له النصر في تلك المعركة ، فاشتبكت الركاب بالركاب ، وتطايرت الرؤوس عن الاعناق ، وارتفعت صيحات المحاربين الى كبد الفضاء ، وغاصت قوائم الجياد في أنهر من الدماء ، وتساقطت الجثث اكداسا فوق اكداس . وبعد ساعات من طعن وضرب لم يدون التاريخ مثلهما ، تمايلت صفوف الافرنج ، ودب اليأس من الفوز في صدورهم ، ورأى الجنود خمسة من امرائهم يهرون على الارض مجندين ، فصاح احدهم : « العدول عن القتال خير وأوفى ! » فردد آخرون هذه الكلمات . وما هي الا ساعة حتى تراجع كتائب الصليبيين واندفعت تطلب النجاة في جبل حطين !

والهب انهزام العدو صدور المسلمين حماسة ، فانطلقوا في مطاردة الصليبيين ، واحاطوا بهم في حطين احاطة السوار بالمعصم ، فتحولت المعركة الى مذبحه هائلة ، ولم ينج من الافرنج - وكان عددهم نحو ثمانين ألف فارس وراجل - غير بضعة آلاف طلبوا الامان من صلاح الدين . فأمر السلطان بالكف عن القتال ، وأخذ الاسرى الى القلاع

وعندما اجتمع قواد الجيش الظافر ، بعد معركة طبرية وحطين ، حول سلطانهم المحبوب المطاع ، قال لهم صلاح الدين :

- لقد دون جيشنا الباسل اسمه اليوم في جبهة الدهور . وبحق للمسلمين بعد هذا النصر المبين ، أن يجعلوا من جبل حطين كعبة ثانية ، يحجون اليها مكبرين مهللين مستبشرين !

- وماذا تريد يا عامر أن تصنع بهذا الرجل ؟

لقى صلاح الدين هذا السؤال على عامر التهامي ، فأجاب البطل العربي :

- مولاي ، وعدتني في ميدان القتال ، عندما مررت امامك وسيفى مخضب بدم الاعداء ، أن تجيبنى الى رغبة واحدة افضى بها اليك بعد انتهاء المعركة . وها قد جئت الى مولاي طالبا منه الوفاء بالوعد . وما كان صلاح الدين يوما من الحائثين !

- جئتني اذن يا عامر تطلب العفو عن جندي مسيحي ، حاول في الميدان أن يضرب بسيفه عنق صلاح الدين ! فان ذلك الاسير الذي نحدثني عنه ، هو بعينه ذلك الرجل الذي اشتبك سيفي بسيفه ، وكان يربد اخذى على حين غرة ..

— أعلم ذلك يا مولاي . ولو كان ذلك الرجل جنديا خاملا ، لما رأيت .
منى اهتماما بأمره . لكنه من أبطال الصليبيين المعدودين ، ومن فرسانهم
المفاويز . وقد أنقذ هذا الرجل حياتي ، فأقسمت أن أنقذ حياته ، وأقابل
صنيعه بمثله ، عندما تسنح لى الفرصة ، وقد سنحت اليوم .

طلب صلاح الدين أن يؤتى إليه بذلك البطل الصليبي ، فساق
الجنود إليه فيليب دورسال ، صديق عامر التهامي ورفيقه وصاحب
الفضل عليه .

فقال صلاح الدين :

— لقد حاولت قتلنا يا هذا ، ونحن الآن نغفو عنك ، فهل تحفظ .
لنا جميل الذكرى على صنيعنا هذا ؟

فأجاب فيليب ، بعد أنلقى نظرة على حاشية السلطان :

— أيها المولى ! انك تغفو عني أجابة لرغبة عامر التهامي ، الذي
أنقذت حياته فأراد اليوم أن ينقذ حياتي . فليست اذن مدينا لك بمغف
أو معروف . وانما انا مدين بهما الى هذا الصديق الوفي . ولولاه لما
عفوت عني ، بل لضربت عنقي .

فمد صلاح الدين يده الى فيليب دورسال وقال :

— وددت والله لو لم يطلب عامر العفو عنك ، لكى أصدر ذلك العفو
من تلقاء نفسي ، مكافأة لك على صراحتك ، واعترافا منى بشجاعتك . .
فصافح أيها البطل هذه اليد التى لم تصافح غير أيدي الشجعان
الصناديد . . لقد أجبت عامرا التهامي الى رغبته ، وعفوت عنك ،
وأضيف على ذلك اننى لن احتفظ بك أسيرا ، وانك حر طليق .

هجر عامر عشيرته ، وهجر فيليب قومه ، وعاش الاثنان معا
ثلاث سنوات كاملة ، فى جبال السامرة ، وأقاما فى صومعتين ، وانعكف
كل منهما على الصلاة والعبادة حسب تعاليم دينه ، وكان الناس
يقصدون اليهما للتبرك منهما ، والاصفاء الى ارشاداتهما .

وأبديا رغبتهما لكل من كان يقترب منهما ، فى أن يرقدا رقادهما
الآخر جنبا الى جنب ، فى جبل الزيتون فى اورشليم ، سواء أكانت المدينة
المقدسة فى أيدي المسلمين أم فى أيدي الافرنج .

وكان الناس يعدون الصديقين بتحقيق رغبتهما ، بعد وفاتهما . .

ولما انقضت سنتان على معركة حطين . كان الصاعد الى جبل الزيتون ، يرى تحت شجرة وارفة الظل ، قبرين صغيرين ، يعلو أحدهما شاهد من حجر ، ويعلو الآخر صليب من خشب .

فقد نفذت رغبة الصديقين الأخيرة . ونام الاثنان نومهما الأبدى في ظل تلك الشجرة ، في سفح جبل الزيتون . وللمرة الاولى في التاريخ ، تجاوزت الشارتان - صليب فيليب وشاهد عامر - وكان ذلك دلالة ملموسة على ان القلوب في استطاعتها ان تتصافى ، مهما تكن العقائد الراسخة في الصدور . وان الناس جميعا اخوة في السراء والضراء ، والدين للديان .

الشيخ



الشيخ

قال صلاح الدين وهو يداعب لحيته ، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة الرضا والارتياح : « هذا ما كنا نرجوه ونتمناه . فقد وقع القوم في الفخ ودفعوا بأنفسهم دفعا الى الهلاك ! .. الله اكبر ! »

واشتبك الجيشان في قتال مرير ، تطاحن فيه المشاة والفرسان ، وكان يقود المسلمين في تلك المعركة السلطان صلاح الدين الايوبي ، ويقود الصليبيين ملك بيت المقدس « جى دى لوسينيان » ..

عرف السلطان كيف يجبر أعداءه جرا الى المواقع التى اختارها بنفسه ميدانا للقتال . فقد صف جيشه على شاطئ بحيرة طبريا ، وتظاهر أنه يتأهب لمهاجمة المدينة التى تحمل البحيرة اسمها ، فتحرك الصليبيون من مراكزهم المنيعه لنجدة المدينة ، واغتنم صلاح الدين الفرصة ونشر جناحيه حولهم ، فقطع عليهم خط الرجعة من ناحية ، وحال دون وصولهم الى شاطئ البحيرة من ناحية اخرى ، فاضطروا الى الاعتصام فى مرتفعات « حطين » الوعرة الجرداء ، حيث لا ظل ولا ماء ، وهذا ما كان يريده لهم السلطان الداهية . فان القيظ كان شديدا ، واشعة الشمس الوهاجة محرقة كاوية ، والخيل وفرسانها على السواء لا تقوى على الكر والفر اذا حرمت من الظل والماء معا ..

واستغرق القتال يومين كاملين ، وانتهى بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة ، وأسر ملكهم وكبار أمرائهم وقوادهم ، وترك الطريق حرا أمام صلاح الدين لمهاجمة بيت المقدس والقضاء على الدولة التى انشأها الصليبيون قبل ذلك التاريخ بنحو مائة سنة .. !

حالف الصيف اذن صلاح الدين فاستغل السلطان ذلك الحليف الامين ايما استغلال ، فمنع من أعدائه الماء ليقتلهم العطش ، وأمر بأن تشعل النار فى الامشاب اليابسة لكى تحمل الرياح الآتية من الخلف دخان تلك المحارق الى صفوف الصليبيين فتعمى أبصارهم وتضاعف عذابهم ، ورتب جيشه بحيث يشن غاراته على الأعداء من أربع جهات فى ان واحد ، فاجتمع على الجيش الصليبي « حر الزمان وحر النار وحر القتال ! »

وما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى كان ما ارتقبه صلاح الدين وتمناه قد تحقق ، فقتل من الصليبيين من قتل ، وأسر من أسر ، وتاه فى البرارى والقفار من طلب النجاة من الموت والأسر ..

فى سفح جبل « حطين » ، وبجانب صخرة واحدة ، سقط فارسان جريحين فى حومة الوغى : أحدهما جنسدى فى جيش الملك « جى دى

لوسينيان « اصيب بضربة سيف مزقت كتفه اليسرى ، والثانى جندى
فى جيش صلاح الدين اصيب بطعنة رمح مزقت صدره .

وزحف الجريحان على الارض ، بين الحصى المتراكمة والاعشاب
المحترقة ، وكل منهما يريد الالتجاء الى كهف صغير فى كنف تلك الصخرة
الضخمة ، لعله يجد فيه الراحة او تدركه فيه النجدة

فى ذلك الماوى الضيق التقى الجريحان ، وفى ذلك الكهف نسى
الرجلان انهما كانا منذ ساعات يقتتلان . فقد جمعت بينهما المصادفة
بعد المعركة ، وقرب بين قلوبهما المصاب الواحد . فراح كل منهما يواسى
الآخر ويساعده على وقف تدفق الدم من جرحه ، ويتمنى له الشفاء
كما يتمناه لنفسه . فالجندى فى تلك اللحظات الرهيبة ليس الا انسانا ،
يتألم ، ويشفق على من يتألم مثله ، ولا يبخل على الغير بالعطف الذى
يرجوه من الغير على نفسه

وطلع فجر الصباح التالى ، واذا بالجريحين نائمين الواحد بجوار
الآخر ، واذا بهما قد اصبحا صديقين بعد ان كانا بالامس عدوين ..

وحدق الجريح المصاب فى كتفه البصر فى جاره المصاب فى صدره ،
وخاطبه بالعربية قائلا : « ارى يا صاح فى عنقك لطفة حمراء ظننتها
بالامس دما ، واتبين الآن انها وشم فى بشرتك .. »

ولم يدهش الجريح الآخر لسماعه جاره يخاطبه بالعربية ، فان
الصليبيين المقيمين فى الاراضى المقدسة كانوا يجيدون لغة البلاد . ولكنه
انتفض لاشارة رفيقه الى تلك اللطفة الحمراء ، وحدق فيه البصر من
ناحيته ، وأشار الى عنقه وردد قائلا : « وانا ايضا يا صاح ، ارى فى
عنقك مثل هذه اللطفة الحمراء ، واتبين كما تبينت أنت ، انها ليست
دما بل وشم فى بشرتك .. »

وصمت الرجلان قليلا ، وارتعشت شفاههما ، وارتسمت الدهشة
على وجهيهما ، وسأل الصليبي زميله : « ما اسمك ؟ »
واجاب الآخر :

— قيس الاحمر .. وانت ؟

— جاك لروج ، ومعناها جاك الاحمر !

وتعانق الجريحان والدموع تنهمر من عيونهما .. وتمالك كل منهما
نفسه ، وتحمل الالام المبرحة التى يعانيتها ، وقاوم ديب الموت فى
مروقه ، وراح الاثنان يستعيدان ذكرياتهما ، ويقصان قصة حياتهما ،
وما حدث لاسرتهما الواحدة !

في أثناء الحملة الصليبية الاولى ، كان بين جنود « الكونت ريمون دى تولوز » أحد زعماء القوم ، شقيقان من موطنه بفرنسا ، تبعاه الى الارض المقدسة ، وعرف كبيرهما بين رفاقه باسم « أوجين لروج » وعرف صغيرهما باسم « برنار لروج » وقد أطلقت عليهما كنية «لزوج» ومعناها الاحمر بسبب لطخة حمراء كانت تشوه عنق كل منهما ، بين اذنه اليسرى وكتفه . وكان الاخوان يقولان انها وراثية في أسرتهما ، وان أباهما وجدتهما كانا يحملانها في عنقيهما ، وسوف يحملها ابناؤهما واحفادهما في اعناقهم أيضا . . !

وكانت شراذم من الصليبيين في أثناء ذلك تقوم بغزوات متواصلة في البقاع المجاورة ، فخرج « برنار لروج » ذات يوم مع فريق من رفاقه في غزوة على ضفاف الاردن ، وتخاصم مع قائد الغزوة على الاسلاب ، فتضارب الاثنان ، وطعن « برنار » غريمه طعنة كادت تودي بحياته ، فتألب عليه رفاقه ، وحاولوا القبض عليه ، ولكنه أفلت منهم ، وانطلق يعدو بين الصخور واختفى عن الانظار . .

وانقطعت اخباره منذ ذلك اليوم ، وظنه اخوه قد مات او وقع اسيرا . . ولكنه في الواقع لجأ الى إحدى العشائر العربية الضاربة على ضفة الاردن الشرقية ، فاضافته ، وانتهى به الامر الى أن اعتنق الاسلام وعرف بين الناس الدين لجأ اليهم باسم «برنار الاحمر» فاحتفظ باسمه منقولا الى لغة القوم !

وانتهت الحرب الصليبية الاولى باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩٢ للهجرة .

وبعد نصف قرن ، هبطت الشرق حملة صليبية ثانية ، فاذا بابن «أوجين لروج» - واسمه «ريمون لروج» - يشترك فيها ، ويساهم في حصار دمشق سنة ١١٤٨ ، بينما كان ابن «برنار الاحمر» ، واسمه «عبد الله الاحمر» ، يشترك فيها أيضا ولكن في صفوف المسلمين ، ويساهم في الدفاع عن عاصمة القطر الشامي .

وظلت الاسرة مشطورة الى شطرين : شطر يحارب تحت راية الغرب ، وشرط يحارب تحت راية الشرق .

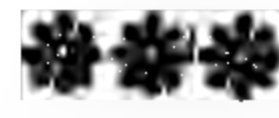
فابن «ريمون لروج» ، واسمه «جان لروج» ، قتل في معركة المنيطرة بلبنان سنة ١١٦٦ .

وقتل «عمار الاحمر» ، ابن «عبد الله الاحمر» وهو يحارب في جيش «ابن المقدم» حاكم بعلبك ، ليصد غزوة صليبية في سهل البقاع ، سنة ١١٧٦ .

وشاءت الاقدار أن يلتقى في صقيع واحد ، ويشترك في معركة واحدة .
ويجرح في مكان واحد «جاك لروج» ابن «جان لروج» ، و «قيس الاحمر»
ابن «عمار الاحمر» ، وذلك في موقعة حطين في سنة ١١٨٧ .

وقد رزق كل من أوجين وريمون وجاك لروج ابنا واحدا ، ورزق
كل من برنار وعبد الله وعمار ابنا واحدا أيضا . أما جاك وقيس فانهما
لم يتزوجا ولم يرزقا بالطبع أبناء ..

وكان كل من الجدين والابوين والابنين والحفيدين يحمل في عنقه
بين الأذن اليسرى والكتف ، تلك اللطخة الحمراء التي توارثها افراد
الاسرة من قديم الزمان ، والتي أطلق عليهم من أجلها اسم «الروج» أي
«الاحمر» .



ففي صيف سنة ١٠٩٩ ، افترق الاخوان «أوجين» و «برنار» ..
وأصبح كل منهما جدا لفرع منفصل لاسرة «الروج» . وفي صيف سنة
١١٨٧ ، أي بعد ذلك الفراق بنحو قرن كامل ، وضعت العناية الالهية
وجهها لوجه ، في حومة الوفى ، الابن الوحيد لحفيد الجد الكبير «أوجين»
والابن الوحيد لحفيد الجد الصغير «برنار» .

وما اعظم الفارق بين الصيغين : ففي الصيف الاول كان فراق
وكانت هزيمة للمسلمين في بيت المقدس . وفي الصيف الثانى كان لقاء
وكانت هزيمة للصليبيين في بيت المقدس أيضا .. في الصيف الاول
انشأ كل من الاخوين المفترقين اسرة مستقلة عن اسرة اخيه ، وفي
الصيف الثانى انقرضت الأسرتان معا بموت «جاك لروج» و «قيس
الاحمر»

فقد طاف في النهار وسل الرحمة من الفريقين المتحاربين في أرجاء
الميدان ، وجعلوا ينقلون القتلى لدفنهم ، والجرحى لملاجئهم ، فعثروا على
جثتين متعانقتين في كهف صغير : جثة الجندي المسلم ، وجثة الجندي
الصليبي ..

وحاولوا أن يفرقوا بين الجثتين ليدفنوا كلا من البطلين في مدافن
قومه ، فلم يتمكنوا : فقد تشابكت أذرعهما ، وتكالبت أصابعهما ، في
عناق أراداه أن يكون ابديا .

فكان لهما ما أرادا ، ودفنا في حفرة واحدة ، في المكان الذى وجدنا
فيه متعانقتين .

يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ سَلَحِ الدِّينِ



الله اكبرا، تصاعدت من حناجر عشرات الالوف من فرسان الميادين
وابطال الحروب ، فكانت هتافا ، وكانت دعاء ، وكانت شكرا
له على ما اولى صلاح الدين الايوبي وجيشه المظفر من نصر وعزة وفخر .
ودخل السلطان المدينة المقدسة : فحقق الآمال التي عقدها عليه العالم
الاسلامى فى ذلك الوقت .

٢ تشرين الاول - اكتوبر سنة ١١٨٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٣
الهجرة ذلك هو اليوم الذى سلم فيه الصليبيون بيت المقدس ، وأخلوا
القلعة المعروفة ببرج الملك داود فاحتلها المسلمون ، وأمر صلاح الدين
بأن يفتح باب الخليل ، المعروف أيضا باسم باب الملك داود ، ليدخل
منه الجيش ويتسلم المدينة من غزاتها السابقين ، وما مر أسبوع
على ذلك اليوم التاريخى ، حتى كان السلطان قد رفع أعلامه على جميع
الاسوار والابرار ، وأصلح ما تهدم من قبة الصخرة والمسجد الأقصى،
وغسلهما بماء الورد ، وأدى فريضة الصلاة فى المكان الذى صلى فيه
عمر بن الخطاب من قبل .

وفى اليوم السابع لدخوله المدينة المقدسة ، خرج صلاح الدين الى
شوارعها ، ومعه رفاق الجهاد من وزراء وقواد وقضاة ، ليستطلع
بنفسه حالة الجيش والسكان ، ومبلغ حرص رجاله على تنفيذ شروط
التسليم التى فرضها على الصليبيين فقبلوها وتقبلوا بها .

وامام باب القلعة ، وقف صلاح الدين ورفاقه يشاهدون رحيل
السكان الذين افتدوا انفسهم بالمال ، عملا بقوانين الحرب المرعية فى ذلك
العهد ، وتنفيذا لشروط الصلح .

عشرة دنائير فدية الرجل السليم ، وخمسة دنائير فدية المرأة
السليمة ، ودينار واحد فدية الطفل أو الفتى دون سن المراهقة . أما
الفقراء الذين لا يملكون مالا ، فقد رضى صلاح الدين بأن تخفض فديتهم
على أن تدفعها جمعيات الرهبان الفرسان ، الفنية بأموالها وأملاكها ،
أما العاجزون والمرضى فتطلق حريتهم بدون فدية . وأما الباقون ،
فيدفعون الجزية أو يظلون فى الأسر .

لم يقدم الرهبان الفرسان على دفع الفدية بأكملها ، بالرغم
من قدرتهم على ذلك ، فخرج من المدينة من خرج ، وبقي العساجزون
عن الدفع فى بيوتهم يكون وينتحبون .

وخاطب صلاح الدين الايوبي أخاه الملك العادل :

— ما قولك فى هذا ؟ ان القوم يخلون بشروط التسليم . وغنيهم
يتخلى عن فقيرهم فى الشدائد . فهل نرجع عن العهد الذى قطعناه ،
ونأمر بأخذ المال عنوة ممن يختزنونه ويضنون به ؟

فأجاب الملك العادل :

— لقد مرت بنا ظروف مثل هذه من قبل ، وضمن أغنياؤنا بالمال على الفقير ، مخالفين بهذا أحكام كتابنا ، كما يخالف هؤلاء الرهبان الآن أحكام كتابهم ، وقد كان العدو في تلك الظروف قاسيا علينا . فهل يجمع صلح الدين أن يقتل به ؟

— ان هذا لن يكون يا أخى ! ليطلق سراح خمسمائة من الفقراء بدون فدية ، لوجه الله ، وطلب الثواب .

— وإذا كان مولاي يحرر خمسمائة من الأسرى ، وهو التقى الصالح الورع ، أفلا يسمح لى بأن يتحرر أيضا ألف فقير من هؤلاء المساكين ، باسمى انا ؟ فان حاجتى الى الثوات عند الله لاشد وأقوى ..

— ليطلق سراح ألف فقير بدون فدية ، باسم الاخ الملك العادل ..
ومر أمام صلاح الدين ألف وخمسمائة من الفقراء ، في طريقهم الى الحرية ، وارتفعت في أجواء القدس هتافات لم يذكر التاريخ مثيلا لها من قبل ولا من بعد .

ألف وخمسمائة من فقراء الافرنج يدعون الله أن يحفظ سلطان المسلمين ، ويكتب له النصر المبين والعمر الطويل .

وأمر صلاح الدين الأيوبي بأن ترافق الراحلين عن المدينة المقدسة فصائل من فرسان الحرس ، للسهر عليهم في الطريق ، ومنع كل اعتداء عليهم ، حتى يصلوا بأمان الى الثغور الباقية في يد الصليبيين على سواحل فلسطين ولبنان .

هذه اولى مكرمات صلاح الدين في ذلك اليوم .



— ليترجل الفرسان عن خيولهم وليقفوا لحظة خاشعين أمام هذا المكان ، الذى يعيد الى الازهان ذكرى عيسى بن مريم ، عليه السلام ، ولتكن كنيسة القيامة هذه ، من المخلفات التى يحرس عليها المسلمون حرصهم على القبة المشرفة والجوامع الاقصى .

فترجل الفرسان أمام مدخل الكنيسة التاريخية ، تنفيذا لأمر صلاح الدين ، وأحاطوا بالسلطان مطرقين صامتين .

ورفع صلاح الدين رأسه وقال :

— جاءنى امس وفد من الامراء ، يطلبون هدم هذا المسكان وازالة معاله : وانهم لمخطئون . فما جئنا الى هنا للتخريب والتدمير . ولو



صالح الدين الأيوبي في مطلع الشيخوخة

قوضنا هذا البناء لاقتربنا عملا لن يرضى عنه الله ، ولما منعنا النصارى من ان يحجوا الى هنا ، ويستمطروا علينا اللعنة : سيبقى هذا البناء قائما ، كما اراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان يبقيه قائما .

وعلا الهتاف بحياة السلطان مرة أخرى من افواه المسلمين والنصارى على السواء . واخذ الملك العادل يد أخيه وقبلها وهمس صلاح الدين فى أذنه :

— سيكون لهذا التسامح فى نفوس القوم وقع أشد من وقع السيوف فى صدورهم . . وابقاء كنيسة القيامة فى مكانها سيدر على المسلمين ارباحا كثيرة مما سوف ينفقه الحجاج فى هذه المدينة من أموال !

وشق الصفوف فى هذه اللحظة فارس من حاشية السلطان واسرع الى صلاح الدين قائلا :

— مولاي ، ان البطريك هرقليوس الرومى يستعد للرحيل عن المدينة حاملا معه اكداسا من التحف والصلبان والمصابيح والادوات الكنسية الغالية . وان المشرفين على تفتيش الراحلين يمنعون من الخروج بهذه الثروة الطائلة باعتبارها من الاموال غير المنقولة التى تعدها شروط الصلح ملكا للغزاة الفاتحين .

فنظر صلاح الدين الى الرجل نظرة تمثلت فيها نفسه الابية النبيلة واجاب مبتسما :

— دع الكهنة والرهبان وما يستطيعون حمله . فالأموال غير المنقولة هى التى لا يقوون على حملها . . واذا كنا لا نحرمهم من أماكن العبادة ومن مواصلة صلواتهم وطقوسهم فهل تريد أن نحرمهم من الادوات التى يستخدمونها للصلاة فى تلك الاماكن ؟

فتقدم أربعة من الرهبان وانحنوا أمام صلاح الدين شاكرين وقال كبيرهم :

— اسمح لنا اذن ايها المولى بالبقاء داخل كنيسة القيامة هذه واقامة طقوسنا الدينية فيها ، واعفنا من كل جزية وضريبة .

فاجابهم صلاح الدين :

— سيكون لكم ما تريدون ، ولن يقال ان صلاح الدين رفض اليوم طلبا لواحد منكم .

فانحنى الرهبان الاربعة مرة أخرى ودعوا لسلطان المسلمين بالبقاء .

وهذه هي المكرمة الثانية لصالح الدين في ذلك اليوم .

واصل السلطان طوافه في المدينة المقدسة ، وانطلق المنادون يشقون له الطريق ، ويدعون صاحب الحاجة الى بسط حاجته ، وصاحب الشكوى الى رفع شكواه ، بلا تمييز بين مسلم ومسيحي ، وصديق وعدو ، وشرقي وغربي .

وفي طريق الجلجلة ، تقدم من السلطان أربعة رجال ، كل منهم يصيح طالبا من صالح الدين العدل والانصاف .

هذا شيخ مسيحي مسن ، يمسك بذراع شاب مسلم ويقول بصوت متهجدج :

- اذا كان سلطانكم صالحا عادلا ، فلن يسكت على ما صنعه بي يا خائن !

سأله صالح الدين ما الخبر فقال الرجل :

- أيها المولى . انا فرنسي من بلدة تولوز . اقيم في هذه المدينة منذ عشرين سنة . وقد جاءني هذا الشاب منذ سنتين ، هاربا من مدينة عسقلان لعمل ارتكبه يستحق الجزاء . ودخل مدينة القدس خلصة بدون أن يشعر به أحد من الحراس المسيحيين ، فأضفته في بيتي وكتمت خبره عن الناس ، ولم أطلب منه أن يقص على قصته بالتفصيل بل اكتفيت بما رواه عن هربه من وجه اخوانه المسلمين . وقد اقام في بيتي هذه المدة كلها ، يأكل ويشرب وينام ، وما فعلت هذا الا تمشيا مع واجب الضيافة الذي تعلمته من العرب في هذا الشرق . ولكن عندما استرجعتم القدس ، وخسر الصليبيون كل شيء ، وشعر هذا الشاب بأنني أصبحت ضعيفا وأصبح هو قويا ، انقلب على وطردي من بيتي واستولى على كل شيء فيه . فهل انتم تطلقون الايدي بالسلب والنهب وتقررون خيانة الضيف للمضيف ؟ ام تطبقون علينا شروطا قبلناها واربطتم بها ؟ ان هذا الرجل خائن وسارق . فهل تعاقبه يا صالح الدين ، أم تسكت عن خيانتته وسرقته .

لم يتردد صالح الدين لحظة في الجواب . بل التفت الى الملك العادل وقال :

- أعيدوا الى هذا الشيخ بيته وماله ، وأغفوه من دفع الفدية أو الجزية ، وأسجنوا هذا الشاب حتى ننظر في أمره ..

والتفت السلطان الى الرجلين الآخرين وسألهما ما يريدان . . فقال
أحدهما :

— أنا محمود البصرى يا مولاي . . منذ ثلاثة أعوام ، سقطت في
معركة بيسان جريحا . وأشرفت على الموت . فأنقذنى هذا الرجل وهو
من الفلاحين النصارى ، من أبناء سردينيا . وقد التقيت به هنا بعد
دخولنا بيت المقدس منتصرين . وهو فقير لا يملك الفدية ، ولم يدفعها .
منه أحد . فجئت اليك يا صلاح الدين طالبا أن تطلق سراح هذا الرجل .
وتعيد اليه حرته ، لانه أنقذ منذ ثلاثة أعوام حياة جندى من جنودك .
لا يزال الى الآن يحارب تحت لوائك ويشاركك في انتصاراتك .

فقال صلاح الدين :

— ما اسم الرجل ؟

— برتران موليه . . .

— أنت حر يا برتران موليه . . اذهب الى حيث تشاء . أو ابق .
في هذه المدينة حرا طليقا معفى من كل قيد .

وهذه مكرمة نالها لصلاح الدين الايوبى في ذلك اليوم .



وصل صلاح الدين في طوافه الى أسوار الحرم الشريف ، وعند
الباب الكبير المؤدى الى البهو القسيح ، فوق التل المنبسط الذى شهد
أول دعاء توجه به عمر بن الخطاب الى الله من قبل .
وقف السلطان لان فريقا من المقاتلين العرب من أبناء البادية كانوا
قد سدوا الطريق ، مشتملين بعباءاتهم ، ملثمين بكوفياتهم وبأيديهم
السيف واللامعة .

— من هؤلاء ؟ وماذا يريدون ؟

قال صلاح الدين هذا وقطب جبينه ، لانه كان يمتعض من رؤية
رجال البادية ، يأخذ عليهم عدم خضوعهم للأوامر وجنوحهم الى
الفوضى ، ولكن شابا خرج من صفوف البدو ، وأعاد سيفه الى غمده ،
وأزاح عن وجهه اللثام ، فاذا به فتاة بارعة الجمال ، براقة العينين
وضاحة الجبين :

فسأل السلطان مندهشا :

— امرأة ؟ . . .

— نعم ، امرأة يا صلاح الدين ، امرأة تصحبها نساء مثلها ، نحن
عشرون امرأة ، وكنا بالأمس ثلاثين !

والتفت الفتاة الى هذا الرهط الملتف حولها ، فاذا بالشم تتساقط
عن الوجوه ، واذا بكل لثام يكشف عن جمال بارع ، وعينين براقيتين ،
وجبين وضاح .
ولم تترك الفتاة فرصة لصلاح الدين ليخاطب النساء السافرات
بل استطردت قائلة :

— نحن من بنات بادية الشام ، جئنا من مختلف العشائر والبطون
لناخذ نصيبنا من الجهاد في سبيل الله ، وقد تنكرنا في أثواب الرجال
كما فعلت مئات من نساء البادية في عهدك يا صلاح الدين ، كنا ثلاثين
فاستشهدت منا عشر نساء في المعارك ، وتسلمت انا «فدوى العاملة»
قيادة هذه الفصيلة بعد مصرع أمي «صداحة العاملة» وما جئنا اليك
الآن الا لكي نطلعك على سرنا وقد حفظناه مكتوما في صدورنا مدة أربعين
شهرا . فاشملنا بعفوك ، واسمح لنا بأن نعود الى البادية التي نحن
اليها ، ونتوق الى استنشاق هوائها ، وإطلاق أعنة خيولنا في فلاتها .
رفع صلاح الدين طرف كفه ، ومسح دمعة ترقرت في عينيه ،
وقال :

— حفظكن الله يا بنات البادية واخوات الرجال ، ان صلاح الدين
لفخور بكن . وهو يمنح كلا منكن خمسمائة دينار ، وفرسا أصيلا ،
وسيفا ورمحا . فعبدن الى مضاربكن بحراسة الله .

رفعت الفتاة فدوى سيفها في الهواء ، ورفعت رفيقاتها سيوفهن
مثلها ، وقالت العاملة :

— مولاي !! لم نشترك في الجهاد لكي نتقاضى ثمن الدم الذي بدلناه
فاسمح لنا بأن نرفض المال الذي اغدقته علينا ، وبأن نكتفى بالخيول
والاسلحة فهي اكثر فائدة لنا من الدنانير . وسوف نروض الخيول
ونزهف السلاح ونشجده للمعارك المقبلة .

فترقرقت دمعة ثانية في عين صلاح الدين ، وضم الفتاة اليه ،
وطبع على جبينها قبلة شعرت كل فتاة بدوية بأنها على جبينها طبعت .

وهذه مكرمة رابعة لصلاح الدين في ذلك اليوم .

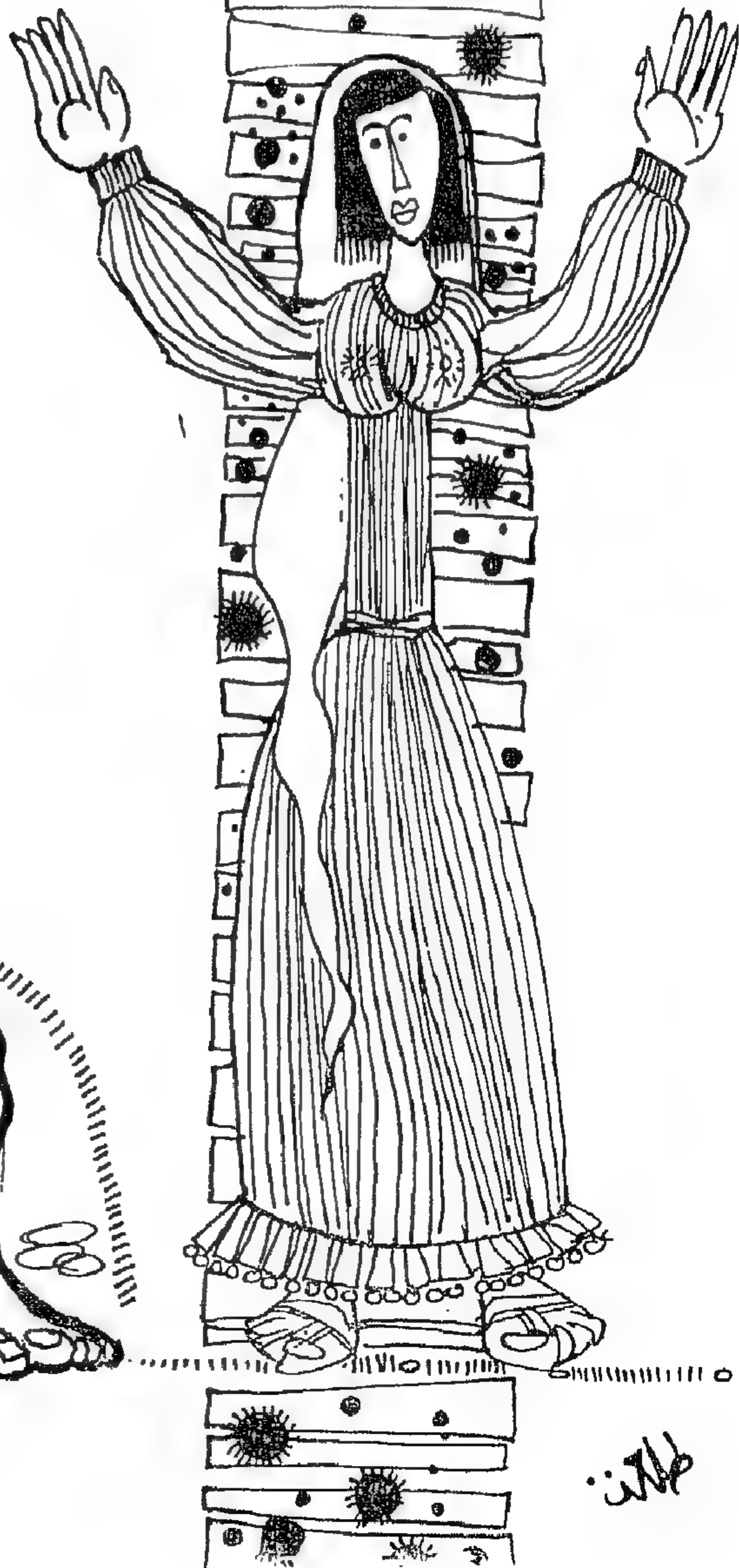
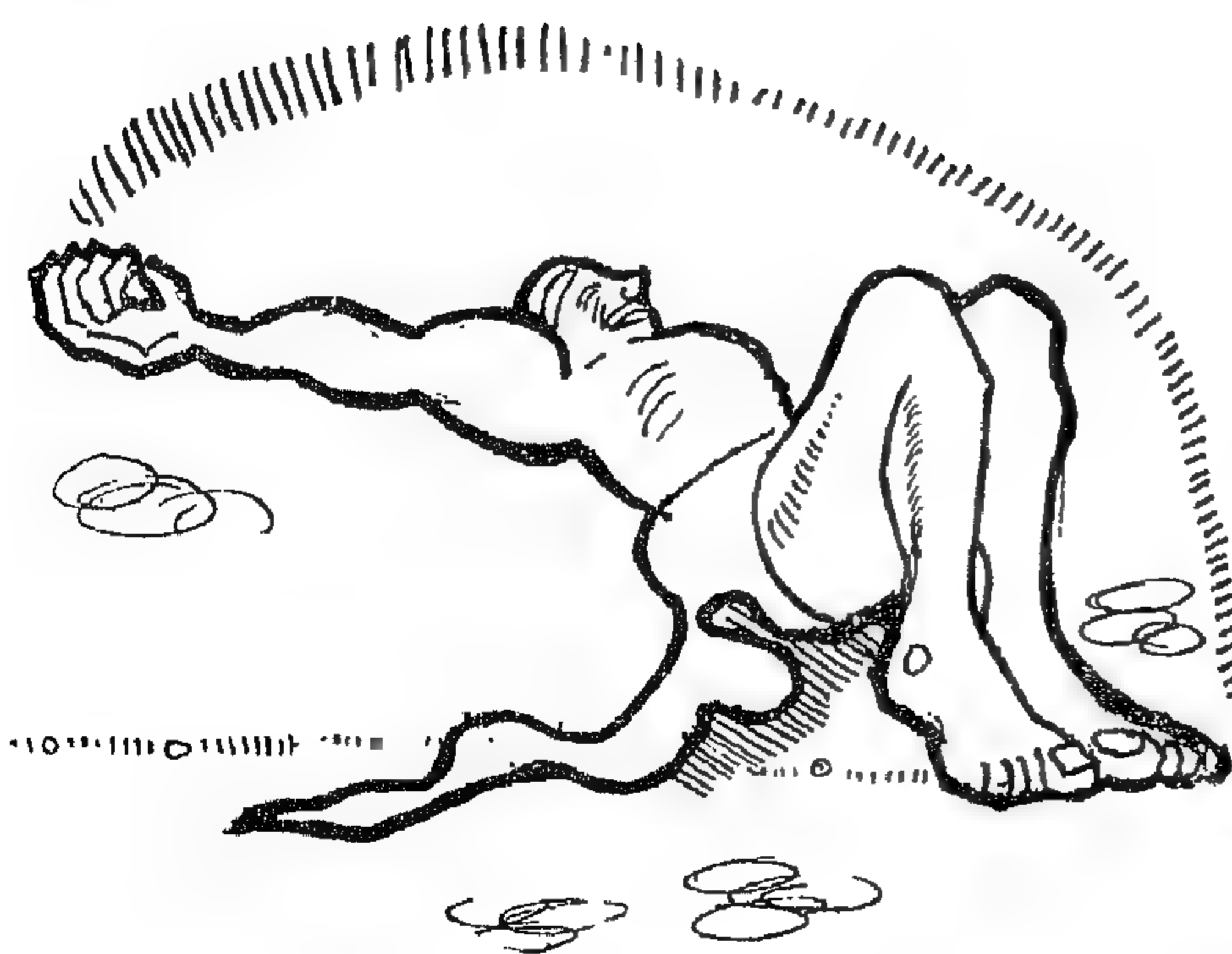
جلس صلاح الدين بعد الانتهاء من طوافه ، ومن حوله رفاقه وقد
انهكهم التعب ، في الدار التي اتخذها مقرا مؤقتا له . وبعد أن توجه الى
الله بالشكر على ما أسبغه عليه من نعم ، سأل أخاه الملك العادل :

— ماذا صنعتم بنساء الافرنج ؟
— لقد نفذنا أوامرك يا مولاي ، واحطناهن بكل عناية وعاملناهن
بكل رفق ...

— اليكم ما أريده منكم وأرغب في أن تنفذوه في الحال : ان القائد
«الصليبى» «باليان» الذى دافع عن بيت المقدس رجل صادق شهم وفى
وزوجته «مارى» سيدة فاضلة كانت من قبل زوجة لملك من ملوك
القوم ، قضى نحبه ، فتزوجت من بعده «باليان» هذا الذى احترمه . .
فليطلق سراح السيدة مارى ، وليطلق أيضا سراح الملكة «سيبيلا» زوجة
ملك الافرنج الذى هزمناه وأسرناه فى حطين . ونأمر أيضا بأن يعفى من
الفدية أو الجزية جميع الخدم من رجال ونساء . وجميع الجنود الذين
كانوا يحرسون الملك والقائد «باليان» ونساء الامراء الافرنج ، وقد
علمت ان فى بعض الحصون التى انتزعناها من القوم لفيها من النساء
يحتجزهن رجالنا أسيرات أو سبايا ، فليطلق سراح أولئك النسوة
الضعيفات ، واذا ألح الامراء أصحاب الحصون من المسلمين بوجوب
دفع الفدية ، فلتدفع لهم من بيت المال ، وعليكم ان تعدوا فصائل
من الفرسان للبحث عن الأسيرات والسبايا واعادتهن الى الثغور معززات
مكرمات . فان مقابل هذا لكم ولنا الثواب عند الله .

وعادت الملكة «سيبيلا» الى زوجها الملك ، وعادت الملكة السابقة
«مارى» الى زوجها القائد «باليان» وخرجت من حصون المسلمين مائة
وعشرون من زوجات الامراء الافرنج وأخواتهم وبناتهم ، ورحل عن بيت
المقدس ثلاثمائة من الحرس الصليبى والخدم والوصيفات . وذهب
«باليان» قائد بيت المقدس الذى قاوم صلاح الدين ثم سلم المدينة له ،
الى قلعة داود ، وشكر السلطان العزيز الكريم على ما أبداه من سخاء
وتسامح وإباء .

وكان تحرير النساء من الأسر والسبى مكرمة خامسة لصلاح
الدين الايوبى، فى ذلك اليوم .



بلغ التوتر اشده في العلاقات بين السلطان صلاح الدين الايوبي والامراء الصليبيين في جنوب البلاد الشامية وشمالها . وفي سنة ١١٧٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٧٥ للهجرة ، عاد الفريقان الى تبادل اعمال الفزو والسطو بصورة دلت على ان الاصطدام الحاسم واقع في القريب العاجل ولا مفر منه . فاما ان يقضى صلاح الدين على الدولة الصليبية في بيت المقدس ، واما ان يهزم في ذلك الصراع الاخير ، فتكمش دولته على نفسها ، ويوسع الافرنج حدود مملكتهم ما شاءت لهم مطامعهم ..

شيد الملك بلدوين الرابع ، الجالس على عرش بيت المقدس ، سلسلة من الحصون والقلاع على طول الحدود الفاصلة بين مملكته والدولة الشامية في شمال فلسطين وجنوب جبل عامل وساحل لبنان .

وتحولت المنطقة الجبلية الوعرة ، من حيث تنحدر مياه القدران والينابيع لتكوين نهر الاردن ، الى قواعد حربية متواصلة الحلقات يسيطر كل من الفريقين المتحاربين على جزء منها ، ويستعد فيها للجولة الفاصلة ..

كان خط الافرنج يمتد من ساحل البحر عند ميناء صيدا الى داخل الارض السورية عند بانياس ومنفذ سهل البقاع في جنوبه وكانت حامياتهم معتصمة في قلاعها وحصونها : مرج عيون ، والطيبة ، وهونين ، وتبنين ، وقلعة يعقوب وغيرها من تلك السلسلة التي ربطوا حلقاتها وشدوها بعضها الى بعض .

اما صلاح الدين فقد اختار لرجاله دائرة ضيقة أهم مواقعها « تل القاضي » وبلدة « بانياس » ومن هناك راح يعد العدة لشن هجمات متقطعة على مراكز الافرنج لمعرفة مدى استعدادها للمقاومة من جهة ولمنعها من توحيد حلقاتها وانشاء خط دفاعي متين يصعب عليه اختراقه فيما بعد .

وانطلق فرسان صلاح الدين من تلك المكامن وراحوا يضربون ضرباتهم نحو الجنوب حيناً ونحو الغرب احياناً ثم يعودون بالاسللاب والفنائم فضلا عن المعلومات المفيدة التي يحملونها معهم عن الاماكن التي غزوها والقوات الافرنجية التي دافعت عنها .

وما كان يفعله رجال صلاح الدين ضد خصومهم كان رجال بلدوين يفعلونه أيضا ، فيردون على كل هجوم بهجوم مضاد الى الجنوب او الى الغرب ، بغزوة الى الشمال أو الشرق . وكان لابد من معركة حربية كبيرة تجعل احدي الكفتين ترجسح

على الاخرى وتحصر السيطرة على منابع « الاردن » وطريق « البقاع »
في يد فريق دون الآخر ..

وهذا ما اعتزم صلاح الدين الاقدام عليه في سنة ١١٧٩ ، وفي قصره
بدمشق عقد السلطان مجلسا حضره فريق مختار من امراء الجيش
وحكام المقاطعات . وبسط لهم صلاح الدين خطته باسهاب فوافقوا عليها
جميعا وكرروا اداء يمين الطاعة للسلطان . واقسموا على تنفيذ اوامره
وبذل الارواح في سبيل الاهداف التي وضعوها كلهم نصب اعينهم

وزع صلاح الدين قواته المهاجمة ، فسارت كل قوة الى الهدف
الذي حدده لها ، على ساحل البحر ، او في شمال سورية ، او في المناطق
الجبلية حيث اعتصم امراء الافرنج في حصونهم المنيعه ، وقرر ان يسير
بنفسه على راس القوة التي اعدّها لتحطيم سلسلة القلاع في الجنوب
على حدود الدولة الصليبية في ارض فلسطين المقدسة

وفي العاشر من شهر حزيران يونيو سنة ١١٧٩ ، اشتبك الفريقان
في معركة عنيفة عرفت بمعركة « مرج عيون » دارت الدائرة فيها على
جيش الملك بلدوين الرابع وامرائه الذين خفوا من كل صوب لشد
ازره ، فتفرقت فلول ذلك الجيش هائلة في الجبال والوديان ، ولجأ
بعضها الى قلعة الشقيف في جبل عامل ، ووصل بعضها الى صيدا
وبيروت ، وعادت البقية الى بيت المقدس حاملة خبر الكارثة وما اصاب
خط الدفاع في شمال المملكة من تصدع يشبه الانهيار .

وفي اثناء المعركة ، وقع حادث شاءت الاقدار ان تجيء عواقبه سليمة
بالنسبة الى السلطان ، فلا يقتل في معركة مرج عيون الرجل الذي
كتب له ان ينتصر بعدها بثمانية اعوام في معركة حطين الفاصلة

والذي حدث في معركة مرج عيون ان صلاح الدين خاض القتال
بدون مبالاة للخطر كعادته ، فاندفع رجال حرسه وراءه كما كانوا يفعلون
دئما لنجدته اذا مادعا الداعي الى نجدة - وقد دعا اليها في غمرة
للقتال في مرج عيون .

كثيرا ماكانت النساء العربيات الشاميات يلحقن بالجيش
في عهد صلاح الدين وغيره من الملوك والسلاطين وياخذن نصيبهن من
القتال دفاعا عن الحمى ..

وهذا ما فعله رهط من بنات دمشق لحقن بالرجال الذين تطوعوا
للقتال في مرج عيون .

ولاحظ صلاح الدين ، في وسط المعركة ، ان بعض النسوة معرضات
لخطر داهم ، فقد احاط بهن فريق من فرسان الافرنج محاولين اسرهن

فهرع السلطان اليهن لفك ذلك الحصار عنهن ، وتحول عملاق من أولئك
الفرسان نحو السلطان بينما كان صوت امرأة يرتفع مرة بعد مرة :
« .. سامر ! .. سامر ! .. السلطان السلطان »

وفي اقل من لمح البصر ، ارتفعت ذراع وارتفعت أخرى ، وهوى
سيف ثم هوى سيف آخر : فقد رفع العملاق الافرنجي ذراعه وهوى
بسيفه على رأس صلاح الدين ، ولكن ذراع « سامر » كانت أسبق من
ذراعه ، فارتفعت ، وهوى سيف الفارس العربى فالتقى النصلان عند
كتف صلاح الدين .. وانقذ السلطان ، ان لم يكن من موت محقق ، فمن
اصابة خطيرة ، لان ذلك العملاق لم يكن غير « كونراد فيلان » الرجل
الذى كان بلدوين يفاخر بانه أبرع ضارب بالسيف في جيشه ..

هوى السيفان ، وكبا الجوادان فهوى الفارسان على الأرض ، وهنا
لعب القدر لعبة ، قد تكون الأولى من نوعها في التاريخ :

فقد نفذ سيف كل من الفارسين في صدر الآخر وهما يسقطان
على الأرض ..

وامام هذا المنظر المؤثر الذى لم تقع الأعين على مثله في ميادين القتال
.. وقف الفرسان جميعا مشدوهين مذهولين ..

ورفع السلطان سيفه لتحية البطلين :
البطل الذى اراد قتله ، والبطل الذى انقذه ، وكان الاثنان يلفظان
لانفاس الأخيرة ..

وشقت الصفوف امرأة تصيح : « الى الجنة ياسامر .. الى
الجنة ! .. »
والقت بنفسها على جثة الفارس العربى تغمرها بالدموع
والقبلات ..

هى « خديجة » اخت القتيل : من بنات دمشق المتطوعات ، لحقت
بالجيش مع اخيها الذى قتل وهو يدفع الخطر عن السلطان ، وزوجها
الذى لايزال يقاتل في إحدى جبهات الميدان الفسيح

وقال صلاح الدين : « لينقل كل فريق بطله القتيل بعيدا عن
نطاق المعركة »

وحمل فرسان الافرننج قتيلاهم « كونراد فيلان » وقد تجمدت
اصابعه على قبضة سيفه .. وحملت النساء قتيل العرب « سامر
الاعسر » وقد تجمدت ايضا اصابعه على قبضة سيفه ..

وسأل صلاح الدين : « أرى هذا البطل وقد حارب بيده اليسرى

ولا يزال قابضا بها على سيفه ، فما السبب ، وهل اصيب بجراح في يمينه فنقل السيف الى يده اليسرى ؟ »

وجاء جواب خديجة : « ايها المولى ان اخي مصاب بشلل في يده اليمنى ، وكان منذ الصغر يستخدم يسراه بدل يميناه .. ولهذا سماه الناس سامر الاعسر ! »

هزم صلاح الدين جيش بلدوين الرابع في معركة مرج عيسى ووضع بعد ذلك الفوز خطة جديدة مهد بها لانتصاراته التالية ، وكان آخرها في حطين سنة ١١٨٧ - الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة .

وقامت تلك الخطة على أسس درسها السلطان النابغة وفحصها واقرباها بالاتفاق مع ذوي الرأي ممن كان يستشيرهم ، ويعمل بارشاداتهم وأهم ما في تلك الخطة السيطرة على مياه الينابيع والغدران الخارجة من بطون الجبال ، الجارية في الوديان ، التي منها يتألف النهر الكبير الذي تسري الحياة بفضلها في الضفتين الشرقية والغربية للأرض المقدسة: نهر الأردن ..

وترمى الخطة التي وضعها السلطان ايضا الى السيطرة على المنافذ المؤدية من أرض الجليل بشمال فلسطين الى سهل البقاع وطريق دمشق والجنان الشامية . فمن تلك المنافذ ينوي الافرنج ان يتسللوا او يندفعوا الى داخل البلاد السورية ، وبفضل المياه الآتية من الجبال يضمنون لانفسهم الرخاء باستثمار الأرض والاكثر من الزرع والعناية بالمراعى وتربية المواشى والخيول ..

وفي بلدة بانياس ، وعند منبع الغدير الذي يعرف باسم هذه البلدة ، وعند منبع الغدير الآخر الذي يعرف بالحصباني شيد صلاح الدين حصنين صغيرين ، احاطهما بيوت مبنية بالحجر وطلب من الناس ان يتخذوا المكانين مقرا لهم ، فهرع السكان الى الحدود حيث انصرفوا الى الاعمال الزراعية وتربية الماشية ، وعنوا في آن واحد بحراسة الحدود كيلا يتسرب منها الافرنج من داخل دولتهم بفلسطين

وتولى القيادة في تلك المنطقة بأمر من السلطان ، الفارس الذي نال في المعارك السابقة شهرة جعلته أهلا لذلك المنصب : سالم الحلبي ، زوج خديجة أخت سامر الاعسر الذي قتل في معركة مرج عيون ليثفد السلطان صلاح الدين الأيوبي .

وحالف التوفيق « سالم الحلبي » ورحاله من الفرسان ، واعوانه من سكان القرى والمزارع ، فصانوا حدود سورية الجنوبية وحافظوا على

مياه الينابيع والفدران في تلك المنطقة ، وسيطروا على المنافذ المؤدية من الجنوب الى الشمال ومن الشمال الى الجنوب .

وفي معركة حطين ، قتل سالم الحلبي فلحق بأخى زوجته الذى قتل من قبل في مرج عيون ..

مات سامر الأسير ولكن بعد أن انقذ السلطان من الموت .. ومات سالم الحلبي ، ولكن بعد أن أدى الأمانة وصان الحدود .

واراد صلاح الدين أن يكافئ خديجة أخت سامر وزوجة سالم، وأن يخصص لها مكانا في قصره بين نساء أسرته .. ولكنها رفضت شاكرا وآثرت العودة الى الأماكن التى حاربت فيها وجاهدت مع زوجها وأخيهما ..

وكان لخديجة أربعة أبناء ، شبوا وكبروا وظل الناس مدة من الزمن يسمونهم « أبناء حراس الحدود »



ضرب صلاح الدين الأيوبي مضاربه في السهل المنبسط بين البحيرة والجبل ورتب جيشه للقتال ، واستعد للقاء العدو في اليوم التالي لقاء لا بد أن يسفر عن نتيجة حاسمة : فاما أن يهدم العرب في المعركة الفاصلة دولة اورشليم الصليبية ، واما أن يقضى على جيوشهم قضاء لا قيام بعده .

ودارت رحى القتال بين الفريقين فدارت معها الدائرة على الصليبيين . . ووقع الملك وقواده أسرى في أيدي العرب ، وعرفت تلك الموقعة العظيمة في التاريخ باسم موقعة « حطين » عند العرب وموقعة « طبرية » عند الأفرنج . .

وكان ذلك في الرابع من شهر يولييه سنة ١١٨٧ للميلاد الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة .

ولقى الملك الأسير وقواده من الملك ناصر صلاح الدين يوسف معاملة حسنة أطلقت سنتهم بالمديح والثناء . فان العرب لم ينزلوا عقابا بأحد الأبطال الذين حاربوهم في تلك المعركة . ولم يمسوا بسوء غير الأمراء الذين عرفوا من قبل بخروجهم على تقاليد الحرب المرعية في ذلك الوقت . .

وكان بين أولئك الذين عبس القدر في وجوهم ووقعوا في الأسر شاب من الأشراف يدعى « شارل دي بوفال » أسره صلاح الدين بنفسه في معركة حطين ، وهو يثب عليه منتضيا سيفه ، وحوله طائفة من فرسان العرب يحاولون عبثا القضاء عليه قبل أن يصل إلى مولاهم .

أراد صلاح الدين كعادته أن يتحدث إلى الأسرى بعد أن وضعت الحرب أوزارها إلى حين . فجاء ببعضهم إليه ، وبينهم البطل الفرنسي الذي أوشك أن يفتك بسيد أبطال العرب في المعركة .

ودعاه صلاح الدين إلى الجلوس فقال الفارس الفرنسي :

— إذا كنت أيها المولى تدعوني إلى الجلوس شفقة منك على لائى جريح ، فاعلم أن الجرح الذى أصابنى لا يمنعنى من الوقوف . واننى لو افلت اليوم من الأسر لعدت غدا إلى الميدان .

فابتسم صلاح الدين وأجاب :

الآن فقط تذكرت أنك جريح أيها الجندى الشجاع . وما دعوتك

الى الجلوس الا لائنى ذكرت فعالك فى المعركة ، أما الآن فاننى أنهض من مجلسى احتراماً لجرحك وأدعوك الى أخذ مكانك بجانبى .

فصق الفرنسى امام ذلك الخلق النبيل ، وجلس صامتا ينظر الى ذلك الملك العظيم .. الذى يعرف قدر الأبطال ويضع احترامهم فوق كل اعتبار .

وقال صلاح الدين :

— هل تفكر من الآن فى الهرب من الأسر ولم تمض بعد عليك أيام فى هذه القلعة ؟

— نعم افكر فى الهرب ولن أقطع على نفسى عهداً بالبقاء هنا ..

— ألا تعتقد ان قومك سيفدونك مع من يقدونهم من الأسرى ؟ .

— لأرغب فى ذلك بل أعرف كيف أفلت منكم دون أن يفدينى أحداً ..

— اليس لك فى صفوة الافرنج احد من اهلك .

— لى اخ يلبس ثوب الرهبان فى مستشفى القديس يوحنا بالقدس .. وهو من رهبان « الاوبتال » الذين يخدمون المرضى ويواسونهم ولا يرفضون لهم رغبة ايا كانت ، ولا يردون لهم طلباً مهما بلغت خطورته . ولئى ايضا ..

— ولك ايضا ؟

— خطيبة .. فتاة فرنسية تدعى « جنيف » رافقتنى من بلادى الى هذه الارض المقدسة . وقد تعاهدنا على ان نعقد زواجنا فى اورشليم . واتفقنا على ان تدخل الفتاة الدير او تنصرف الى مواساة الجرحى فى مستشفى القديس يوحنا اذا شاء الله ان أسقط فى المعارك قتيلاً . هذان هما الشخصان الوحيدان ، اللذان يهمنى امرهما فى صفوف الافرنج . والآن ، بعد ان عرفت منى ماتريد ان تعرف أيها المولى ، مر رجالك ان يعودوا بى الى سجنى .

أصفى صلاح الدين الى الشاب دون أن يأتى بحركة أو تبدو منه اشارة ، ثم أمر رجاله بان يعودوا به الى سجنه، وقال له وهو يهم بالانصراف :

— سوف تغير رأيك فينا يا هذا ، وسوف نعلم من ناحيتنا اذا كان
ماتقوله عن جماعة « المستشفى » صحيحاً ام لا ..

وفي مساء يوم من ايام الشتاء ، طرق باب مستشفى القديس يوحنا
في القدس الشريف ، رجل عليه ثياب الحجاج النصارى ويده عسكاز
يتوكأ عليه ، وقد علق فيه ما يحمله الحجاج عادة من ماء وزاد .

فتح له الراهبان باب المستشفى ، وكان صلاح الدين قد امر
بإبقائه في القدس ولم يتعرض للراهبان المقيمين فيه ، وسمح للحجاج
النصارى بان يترددوا عليه متى شاءوا . فدخل الغريب وطلب من
الراهبان ان يضيفوه ويعالجوه من مرض يشكو منه

رحب به الجماعة وانزلوه في حجرة دافئة ، وخصصوا لخدمته
واحدا منهم . وبعد ان استقر الرجل في الحجرة ، خاطب الراهب
قائلاً :

— يقولون انكم لاترفضون لريض طلبا وانكم تجيبونه الى
جميع رغباته ..

— هذا صحيح ايها الاخ العزيز ..

— اذن ارجب اليكم في أن تعهدوا الى الاخ دى بوفال في خدمتي ..

— الاخ ايف دى بوفال ؟

— هو بعينه ...

— سيكون لك ماتريد ايها الاخ العزيز ..

— وأن تعهدوا الى فتاة ممن يواسين المرضى في الجناح الخاص
بالنساء في أن تجيئني كل يوم بما يلزمني من ماء ..

— ولكن النساء يقمن بخدمة النساء المرضى فقط

— اما قلتم انكم لاترفضون لاحد طلبا ؟

— سيكون لك ما تريد ايها الاخ العزيز !

— ولتكن الفتاة المريضة جنيف .

— سيكون لك ماتريد ايها الاخ ..

وحمل الراهب الى رئيس الجماعة رغبة الغريب المزدوجة فامر

بان يعهد الى الاخ « ايف دى بوفال » فى السهر عليه وخدمته . والى
المرضة « جنفيف » فى حمل الماء اليه كل يوم ثلاث مرات .

مضى اليوم الاول دون أن يتناول المريض الغريب طعاما ومضى
اليوم الثانى دون أن يدخل فى جوفه غير الماء

وكانت الممرضة والممرض يلحان عليه بأن يتغذى رفقا بصحته ، ولكنه
ورفض بكثير من العناد ، قائلا ان هناك شيئا واحدا يرغب فيه ولا
يرغب فى سواه ..

— وما هو ذلك الشيء ؟ قل .. وسوف نجيتك بما تريد ..
لقى عليه ايف دى بوفال هذا السؤال عشر مرات

وألقته عليه الممرضة جنفيف عشر مرات أيضا .. وأخيرا ، قال
الغريب بعد تردد ، ولسانه يتلعثم :

— أريد أن أتناول غذائى لحمًا مشويًا !

— المسألة بسيطة أيها الأخ العزيز !

— ولكن على شرط ..

— تكلم ..

— انكم تدعون أن المريض هنا لايرفض له طلب ..

— ونؤكد لك ذلك . اما أجبتك الى جميع رغباتك الى الآن ؟ قل
ماذا تريد أيضا ؟

— عند الرئيس الاعلى لجماعتكم جواد عربى أصيل ..

— نعم . جواد يحبه الرئيس كثيرا ولا يتخلى عنه مقابل كنوز
العالم بأسره ..

— حسن جدا .. فانا أريد أذن أن آكل اليوم قطعة لحم مشوية
من فخذ ذلك الجواد !

— انك تطلب شيئا عزيزا ... غير معقول أيها
الأخ .. !

— اما قلت انكم لا ترفضون لمريض طلبا ؟

— سأعرض الأمر على الرئيس نفسه !

— أسرع واعرض عليه هذه الرغبة . وقل له اننى ان اتناول طعاما ، واننى سامت عن الغذاء الى أن يدركنى الموت جوعا اذا لم يجبنى الرئيس الى طلبى ويلدح جواده من أجلى .

وبعد ساعة من ذلك الحديث بين الغريب والراهب ، عاد ايف دى يوفال ومعه الفتاة الممرضة الى حجرة المريض ، وقال له :

— ان الرئيس يجيبك الى طلبك ، وقد امر بلدح الجواد فى الحال ، واذا نظرت من هذه النافذة فانك ترى الرجال يسرعون الى مسرط الخيل للقيام بهذه المهمة .

حينذاك نهض المريض الغريب ووثب الى النافذة صائحا بالقوم :

— قفوا ولا تدبحوا الجواد فقد عدلت عن رغبتى !

ثم نزع عن نفسه ثوب الحجاج النصارى ، فبدأ فى ثوب عربى زاهى الألوان ، وارتسمت امارات الدهشة على وجهى الراهب والفتاة . فقال الغريب :

— ان الرجل الذى يخاطبكما الان هو صلاح الدين الايوبى . وقد اردت ان اعلم بنفسى صحة مايقال عن جماعتكم وعن عنايتكم بالمرضى والجرحى والاغراب ، فعلمت الآن ماكنت راغبا فى علمه !

وتناقل النصارى فى القدس خبر زيارة صلاح الدين لمستشفى القديس يوحنا متنكرا . وحمل الحجاج معهم الى اوروبا ذلك الخبر عن « سلطان المسلمين »

اما الملك الناصر ، بطل حطين وقاهر لوسينيان وهادم مملكة الصليبيين الاولى ، فقد عاد من القدس الى الحصن الذى حبس فيه شارل دى يوفال فى بلاد الاسماعيلية . وعلى اثر عودته ، ارسل فى طلب الاسير ودار بين الرجلين الحديث الآتى :

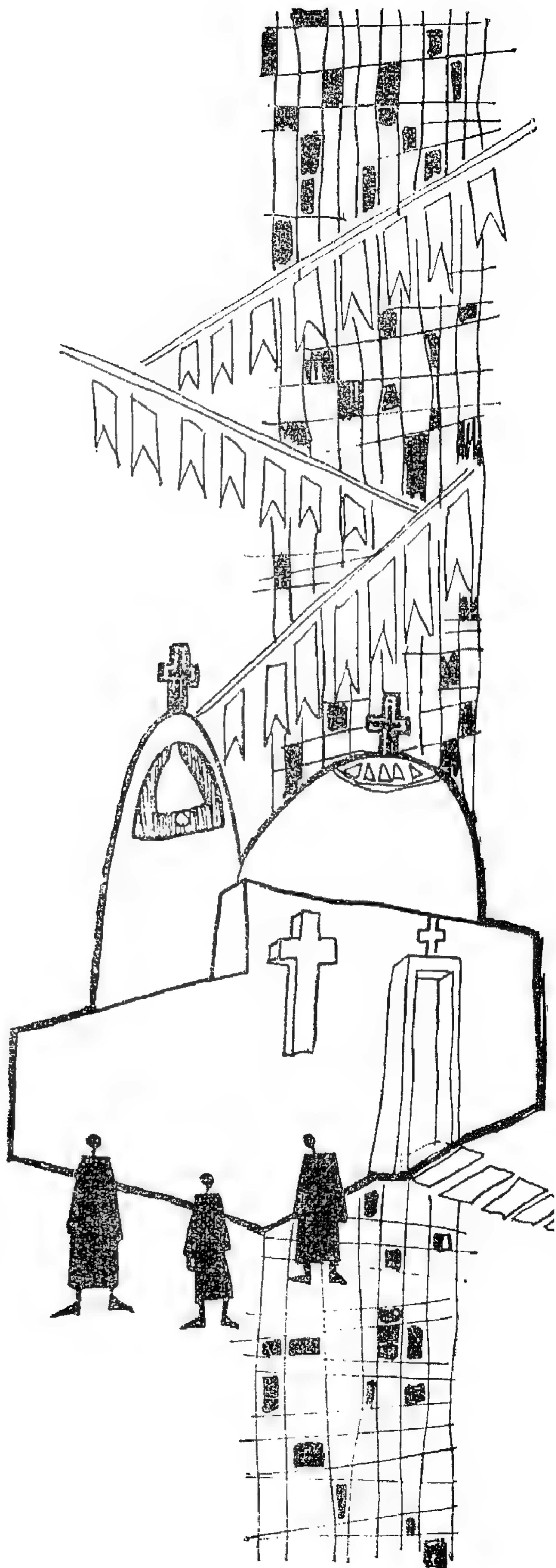
— ايها الفارس الشجاع . اننى فى حاجة الى واحد من رجالكم لقضاء مهمة يتعذر على رجالى قضاؤها . فهل تكون لها أنت ؟

— اذا كانت المهمة لخير ابناء قومى فاننى لها . واذا كانت لخير قومكم فاننى ارفض القيام بها !!

- انها لخير الفريقين معا ..
- يمكنك اذن ان تعتمد على ..
- سأعطيك رقعة مختومة أحرم عليك الاطلاع عليها في الطريق
- حسن ..
- وستذهب بتلك الرقعة الى بيت المقدس
- سأذهب ..
- وتسلمها الى رئيس جماعة «الأوبتال» في مستشفى القديس يوحنا ..
- سأفعل ..
- نحن الآن على مقربة من موسم الأعياد عندكم ، فبعد عشرة ايام يحتفل النصارى بعيد ميلاد السيد المسيح ..
- هذا صحيح ..
- يجب اذن أن تكون في بيت المقدس ليلة العيد . وبعد أن تقضى المهمة وتؤدي الأمانة الى صاحبها ، تصافح اخاك وتـرى خطيبـتك ..
- اننى اثق بكلامك أيها المولى واصدق أن المهمة التى اتولى القيام بها فيها خير ومنفعة لقومك . أما اذا كان الأمر غير مذكـرت ، فاننى أعد نفسى فى حل من كل عـدد ..
- اذهب ! ..

دفع شارل دى بوفال الى رئيس الجماعة الرسالة الخطية التى أخذها من صلاح الدين . فقرأ الرئيس هذه الكلمات باللغة اللاتينية :

« يشكر صلاح الدين يوسف رئيس جماعة المستشفى على حسن ضيافته . ويهنئ الراهب ايف دى بوفال على تفانيه فى خدمة المرضى . ويعيد الى الممرضة جنيف خطيبها شارل دى بوفال . ويرجو ان تتقبل من « سلطان المسلمين » هذه الهدية - هدية العيد ! .. »



كانت ليلة ممطرة حالكة السواد كثيرة البرق والرعد ، وكان
المسيحيون الباقيون في « بيت المقدس » بعد سقوطه في يد صلاح الدين
الاولى ، يحتفلون بعيد الميلاد ، للمرة الاولى ، في ظروف تكتنفها الكآبة
وجو لاتجارب فيه دقات الاجراس ورنات النواقيس
وكان البرد شديد الوطأة على المساكين المعوزين ، الذين حرموا
من الشباب الواقية ووسائل التدفئة .

جلس « جرفيه » وزوجته « تريز » وابناؤهما الاربعة على
حصير ، حول كومة من الحطب اشتعلت فيها النار ، وارتفع منها
الدخان فملا أرجاء البيت الحقيق ، المؤلف من ثلاث حجرات ضيقة
عاشت فيها تلك الاسرة الافرنجية أعواما كانت مفعمة بالسعادة
والخير والهناء ، ثم ما لبثت ان حل بها الفقر والبؤس
والشقاء ..

وراحت تريز - وقد انقبض صدرها ، وامسكت عن الكلام مخافة
ان تغلبها العبرات - تنظر الى زوجها بعينين يرتسم فيهما القلق والجزع
ولسان حالها يقول : « اى طعام نقدم لهؤلاء الصغار غدا ، ليلة
عيد الميلاد ؟ »

وكان الرجل قد فهم من نظرات امراته ما تريد
منه ، فغمغم قائلا :
- وا أسفاه ..! انى لن استطيع ان اقدم لهم شيئا ، الا بمعجزة
او بجريمة !



كان « جرفيه فوريل » جنديا في صفوف الافرنج ، وقد بتت
ساقه على اثر جرح عميق ، فهجر مدينة طرابلس التى عاش فيها
وانتقل الى « بيت المقدس » حيث عرف باسم « جرفيه مقطوع
الساق » وعين حارسا فى احدى الكنائس فحرم الرجل من عمله ،
بعد استيلاء صلاح الدين على مملكة اورشليم وعاصمتها ، واصبح
عاجزا من ضمان القوت لأولاده وزوجته ، فذاقت الاسرة انواع
الحرمان وعرفت الجوع كيف يكون ..

وفى تلك الليلة السوداء ، التى كان فيها الرجل والمرأة والاولاد
يفكرون فيها كيف يقضون العيد ، ومن اين ياكلون ، شعر « جرفيه »
التقى الورع بالشكوك تنساب الى نفسه ، وتكاد تززع ايمانه فتمتم مرة
اخرى : « معجزة .. او جريمة ! »

فانتفضت الزوجة التى لم ينل الفقر من ثقتها بالله واستجمعت
قواها وقالت بلهجة ثائرة : « لنلجأ الى الصلاة يا جرفيه ، فان السيد

المسيح الذى نحتفل غدا بذكرى ميلاده لن يتخلى
عنا .. ! »

فى اللحظة ذاتها وفى بيت مجاور ، كان صوت آخر يقول أيضا :
« لنلجأ الى الصلاة .. فان الله لن يتخلى عن خادمين هسرمين
مثلنا .. ! »

المتكلم رجل احنى الاعوام ظهره وأطفأت بريق عينيه وجعدت بشرته
واضعفت صوته ، فهو فى السادسة والثمانين من العمر ، واسمه
« فوشيه فيول » ولد فى اورشليم حوالى ١١٠١ للميلاد . اما رفيقه
الذى يصفى اليه ، فهو رمة بشرية اخرى ، يرزح تحت عبء جيسل
كامل ، اذ انه يبلغ المائة او اكثر ، واسمه « روبير دى كوربى »

كان هذان الشيخان المتهدمان يعيشان معا فى بيت واحد ،
ويخدمهما جندى قديم ، يبذل مجهودا جبارا للقيام بأودهما والسهر
على راحتهما ..

اما فى تلك الليلة ، فان فوشيه فيول ورفيقه يشهران بيأس لامل
بعده يستولى عليهما ، وبحزن مميت لايعتقدان ان فى وسعهما احتمال
فقد مات الجندى الطيب القلب ، الذى غمرهما بمطفه واحسانه .. مات
محقوقا بحجر ضخيم ، سقط عليه وهو يجتاز باب الملك
داود ! ..

اصبح الشيخان وحيدين ، لاسند لهما فى الحياة ولا معين ، ولا امل
لهما فيها ولا رجاء ، وقد حط عليهما الدهر باثقاله ، فقررا ان يستقبلا
الموت ، فى اليوم الذى ولد فيه يسوع ابن مريم ..

وردد فوشيه فيول قائلا لرفيقه :

« لنلجأ الى الصلاة باروبير ! »

وطلعت الشمس فى اليوم التالى وهاجت نيرة ، ففمرت باشعتها
المنعشة المدينة المقدسة فقد تبددت الغيوم من الفضاء ، ولكن الامطار
التي تساقطت فى الليلة السابقة ، حولت الازقة الضيقة الى مستنقعات
وظل النصارى قابعين فى بيوتهم ، وقد حرموا من زعمائهم
ورؤسائهم وكهنتهم ، وفعلوا جميعا ما فعله فوشيه وروبير وجرفيه
وزوجته ، فلجأوا الى الصلاة ، موثل المؤمنين من كل جنس
ودين ، وعزاء المنكوبين فى كل ظروف وحين ! ولم تشهد بلدة « بيت
لحم » فى ذلك اليوم ، تلك المواكب التى كانت من قبل تفد عليها من
جميع انحاء المملكة الصليبية ، للاحتفال بالميلاد ، فى كنيسة الميلاد



صلاح الدين الأيوبي

في ذي القرويين

وفى صباح اليوم ذاته ، كان صلاح الدين يوسف الايوبى يعتد
مجلسا من خيرة أخصائه والمقربين اليه ..

ولكن هذا المجلس لم يطول ..

فان السلطان اصدر اوامره بسرعة الى جلسائه . ثم التفت الى
اخيه الملك العادل سيف الدين الذى قال ، بدون ان ينتظر السؤال :
« كل شئ قد تم »

فنهض صلاح الدين ، وتبعه رفاقه ..

وفى مساء ذلك اليوم ، اقدم الرجل الذى هزت انتصاراته العالمين
فى الشرق والغرب ، والذى كان عظيما فى حربه ، عظيما فى سلمه ،
على عمل نبيل ، تجاه المسيحيين الحزائى المكومين ، لم يذكر التاريخ
له مثيلا ، من قبل او من بعد !

فقد سار السلطان صلاح الدين الايوبى ، فى مياه الازقة واوحال
الطرق ، يبحث عن النصارى الافرنج القابعين فى عقر بيوتهم
والذين لم يفندهم اهلهم فوجدوا انفسهم فى ضنك شديد ، حاملا
اليهم تهائنه وهداياه ..

كان يطرق الابواب ، فتفتح صارخة على رزازها ، ويبدو التسويح
والنساء من ورائها خائفين مرتاعين او يطل الاطفال من الطاقات والنوافذ
مدعورين باكين . ثم تعود الطمانينة الى نفوسهم فيستقبلون الوافدين
ويتقبلون منهم الهدايا من مأكلا وملبس ومال

ولم يكن اولئك الوافدون غير السلطان ورفاقه ، وقد راحوا
ينشرون القبضة والسعادة والرخاء ، فى بيوت النصارى بأورشليم
ليلة عيد الميلاد ..

كان روبر دى كوربى وفوشيه فيول وجرفيه فوريل وزوجته
والاولاد الاربعة ، قد اجتمعوا فى بيت الشيخين المقعدين ، وعولوا على
قضاء ليلة العيد معا ، يحاولون نسيان الجوع بتبادل كلمات التشجيع
والعزاء ..

ظل جرفيه « مقطوع الساق » يردد : « معجزة .. » ولكنه لا يضيف
قائلا : « أو جريمة » ..

كان هاتفا يهتف به بأن المعجزة ستتم ، وان السيد المسيح لن
يتخلى عنه !

وتمت المعجزة !

فقد صرح صوت بالببب قائلا :

« عيد سعيد يا قوم ! » وانتفض الجميع مذهولين .. وكسرر
الصوت تهنئته « عيد سعيد يا جرفيه ، يامقطوع الساق »

صباح جرفيه بصوت اراد ان يجعله حازما :

— من انت ؟

— صلاح الدين !!

كان لذلك الاسم رنة غريبة ، في ذلك البيت المسيحى القديم
التهدم ، فنظر القوم بعضهم الى بعض ، وهم لا يفهمون ، او لا يريدون ان
يفهموا ..

ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا الحقيقة — الحقيقة الواقعة الرائعة :
صلاح الدين ، السلطان الفاتح ، جاء يقضى مع الشيخين وجيرانهما
سهرة عيد الميلاد ! ..

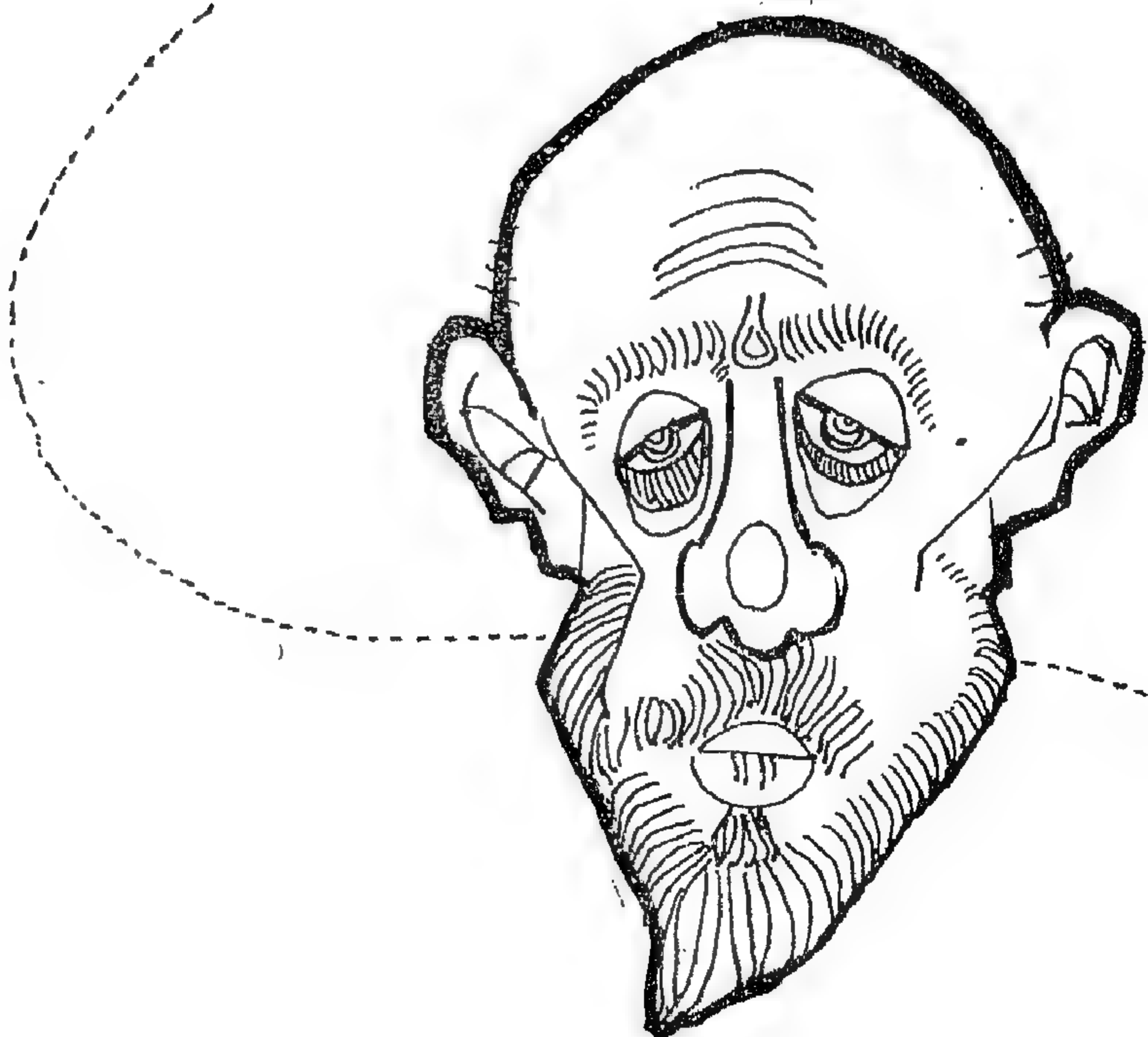
كانت تلك السهرة فاتحة حياة جديدة لروبير دى كوربى وفوشيه
فيول ، وجرفيه فوربل وتريز وأولادهما الاربعة .. فقد أمر صلاح
الدين بان تترك لهم جميعا حريتهم التامة في بيت المقدس . وان يصرف
لهم معاش من خزينة السلطان الخاصة ..

ويقول المؤرخون الافرنج ان روبير دى كوربى عاش مائة وثمانية
اعوام ، وان فوشيه عاش مائة عام . اما جرفيه مقطوع الساق ،
فقد رحل عن بيت المقدس عندما بلغ ابناؤه سن الشباب ، وقضى بقية
حياته في عاصمة الامارة اللبنانية الصليبية السابقة : طرابلس ..

وظل اولئك الناس يذكرون في صلواتهم اسم الملك الكريم الذى
عطف عليهم في محنتهم ، وواساهم في عزلتهم ، كما ظل عمل صلاح
الدين في تلك الليلة ، حديث الاجيال والاحقاب !

بالله

العين



للمرة العاشرة أقام العرب كميناً على طرابلس وحاصروا أسوارها
وهاجموا قلاعها .. وللمرة العاشرة صمدت لهم حاميتها ،
وامطرتهم وابلا من السهام والنبال والحجارة ، وردتهم عن المدينة .
فعادوا على أعقابهم لكي يجمعوا شملهم ، ويضاعفوا عددهم ومعدانهم ،
ويعيدوا الكرة من جديد على الحصون المتمردة ..

كان ذلك في سنة ٥٨١ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٥ للميلاد .
فأقسم يوسف صلاح الدين الأيوبي ألا يظل على رأس السلطنة المحترقة
والشامية أكثر من سنتين ، إذا استطاع الأفرنج أن يحولوا بينه وبين
الاستيلاء على معقلهم في تلك الدار ، وتدمير مملكة أورشليم التي
أنشأها الصليبيون وظلوا محتفظين بها منذ عهد قائدهم الأول
جودفروا دي بويون ..

وعزم السلطان قبل كل شيء أن يبذل جهده ، ويحصر قواه ، في
الاستيلاء على مدينة طرابلس أو عزلها ، وهي الرابضة في سفح لبنان
الشمالي ، الفاتحة أحضانها للسفن القادمة من الغرب ، المحاطة بسلسلة من
الأسوار القائمة والأبراج الشاهقة والآجام المنيع ، تعلوها جبال
لبنان الشامخة ..

وكان يحكم طرابلس ويقود الأفرنج هناك في ذلك الوقت فارس
من فرسانهم الأشاوس ، يعرفه العرب باسم « القومس التولوزي »
وابناء قومه باسم « ريمون الخامس كونت دي تولوز » .

أوفد الكونت الى وطنه رسولا امينا لطلب النجدة والمعونة من
أخوته واعمامه ، فلبوا النداء واجابوا الطلب .

وعاد الفريقان - العرب والأفرنج - الى الكر والفر والهجوم
والدفاع ، فاستحالت تلك الربوع الفيحاء والجبال الوعرة الى ميدان
واسع الأرجاء ، يتطاحن فيه رجال الحرب وجبايرة الباس وبتقاتلون
وقد أشرف عليهم ملك الموت من أعالي تلك القمم ، ورفرف
بأجنحته السوداء على المجزرة ، وبيده المنجل الحاصد يتناول
به الأرواح ويختطفها !

في ذلك الوقت ، كان يقيم في كهف منحوت في الصخر الأصم ، في ظلال
أشجار الأرض الباسقة ، وفي رعاية أغصانها الخضراء ، ناسك متعبد
أثقلت السنون كاهله وأحنت رأسه وكتفيه ، وغطت الشعور البيضاء
وجهه وعنقه وصدره كما تغطي الثلوج في الشتاء رؤوس لبنان وهضابه
وسفوحه .

لم يعرف احد من امره شيئاً ، ولم يستطع احد ان يرفع طرفاً من الستار الذى اسدله الرجل على ماضيه ، فاطلق عليه الرعاة والخصيادون والفلاحون الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة الوعرة ، اسم « الناسك » مجرداً من كل لقب وتعريف ..

وانتشر ذكره فى الآفاق وذاع صيته فى البلاد ، فصار الناس يقصدون اليه على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم ، المسلم يسابق النصرانى والنصرانى يزاحم المسلم ، للتبرك بلثم يديه والتوسل اليه بان يكون واسطة بينهم وبين الله عز وجل ، لتحقيق أمنية او دفع مرض او ابعاد خطر .. !

وكانت تاتى اليه مرة فى الاسبوع فتاة بارعة الجمال ، طويلة القامة قوية البنية ، ممتطية صهوة جواد اصيل ، يصحبها دائماً فارس من فرسان ريمون دى تولوز ، فتقضى عنده سحابة نهار ، ثم تعود مع الفارس رفيقها الى طرابلس حيث كانت تقيم .

من هى تلك الفتاة ، واية صلة تربطها بذلك الناسك المتعبد المعتزل فى صومعته ؟

اسمها « مارى تريز » ولا يعرف احد اسم الاسرة التى تنتمى اليها .. وكل ماوصل الناس الى معرفته عنها انها وصلت ذات يوم وحيدة ، ماشية على قدميها من مكان مجهول ، وذهبت الى الكونت ريمون دى تولوز صاحب طرابلس ، وطلبت اليه ان يحتفظ بها فى قصره بين النساء الكثيرات اللواتى كن يعشن فيه ، بعد ان فقدت اباهما فى الحرب

قالت له انها من أسرة فرنسية شريفة عريقة ، وانها جاءت الى الارض المقدسة مع ابيها .. وفاء لنذر وقياما بواجب الحج الى بيت المقدس . وبعد ان اديا الفريضة اراد الاب ان ياخذ نصيبه من القتال فلقى حتفه فى الميادين ..

حظف الكونت ريمون عليها ، وجعل لها مكاناً فى قصره بين مثيلاتها وهن كثيرات ، ومنذ ذلك الوقت - اى منذ سنة ١١٧٥ - اقامت الفتاة فى داخل المدينة ، وسمح لها الكونت بان تخرج مرة فى الاسبوع فى صحبة احد فرسانه لزيارة ذلك الناسك الذى حدثته عنه كثيراً ، والذى بلغت أخباره مسامع الكونت الشريف ، فأراد أن يتقرب منه ويتحقق بنفسه من صحة ما يشيعه الناس عن صاحب الكهف فى ظلال الارز ..

ظلت الامور سائرة على هذا المنوال عشر سنوات . فالفتاة تذهب الى الصومعة مرة فى الاسبوع . والكونت يصحبها اليها من وقت الى

آخر . وشهره الناسك تنتشر يوما عن يوم وصيته يجتاز الهضاب والجبال والسهول ويتسع مع مضي الوقت .

وفي صبيحة يوم من أيام الشتاء الباردة في سنة ١١٨٥ للميلاد ، وقد على قصر الكونت ريمون دي تولوز راع لبناني طلب المثل بين يدي صاحب طرابلس قائلا ، انه يحمل اليه رسالة من ناسك الارز ولما دخل الراعي على الكونت حياه باسم الناسك رقال : ..

— ان القديس الذي نحترمه ونجله جميعا قد اوفدني اليك يامولاي لكي افضي برغبة قد تكون اخر رغباته : انه يطلب منك ان تذهب اليه اساعتك ، ومعك الفتاة ماري تريز . يريد منك ان تكون عنده الليلة لانك او وصلت الى صومعتي غدا فقد لاتجده فيها حيا .!

نهض الكونت ريمون دي تولوز من مقعده مضطربا وأسرع الى الفتاة فنادها من حجرتها . ثم امر كوكبة من فرسانه باللاحاق به . وتوجه الجميع الى غابة الارز ..

قال الناسك الشيخ بصوت متهدج ضعيف :
— مولاي . لقد آن الاوان لكي اطالعك على حقيقة امري واكشف لك الستار عن ماضي وسر حياتي . انني اشعر بدنو اجلي . ولن تمر ساعات معدودة حتى تكون النفس قد فارقت مني الجسد صاعدة الى خالقها في ملكوته .. مولاي .. اصغ الى الكونت « هنري دي مونفور » الذي يحدثك ..

— هنري دي مونفور ؟

نعم .. هنري دي مونفور .. لا يدهشك ذلك يا مولاي .. انكم تعتقدون جميعا ان ذلك النبيل الفرنسي الذي جاء الى الارض المقدسة مع ابنته على اثر وفاة زوجته واخته وابن اخيه في ليلة واحدة ، قد قتل في الحرب حيث اندفع يائسا الى الموت ، وجعل نزج بنفسه في مواطن الخطر عن عمد وقصد ..

— نعم .. هذا مانعتقده جميعا ..

— انكم لاتعرفون الحقيقة ... لم يميت هنري دي مونفور ، وهو الذي يحدثك الان ياريمون دي تولوز ..

سكت الشيخ هنيهة ثم استطرد قائلا :
— كنا عائدبن من القدس ووجهتنا ساحل لبنان . وكان عددنا نحو

عشرين رجلاً وثلاث نساء ، منهن ابنتي ، فداهننا كمين في غابة كنيمة
ودارت بيننا رحي القنال ودارت معها الدائرة علينا . وفي أثناء القتال
أخذت عيني رجلاً من رجالنا رافعا فاسه لكي يجهز على جريح غارق
في دمه . فأسرعت اليه وحلت بينه وبين ما كاد يفعله . وقلت للجريح:
« لا تخف .. لن تمتد اليك يد بسوء مادمت على الأرض جريحا » وبعد
المعركة ، عندما تغلب الأعداء علينا وساقوا أمامهم الأحياء منا أسرى
في القيود يرسفون ، ذهبوا بنا الى قائدهم وسيدهم ..

— هل عرفت اسمه ؟

— الأمير غائب الشهابي .. وهو ينتمي الى الاسرة العربية التي حلت
من مدة قصيرة في « وادي التيم » وبسطت سلطانها على ذلك الاقليم
الحصين ..

— اعرف هذا الأمير واعلم انه نبيل شجاع ..

— نعم .. لقد اثبت ذلك بالادلة والبراهين ..

— اتم قصتك يا اخي ..

— جئ بنا الى ذلك الأمير ، فاذا بي امام الجريح الذي انقذت
حياته في حومة القتال !

— اما قلت له ذلك ؟

— عرفني قبل ان افوه بكلمة ، وما وقع نظره على حتى سساح
يقومه « فكوا قيود هذا الرجل واعيدوا اليه حريته ! » حينذاك أدركت
انني امام بطل من اولئك الأبطال الذين يمارسون الشهامة في الحروب
فقلت له : « انك تعيد حرتي ايها المولى لانني انقذتك من الموت في اثناء
المعركة . لكنني ارفض عفوك هذا واطلب منك — اذا كنت ترغب
في معاملتي بالمتسل ومقابلة المعروف بالمعروف — ان تطلق سراح ابنتي
الاسيرة وتعبدوها الى الحياة الحرة . اما انا فانسى اثر البقاء في الاسر
على ترك ابنتي مقيدة بأغلاله ! »

— وماذا قال لك .. ؟

— نظر الى بعينين كأنهما جمرتا نار تقدحان وسط غابة من الشعر
وقال : « اننا لانتفض بالنساء مادما نفرج عن الرجال . فاذهب مع
ابنتك ، انك لجدير بان اعاملك هذه المعاملة ، لانك كنت في ساحة القتال
عدوا شريفا وبطلا نبلا .. فبسطت له يدي فصافحها وقال : « اذهب » .

فقلت له : « لقد انقذت حياتك فقط ، اما انت فقد قابلت
ذلك بتعمتين وانقذت من العبودية والاسر حياتين . فلا أزال اذن مدينا



أرز لبنان فوق الجبال التي أقام النساك في مفاوزها

لك بفضل ومعروف « فاجابني : « اذا كنت تريد الا اطالبك يوما من
الايام بوفاء هذا الدين ، فاقسم بايمانك امام هؤلاء الابطال على اجتناب
الحرب بعد الان .. واقطع على نفسك عهدا بالا تشهر في وجوهنا
سلاحا .. »

— وهل فعلت ذلك .. ؟

— نعم ... كان لابد لي من قطع ذلك العهد والقيام بذلك القسم
.. فاقسمت وتعهدت . ومنذ ذلك الوقت عازمت على قضاء ايامي
الباقية في صومعة منعزلة ، في اعالي هذه الجبال ، بعيدا عن
الناس .. وعن الحرب !

— وابنتك ؟

— ابنتي ؟ .. اما عرفتها بعد يا اخي ؟ لقد لجأت اليك فاضفتها
وهي تقيم في قصرك منذ عشر سنوات !

— ماري تريز ؟

— ماري تريز ، نعم .. لقد برت بوعدھا ولم تبج لآخذ باسمھا
ولم تقل امام احد ان الناسك الذي تزوره مرة في الاسبوع هو والدها
الكونت دي مونفور ! ..

ضمت الابنة البارة راس ايها بين ذراعيها واجهشت بالبكاء . فجعل
الشيخ يداعب جدائل شعرها بيديه المرتعشتين ، وقال :

— اننى راحل عن هذا العالم يا ابنتي ، لكننى ارحل هادىء البال
مرتاح الضمير ، مطمئنا من نحوك .. اننى اتركك في رعاية سيد
قوى الجانب عالى الهممة واسع الصدر كثير الرحمة نبيل الشجور
... انك تفقدين اباك ، ولكنك تجددين في ريمون دى تولوز ابا واخا
وحاميا ونصيرا ..

ثم التفت الشيخ الى الكونت ، ويده ملف من الاوراق تناوله من تحت
فراشه ، وقال :

— ان هذه الاوراق والوثائق ياريمون ، تثبت حق هذه الفتاة في ارث
ايها وفي لقب اسرتها .. فخذها واعد اليها ماتستحقه من مال وعزة
وجاه ...

وكأن الله اراد الا تفارق الروح جسدا ذلك الناسك الا بعد
ان ينتهى من سرد قصته ، وافشاء سره ، فانه ماوصل الى هذا الحد
من حديثه حتى خفت صوته فجأة ، وانتابته رعشة قوية فانتفض ومال
براسه على صدر الفتاة ..

بعد أن وضعت جثة الناسك هنرى دى مونفور فى كفنها ، ولقت فى لفاتها ، خرج الكونت ريمون دى تولوز والفتاة مارى تريز دى مونفور ومن كان يصحبهما من الفرسان ، من الكهف المظلم ..

وتنفيدا لرغبة سبق للناسك أن أفضى بها تركت الجثة فى داخل الكهف ، وردت الصخور على بابه ، وهيل عليه التراب ، ونثرت الأغصان والرياحين .

وظل الناسك مقيما فى كهفه بعد مماته كما كان مقيما فيه فى حياته ..

واستحالت الصومعة الى قبر ساكن ..

وفى سنة ١١٨٧ صعدت الفتاة مارى تريز الى غابة الارز ، وودعت اباهما الوداع الاخير ، قبيل رحيلها عن تلك الديار عائدة الى وطنها فرنسا ..

وفى ذلك اليوم الذى زارت فيه الفتاة قبر الناسك للمرة الاخيرة كان صلاح الدين الايوبى يجتاز اسوار اورشليم ويدخلها فاتحا منصورا وقد بر بقسمه واجتاح المملكة الصليبية ودمر حصونها ، قبل مضى سنتين على القسم الذى فاه به !

وكان ذلك فى سنة ٥٨٣ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميلاد ..

وفى سنة ١١٩٤ مات الكونت ريمون دى تولوز ، ودفن فى طرابلس المدينة التى حكمها ابائوه واجدادهم من قبل ، والتى دأب عندها دفاع الابطال ..

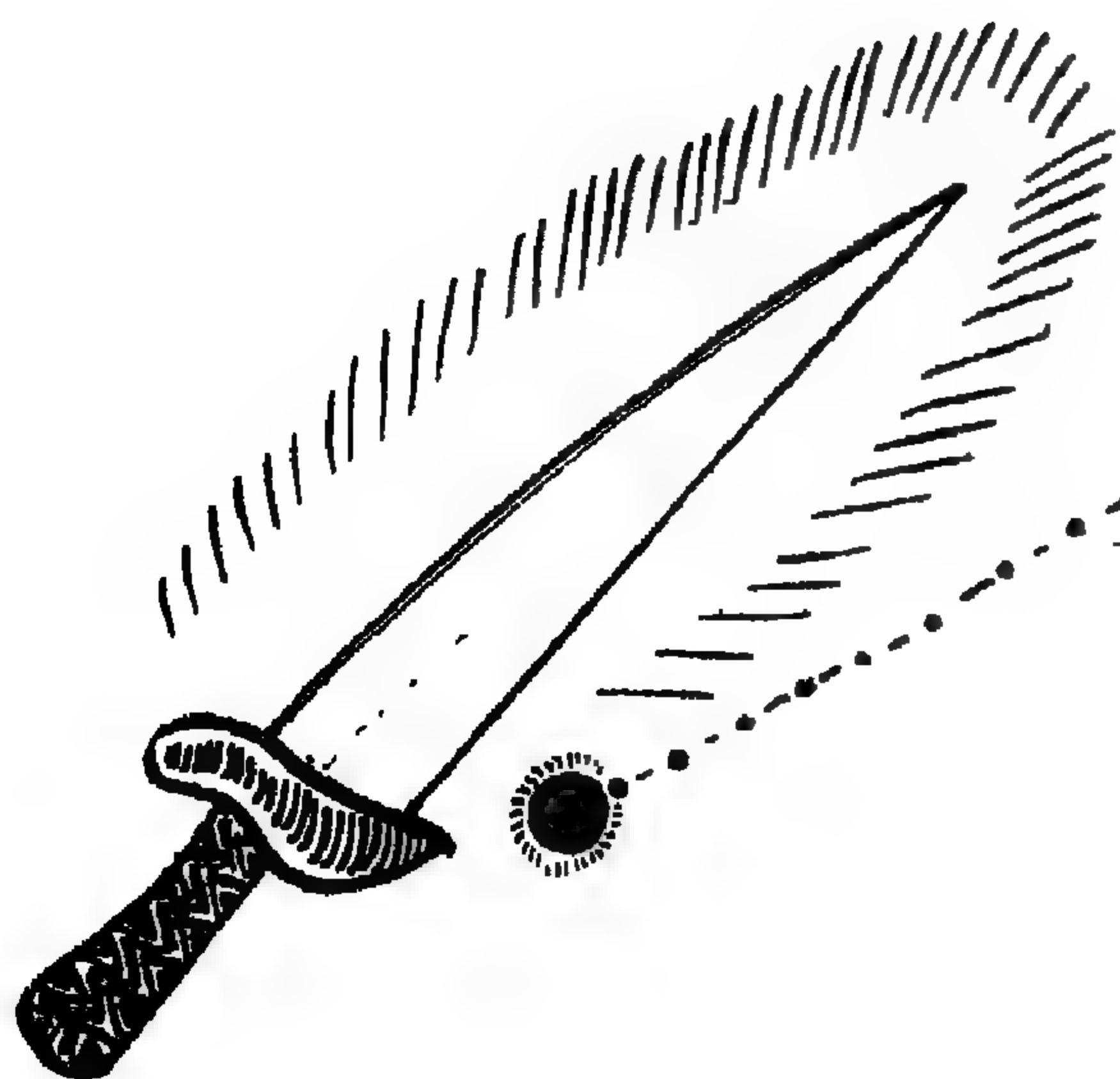
تلك هى قصة هنرى دى مونفور ..

وقد تناقلت الاحقاب من بعده تلك القصة الرائعة ، وجعل الرواة يضيفون اليها كل يوم جديدا ، ويغالون فى سردها ويبالفون ، حتى جاء يوم اصبح فيه الناس يعتقدون ان فى قبر الناسك كنزا ، وان ذلك الكنز لا يقدر بمال ! ..

ودفع الجشع بعضهم الى البحث والتنقيب ، من سواحل طرابلس الى غابة الارز ، لكنهم لم يعثروا على شئ ، ولم يكشفوا فى سفوح الجبال الا عن هياكل بشرية ، هى بقايا اولئك الناسك الذين كانوا يهرعون الى الصخور والكهوف فيتخذونها مسكنا لهم ، ويتفرغون فيها للصلاة والعبادة ، كما فعل هنرى دى مونفور ..

وقد يكون اولئك الباحثون المنقبون قد عثروا على جثمان «ناسك الارز» وبعثروا عظامه فى الوادى المقدس - وادى قاديشا ببلبنان - دون ان يعلموا السر الذى كان ذلك التقى الورع يضمه فى صدره .

الشيخ الفقيه



أصغى صلاح الدين باهتمام ممزوج بالقلق والانزعاج ، الى حديث
الفارس الكردي ، الذي جاء يروى له ماصنعتة عصابة المغامر الفرنسي
« جان ديلي » بالقافلة المحملة حنطة وجلودا ، والقادمة الى بيت المقدس
من السهول الشامية .

وكان كلما توقف الرجل عن الكلام طلب منه السلطان مزيدا
من التفاصيل . . . :

— اوضح ، اوضح يا عمر ، فلست اول من ينبئني باعمال ذلك
الغريب الجريء ، واعتقد انك لن تكون الاخير . . فافصح بقدر ماقي
جعبتك من اخبار عنه . .

— انه جبار عنيد يامولاي . . يقود شرذمة من الجبابرة العنيدين
. . يقطع الطريق على رجالنا ويهاجم قوافلنا غير حاسب حسابا للعدد
والعتاد . . وقد سلب منا ثلاثين جملا او اكثر باحمالها الثمينة ، واخذ
اربعة افراس اصيلة ، وانتقى من بين الاسلحة التي كنا نحملها سيوفا
ورماحا ، انتقاء العارف الخبير . .

— وكم قتل من رجالكم ، وكم قتلتم من رجاله ؟

— كانت قافلتنا مؤلفة من تجار يحرسهم عدد قليل من الفرسان
وكان الافرنجي على رأس اربعين من اشد المقاتلين اقدا . . وقد قتلنا
منهم خمسة ، واكنهم قتلوا منا عشرة رجال ، ولم يبق على قيد الحياة
من رفاقي الفرسان غير ثلاثة وانا رابعهم . .

وقبل ان يتم عمر الكردي وصف ماحدث للقافلة التي كان واحدا
من حراسها ، وفد على قصر السلطان بيت المقدس رسول يحمل
اليه خبرا اخر عن جان ديلي وعصابته :

فقد هاجم هذا الرجل كوكبة من فرسان البادية ، كانوا ايضا
في طريقهم الى بيت المقدس ، ومعهم قطيع من النوق السريعة هدية
من القبائل الشامية الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، اعترافا
منهم بفضله . .

وبلغ غضب السلطان اقصاه : فقد جاوزت اعتداءات ذلك الفارس
الغريب حدود المعقول . ولا بد من وقفها وتأمين الطريق بين المدينة
المقدسة واطراف الدولة الاسلامية التي وسع صلاح الدين شقتها
بانتصاراته الباهرة .

وشهد مقر السلطان مجلسا غريبا غير مالوف ، اشترك فيسسه
فريق من قواد الجيش العظام ، لا اوضع خطة حربية يراد بها غسزو
امارة صليبية او دك عرش من عروش الافرنج في ديار الشام ، بل مطاردة
جماعة من المغامرين لايزيد عددهم على بضع عشرات من الفرسسان ،
اقلقوا الدولة ونشروا في اطرافها الرعب والفرع .

وكان صلاح الدين الايوبي قد هزم جيوش الافرنج وسحقها في معركة
حطين في الرابع من شهر تموز - يوليو سنة ١١٨٧ للميلاد - الموافقة
لسنة ٥٨٣ للهجرة - واسترجع بيت المقدس ، واسر الملك « جى دى
لوسينيان » وعشرات من قواده ومستشاريه ، وبسط سلطانه على مملكة
« اورشليم » وعامل اعداءه بحلم ورفق أطلق السنتهم بالثناء والتقدير .
وكان كل همه ، بعد ذلك النصر العظيم ان يواصل العمل اثنى بسدا
به ، والرسالة التى اخذ على عاتقه تأديتها ، بالتفاوض والتفاهم اذا تيسر
له ذلك ، او بالحرب اذا تعذر الاتفاق السلمى .

وانسحب الصليبيون الى الشمال ، وانصرفوا الى تضييد ما اصابهم
من جراح ، وتوحيد صفوفهم بعد ما اصابها من تفكك ، واعادة الثقة
الى نفوسهم بعد ما اصابها من ياس وقنوط .

ومرت شهور اقتضرت فيها العلاقات بين السلطان صلاح الدين
والامراء الصليبيين على المعاملات المألوفة بعد حرب لم تضع اوزارها ،
والرامية الى افتداء الاسرى من الجانبين ، وتسليم المواقع الحربية
والحصون والقلاع ، وانسحاب حامياتها ، وتحديد شروط الانتقال
واجتياز الطرق من الجانبين ، وغير ذلك من الشئون التى تصرفنى جو
لاتعكره قعقة السلاح وضوضاء المعارك .

واخلد كل من الفريقين المتطاحنين الى الهدوء ، استعدادا للجولة
المقبلة التى كان كل منهما يعرف ويشعر بانها قادمة لاشك فيها ، ان
عاجلا وان اجلا . .

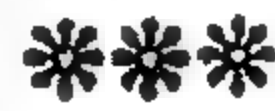
ولكن واحدا من القواد الصليبيين لم يعمد الى هدوء ، ولم ينتظر
موعد الجولة المعهودة ، بل اراد ان يبداءها في الحال ، وحده وعلى كره
من المسلمين ومن بين قومه على السواء : ذلك القائد هسرو جان ديبلى
الفرنسى . . .

فقد جمع حوله فريقا من المغامرين ، وجعل منهم عصاة مسلحة
وانطلق في السهول والجبال والوديان ، يقطع الطريق على رجال صلاح
الدين ، سواء كانوا من الجنود او من التجار او من المزارعين والرعاة

يقتل ويسلب وينهب ، ويبدى من ضروب الشجاعة والجرأة والاقسام ماثير الاعجاب وفي آن واحد يبعث الرعب في النفوس . ولم يمض اسبوع واحد بدون أن يروى الرواة ، أو ينقل الرسل الى صلاح الدين ، خبر ضربة جديدة انزلها ذلك الفارس المتمرد بجماعة من المسلمين ، في احد الطرق المؤدية الى بيت المقدس . وكأنه اراد أن يتحدى السلطان من ناحية ويقطع المؤن على المدينة من ناحية اخرى ، فحصر اعماله في دائرة ضيقة ، لا تتعدى جبل الشيخ شمالا ، ووادي الاردن شرقا ، وساحل البحر غربا ، وطرف صحراء التيه جنوبا . .

وفأوض صلاح الدين بشانه امراء الصليبيين فبعث كل منهم برسول يدعو المغامر العنيد الى الرضوخ للهدنة التي وضع بموجبها حد للقتال . فرفض الخضوع وضاعف نشاطه وشدّد ضرباته .

وجرد صلاح الدين حملة قوامها ثلاثمائة فارس للقضاء على تلك العصابة المؤذية المقلقة ، والمجىء اليه بقائدها حيا .



على ضفاف الاردن ، بالقرب من بحيرة الجليل ، وعلى مسافة غير بعيدة من ميدان معركة حطين ، تمكن فرسان السلطان من الاحاطة برجال جان ديلي ، وارغامهم على القتال . وكان عددهم لايزيد على ستين من الفرسان المدججين بالسلاح ، المدرعين بالفولاذ ، العازمين على الموت دون التسليم ، لانهم يعرفون ان التسليم معناه أيضا الذهاب الى الاعداء ، سواء كان وقوعهم في ايدي المسلمين . . ثم في ايدي الصليبيين قاتل رجال العصابة قتال الابالسة . وسقطوا في الميدان الواحد بعد الآخر . . ولم يلق احد منهم السلاح وفيه رمق من الحياة . وبعد صراع مرير دام ساعات ، سقط في خلاله ايضا عشرات من رجال السلطان صرعى بايدي اولئك المردة المستيئين ، لم يبق من العصابة على قيد الحياة غير قائدها . .

كانت اوامر صلاح الدين صريحة واضحة لامردها ولا ابهام فيها . فهو يريد أن يجيء اليه رجاله بالفارس القريب جان ديلي حيا يسعى على قدميه . ولهدأ ، فان جنوده كانوا يحاولون القبض عليه او حمله على التسليم ، او قتل فرسه ليقع على الارض ويسهل الاتقضاض عليه . وقد ادرك الرجل ذلك ، وفطن الى الخطة المرسومة لاخته اسيرا ، فاستغلها ايما استغلال !

كان الجند يتجنبون اصابته برماحهم وسيوفهم غير اصابات طفيفة فكان هو يقابلهم بضربات تجندل كل ضربة منها فارسا او تزهق

روحه . وكان يفلت من كل حصار ، ويأبى ان يسلم نفسه ، وكلمسا
قتل تحته جواد قفز على ظهر جواد بلا فارس ..

تحطم سيفه في يده فالتقاها جانبا ، واستل خنجره واصطل به
القتال ..

ولكن قواه خائته في النهاية ، فسقط من الاعياء بين كومة من الجثث
جعل يدها على اصابع يده ، وهو يقهقه فاعرا فمه ، ويمسح بكمسه
الرغوة المنسابة من بين شفثيه .

ووثب عليه اعداؤه فبادر احدهم بطعنة من خنجره ، كانت الاخيرة:
فقد تحطم الخنجر كما تحطم السيف من قبله ..

وغاب جان ديلى عن الوعي !

دارت بين صلاح الدين الايوبى وبين ذلك البطل الصليبي ، اعجب
محاورة يمكن ان تدور بين ملك وجندى ، وبين قاهر ومقهور ، وبين
شرقى وغربى ..

سأله صلاح الدين :

— ابن من انت ؟

فاجاب اترجل بصوت جهورى لم تؤثر الهزيمة في نبراته :

— ابن ابي وامى ! ويكفيك ان تعرف اسمى ، وهو الاسم الذى
سينقش على جدران الكنائس في بلدتى : اسمى جان ديلى

— وما اسم بلدتك ؟

— ماروندول ، في مقاطعة بروفانس ، من ممتلكات ملك فرنسا

— متى جئت الى هنا ؟

— جئت الى الارض المقدسة منذ ثمانية اعوام ، وزرت اورشليم
حيث قبر المسيح ..

— امتزوج انت ؟

— نعم . وزوجتى رافقتنى في رحلتى هذه . وقد قتلت في اليوم
الذى استوليتم فيه على المدينة المقدسة .

— من قتلها ؟

— جندي من جنودك !

- ليس عهدى بهؤلاء الجنود أنهم يقتلون النساء .
- قتلها جندى من جنودك ، اننى لا اكذب ! قتلها بسهم وهى واقفة على الاسوار ..
- كانت اذن تحارب ؟
- نعم ، كانت تحارب ، الا تحارب نساؤكم اذا ما ادلهم الخطب واشتد الخطر ؟
- فى هذه الحالة ، يجب على المرأة المحاربة ان تتحمل نصيبها من عواقب القتال ..
- اننى لا اشكو اليك ذلك الجندى . ولكننى مند مصرع زوجتى عولت على الاخذ بثأرها ..
- هل تعرف الجندى الذى قتلها !
- كلا .. ولهذا ، فقد قتلت من جنودك كل من تمكنت منه لعله يكون هو القاتل !
- ما هى سنك ؟
- ثمانية أعوام !
- ثمانية أعوام .. فقط ؟
- نعم ، لاننى لا احسب السنوات التى قضيتها فى وطنى . وقد عشت عمرا جديدا منذ ان وطئت قدماى هذه الارض المقدسة .
- اليس لك أبناء ؟
- كلا .. لم يبق لى غير امى
- الا تتوق الى رؤيتها ؟
- كنت اعلم ، قبل رحيلى عن وطنى ، اننى سأواجه المخاطر هنا ، واخوض المعارك ، واعرض نفسى للموت ..
- الست نادما على شىء مما اقدمت عليه ؟
- لم اقدم على شىء مما تحرمه قوانين الحروب ، وقوانين الشرف !
- لقد سرقت ونهبت وقتلت !
- وهل الحرب غير قتل ونهب وسرقة ؟
- لقد عصيت اوامر رؤسائك ورفضت الخضوع لشروط الهدنة بيننا وبينهم ..

— هذه الهدنة ليست الا خدعة منكم ومنهم ، وربما يذره كل فريق من الاثنين في عيون الفريق الآخر ! اما اوامر رؤسائي ، فهي صادرة عن خوف لا عن رغبة حقيقية في المسالمة والمصادقة !

— لقد تسببت في قتل ستين من الابطال الذين تبعوك ..

— نعم ، وضعف هذا العدد من الابطال الذين ارسلتهم انت للقبحر على حيا لا ميتا ! ..

— اليس هذا حراما ؟

— لقد ماتوا مخيرين وكان في وسعهم الا يموتوا ! ..

— اليس لديك رغبة تبديها ، لكي نجيبك اليها ؟

— لي رغبة واحدة ، كنت اقاتل بالسيف فتكسر السيف بيدي . وكنت اقاتل بالخنجر فتكسر نصله ايضا .. ولكنني اريد ان ابحت عن فضته ، لكي تدفن معي عندما تواروثنى التراب .

— واية اهمية لقبضة ذلك الخنجر . اهي من فضة او ذهب ؟

— لا .. انها قبضة من خشب .. صنعتها لي امي من غصن شجرة غرستها بيدي وانا طفل ، في البلدة الصغيرة التي نشأت فيها .. فهي اذن التذكار الوحيد الباقي لي ، من الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من اسرتي !

سكت صلاح الدين الايوبي . وجال بنظره على الاعوان والانصار الذين حضروا تلك الجلسة وسمعوا تلك المحاوراة العجيبة ، مذهولين مذهوشين من حلم السلطان ورقته وسعة صدره .

ثم التفت الفاتح العظيم الى الرجل الذي كان ينتظر الحكم عليه بالاعدام ، وقال :

— لن نقتلك ولن ندفن جثتك في التراب يا جان ديلي . فشجاعتك تشفع لك . وحرام علينا ان نجازيك بالوت ، ما دمت قد نجوت منه في الميادين .. كنت تعتقد انك تؤدي واجبا فرضته الشهامة عليك : طلبا لثأر زوجتك .. فنحن نغفو عنك ، ونطلق سراحك ، ولكننا نشترط عليك شرطا ، وهو ان تعود الى بلادك ، وترجع الى امك ، وتذكر بالخير قوما كان في وسعهم ان يعدموك الحياة ، فتركوها لك !

فانحنى الرجل امام السلطان وقبل طرف رداءه ، وظل

برهة من الوقت يحدق البصر في وجه البطل الذى ملا ذكره الافاق
واراد أن يتكلم فعصاه 'لنطق للمرة الاولى في حياته .

واستطرد صلاح الدين يقول :

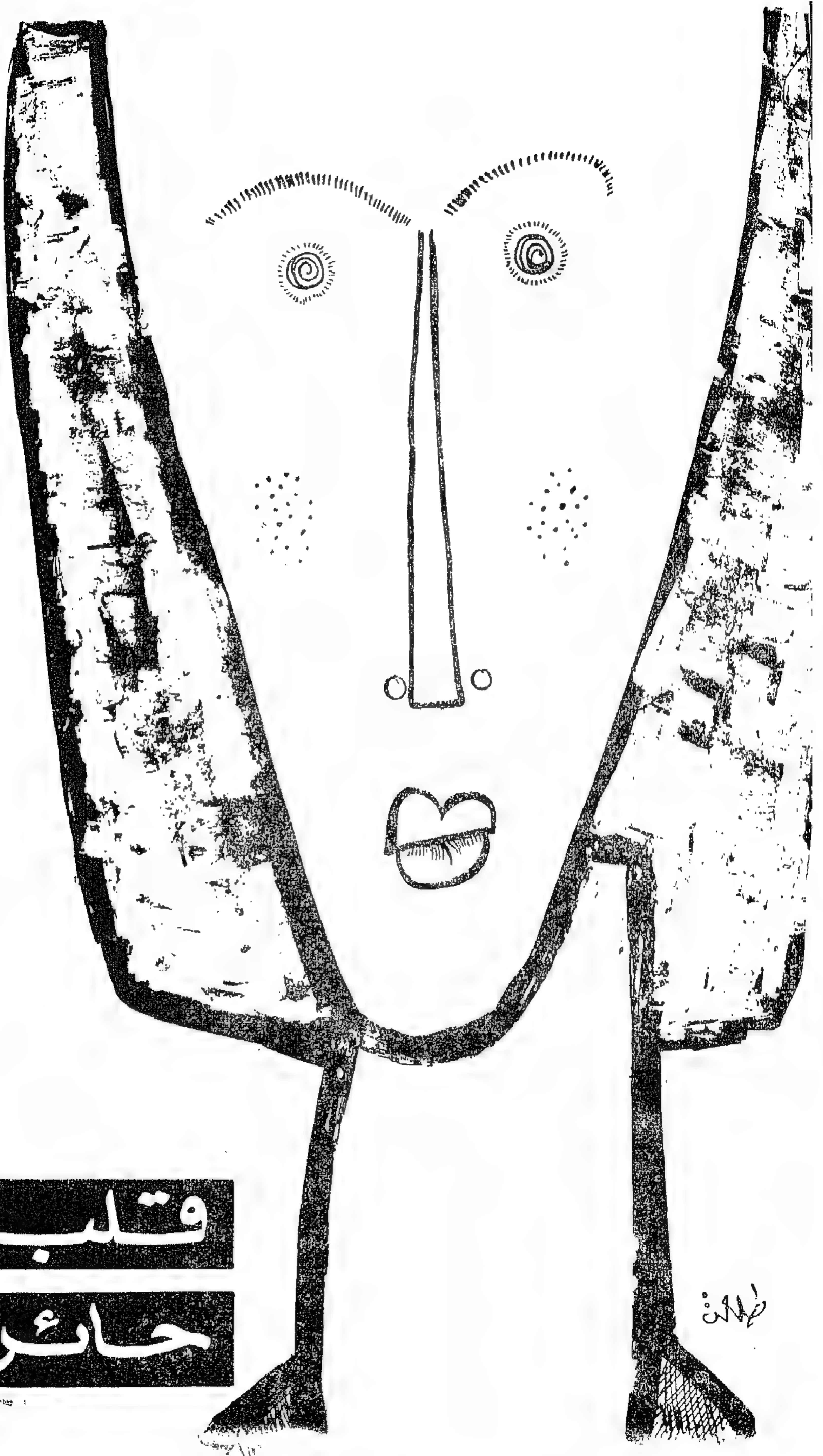
— سنوفد معك بعض رجالنا لمبحث عن قبضة خنجرك وما تبقى
من نصله . . ثم آتينا تهديك هذا الخنجر ، لتحتفظ به في بلادك ، وتذكر
صلاح الدين الايوبى كلما وقع نظرك على نصله !

واخذ السلطان خنجره الذهبى ، وقدمه الى الفارس المصليبي
الذى تقبله والدموع تترقرق في عينيه .

وابحر جان ديلى عائدا الى بلاده ، حاملا معه قبضة الخنجر الذى
اهدته اليه امه ، والخنجر الذهبى الذى اهداه اليه السلطان
صلاح الدين الايوبى ، بعد أن ربط نفسه بقسم ، على أن لا يحمل السلاح
محاربا في الارض المقدسة !

فتاب

حاشی



طهران

بعد سلسلة من المعارك الطاحنة ، أبدى فيها الفريقان من ضروب
الفروسية والبطولة المعجب العجيب ، تمكن الصليبيون من استرجاع
جزء من أرض فلسطين المقدسة من أيدي المسلمين ، فاحتلوا « عكا »
و « أرسوف » و « يافا » و « عسقلان » ورقعة طويلة من الساحل ،
واستقر قائدهم ريكاردوس قلب الاسد ملك الانجليز في ثغر يافا الحصين
واعتصم خصمه السلطان صلاح الدين الايوبي في وادي النطرون المنيع

وكان كل من الرجلين العظيمين قد عرف غريمه ، واختبر دهائه
في السياسة وشجاعته في القتال ، وأدرك أن القضاء عليه دونه عقبات
وأهوال ، ومال في سره الى التفاهم والمهادنة ..

وفطن كل منهما الى رغبة الآخر ، فتبادلا الرسل والهدايا ،
وتفاوضا في شروط الصلح ، وكان الوسطاء بينهما فريقا من أبناء البلاد
المسيحيين والمسلمين ، ولكن المفاوضات الاولى لم تسفر عن نتيجة
يرضى بها الطرفان ، فقد تمسك ريكاردوس بوجوب احتفاظه بالثغور كلها ،
وتمسك صلاح الدين من ناحيته بوجوب تنازل الافرنج عن احدها ،
ليكون له منفذ الى البحر في الجزء الجنوبي من الساحل

وعاد جنود الفريقين الى التحرش بعضهم ببعض ، وساد الاعتقاد
بأن القتال سيستأنف لا مفر من ذلك ، واذا بحادث مفاجئ يعيد
الطمأنينة الى النفوس . فقد اقترح ملك الانجليز على السلطان حلا لم
يكن في الحسبان ، من شأنه أن يمهد السبيل لصلح ثابت وتعاون دائم
ويضمن السلم والامن في الارض المقدسة اذا وافق رجال الدين على
الحل المنشود . وحمل اقتراح الملك الى السلطان رجل كان له عند
العاةلين مركز ممتاز ومكانة مرموقة ، وما ذلك الرسول غير المؤرخ
العربي « بهاء الدين بن شداد » ..

وأصفى صلاح الدين الايوبي الى الرسول يفضى اليه بما يعرضه
ريكاردوس قلب الاسد ، وهو لا يصدق اذنيه ، بل خيل اليه أن الرجل
يمزح أو يخادع ويراوغ !

أما الشروط التي أدهشت السلطان وأخاه ، ونالت منهما الرضا
والقبول ، فهي :

أولا : أن يتزوج الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، أخو صلاح
الدين ونائبه في البلاد الشامية ، أخت ملك الانجليز ، الاميرة جان ،
أرملة ملك صقلية ..

ثانيا : أن يتنازل الملك ريكاردوس لاخته جان عن الجزء الذي يحتله من الساحل ، بما فيه مدن عكاء وازصوف ويافا وعسقلان .

ثالثا : أن يتنازل صلاح الدين لاخته سيف الدين عن الجزء الذي يحتفظ به من ساحلي فلسطين ولبنان ، فتؤلف من هذه البلاد كلها إمارة واحدة ، يجلس على عرشها العريسان ، وتكون بمثابة مهر لهما وهدية من الملك والسلطان يوم زفافهما ..

رابعا : تصبح مدينة القدس مقرا للملك العادل سيف الدين وزوجته جان الانجليزية ، ويسمح للزوجة بأن تكون لها حاشية من رجال الدين والجيش الانجليز ، بدون أن يكون لهذا الامتياز مساس بصيغة المدينة الدينية الاسلامية .

خامسا : يسمح للمسيحيين ايا كان موطنهم بزيارة الاماكن المقدسة بالقدس الشريف ، على شرط أن لا يدخلوا المدينة حاملين اسلحتهم .

لم تكن هذه الشروط موضع اخذ ورد طويلين . فقد رحب بها صلاح الدين وأعلن قبولها على مسمع من عظماء دولته ، بعد يوم واحد من اطلاقه عليها . وكان ذلك في الاسبوع الأخير من شهر اكتوبر سنة ١١٩١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٧ للهجرة .. ولكن الملك ريكاردوس قلب الاسد ، والسلطان صلاح الدين الايوبي ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وائوسيط بهاء الدين بن شداد ، والعظماء الذين هلكوا للاتفاق قبل أن يتم ، جميعهم لم يحسبوا حسابا للعروس التي قرروا أن يروجوها بدون علم منها ، والتي كان عليهم أن يأخذوا رأيها فلم يفعلوا ..



كانت «جان» الانجليزية ابنة الملك هنري الثاني واخت ريكاردوس تمتاز مثل أخيها بشجاعة تفقدها في بعض الاحيان التعقل والاعتزان .. وكانت جميلة ، تسلب الالباب بحسنها ، وتثير الإعجاب بفروسيتها النادرة بين النساء ، وتقول في الاندية السياسية كلمتها ، وتلعب في الحروب والمنازعات دورها . وقد تزوجت ملك صقلية « غليوم الثاني » . ولكنها لم تكن سعيدة في كنفه ، بل قبلت موته في سنة ١١٨٩ بعينين جافتين لم تنهمر منهما الدموع ، وقلب جامد لم يخفق بمشاعر الحزن والاسى ، فان فقد الزوج كان لها بمثابة خلاص من الاسر ، يفتح امامها المنافذ الى حياة جديدة ، تتمناها الملكة الارملة مليئة بالمفاجآت والمغامرات ..

وكان « ريكاردوس » يحب اخته ، ويرغب في اسعادها ، ويعرف ميولها ومطامعها ، فاعتقد أنها لن ترفض ما أعده لها سرا ومن تلقاء



السلطان صلاح الدين الايوبي يزور خصمه الملك ريكاردوس قلب الاسد
في اثناء مرضه ، وقد تنكر في ثوب طبيب عربي ويصف له العلاج الشافي

نفسه .. وهل هناك مفاجأة ومغامرة أروع من ان تصبح الاميرة الانجليزية ، والملكة الصقلية السابقة ، زوجة ملك مسلم وسلطانة أمة شرقية ، فتتربع على عرش أورشليم ، المدينة التي تقدسها ثلاثة أديان، ويرمقها العالم بأنظاره ؟

وكان أكثر من واحد من أمراء الغرب قد عرضوا عليها الزواج بعد وفاة الملك غليوم الثانى ، ف وقعت الاميرة فى حيرة من أمرها . انذار ظهرها الى الغرب وتتجه الى الشرق ؟ أتتهجر قومها وتلقى بنفسها بين اقوام لا تعرفهم ، لفتها غير لغتهم ، ودينها غير دينهم ؟ الا يعد هذا فى نظر الناس وفى نظر الكنيسة على الخصوص ، مروفا وخيانة ؟

واذا رفضت ، الا تكون قد ضيعت فرصة لم تسنح وقد لا تسنح لغيرها من اميرات الغرب وملكاته ؟ ان اخاها « ريكاردوس » يؤكد لها ان « الملك العادل » لن يفرض عليها دينه ولن يرغمها على الجحود بدينها، وان هذا الزواج سيفتح صفحة جديدة فى علاقات الغرب المسيحى بالشرق الاسلامى ، وقد يكون الخطوة الاولى لوضع حد للحروب الصليبية ، وحقن الدماء الى الابد بين الفريقين المتناحرين فى الارض المقدسة ..

وكانت « جان » ، بالرغم من عيوبها الكثيرة ، تقية ورعة . ففكرت وصلت واستوحت ضميرها ، وحاولت ان تتخذ قرارا يجمع بين واجبها كأميرة مسيحية ، وبين ما كانت تتعطش اليه من مجد وجاه . ولكن عوامل الرفض وعوامل القبول تساوت فى نظرها ، فظل قلبها حائرا بين حلين : اختيار الشرق مقرا ، او ابقاء الغرب موطنها ..

غير ان حيرتها لم تدم طويلا ، فقد علم رجال الدين المقربون منها بما حدث ، وهرعوا اليها يتوسلون تارة ويهددون أخرى ، فنجحوا فى التغلب على تردددها ، واقنعوها بوجوب الرفض ، فرفضت ..

وعاد « ريكاردوس » الى الحاحه فزجرت الاخت اخاها ، وطلبت منه ان لا يعود الى التحدث فى موضوع قتلته بحثا فلم يستسغه ضميرها ، ولكنها رجته بأن يبلغ « الملك العادل سيف الدين » تحياتها ، ويؤكد له انها تعدده بين الامراء الكرام أميرا كريما ، وترجو ان يحل السلام والوثام بينه وبين أخيها بدون ان تكون هى الثمن المفروض !

كان « ريكاردوس » راغبا فى اتمام ذلك الزواج رغبة اكيدة . فكان رفض اخته ضربة قاسية عليه . ولكنه لم يفقد الامل ، بل بذل محاولة أخيرة لدى « الملك العادل » فطلب منه ان يعتنق الدين المسيحى لكى يزوجه اخته بالرغم منها ، ويتنازل له عن جميع الاماكن التى يحتلها جيشه فى فلسطين ..

وإدراك صلاح الدين وأخوه أن عرض ريكاردوس الجديد محاولة يائس وعد ويعز عليه أن لا يفي بوعده . فلم يفضبا ولم يؤنبا الملك الانجليزى على ما اقترحه عليهما ، بل أبلغاه أن أمنيته لا يمكن تحقيقها، ودعياه الى الاجتماع بسيف الدين لاستئناف حديث الصلح على أسس جديدة ..

وكان كل من الطرفين يخشى الآخر ولا يرغب فى العودة الى منازلته فى الميادين ، فلبى «ريكاردوس قلب الاسد» الدعوة ، وتم الاجتماع فى مضارب نصبت فى منتصف الطريق بين يافا والنطرون ، فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١١٩١ .

ذهب « ريكاردوس » الى خيمة « الملك المعادل » فاستقبله « سيف الدين » بالترحيب والاكرام ، ورد له الزيارة فى خيمته حيث تناول اوانا من الاطعمة الغربية .. وفى مساء ذلك اليوم ، جلس « ريكاردوس » وحاشيته ، و « سيف الدين » ورفاقه ، حول سماء حوى ما لذ وطاب من الاطعمة الشرقية ، وكانت احدى المغنيات العربيات تطرب المدعويين بصوتها الرخيم أثناء المأدبة ، وتضرب على العود ضربا اثار اعجاب ريكاردوس فخلع عليها رداءه المزركنس !



عقد الصلح بين ريكاردوس وصلاح الدين بعد ذلك الحادث بقليل ، وعاد ملك الانجليز الى بلاده ، مشيعا بتحيات السلطان وتمنياته ..

وفى الطريق ، اسره اعداؤه فى هنغاريا فافتدى نفسه بالمال ، واشتبك فى حروب متواصلة ، دارت رحى حرب منها مع امير تولوز « الكونت ريمون السادس » ، وانتهت بصلح بين العدوين ، وتزوج الكونت اخت الملك ، « جان الانجليزية » ، فى سنة ١١٩٦ . واصبحت الملكة السابقة ، التى رفضت الجلوس على عرش القدس ، اميرة على مقاطعة تواروز الفرنسية .

ومات « ريكاردوس قلب الاسد » فى سنة ١١٩٩ ، ودفن فى مدينة « روان » بفرنسا ، وكان فى الثانية والاربعين من العمر .

أما « جان » اخته ، فقد امنشت الحسام وحاربت مع زوجها ريمون السادس جنبا الى جنب ، فى خلال الثورة التى نشبت فى امارته ، ودحرت الثائرين وقادت الجيش الذى حاصرهم فى قلعة « كوزار » وانتصرت عليهم ..

وعاجلتها المنية فجأة فى مدينة « روان » ، فى سنة ١٢٠٠ ، فحزن عليها زوجها حزنا شديدا ..

وتركت « جان الانجليزية » صندوقا من خشب الارز ، تلقتة بعد سقوط عكاء هدية من اخيها ريكاردوس ، واحتفظت فيه بحليها وجواهرها .. ولما فتح ريمون السادس ذلك الصندوق بمفتاحه الذهبى الذى كانت زوجته تحمله فى عنقها ، وجد بين الحلى والجواهر غلافا من الجلد المموه بالفضة ، وفى داخله قرطاس كتبت عليه كلمات باللغة العربية ، وكان كثيرون من اهل تولوز يعرفون هذه اللغة قراءة وكتابة ، بالنظر الى العلاقات بين مدينتهم والامارة التى انشأها فى لبنان واحد من اشرافهم ، فى خلال الحرب الصليبية الاولى ..

اما الكلمات العربية التى دونت فى القرطاس ، فكانت تحية من « الملك العادل سيف الدين ابي بكر » ، وتهنئة الى « جان الانجليزية » بزواجها من الكونت ريمون السادس ، فى سنة ١١٩٦ ، ودعاء الى الله بان يجعل ايامها مفعمة بالسعادة والهناء ..

حافظ

الله



قال صلاح الدين ليعقوب الفران :

حدثنا يا يعقوب عن ملك الانجليز واعد على مسامعنا ما رواه لك رجاله عن كرمه وشهامته وشجاعته ، فاننا والله لمعجبون بالبطولة ، ولو كان صاحبها خصمنا وعدونا ! ..

كان السلطان الفاتح يتأهب في تلك الليلة لخوض معركة «ارصوف» الفاصلة في حربه مع الصليبيين بقيادة ريكاردوس «قلب الاسد» ملك انجلترا .. وكان صلاح الدين قد عزف عنه الشيء الكثير ، وواجهه في الميادين وشاهد اعماله العجيبة ، وادرك ان الغرب في هذه المرة قد رمى الشرق بجبار عنيد ، ولكنه اراد في تلك الليلة المزيد من المعرفة ، فطلب الى « يعقوب الفران » ان يقص عليه في ذلك المجلس جديدا من حوادث عدوه ونواذره على مسمع من قواد جيشه ورجال حاشيته . اما « يعقوب الفران » فنصراني من ابناء انطاكية ، التحق مع لفيف من مواطنيه بجيش السلطان ، وعهد اليه الملك العادل - اخو صلاح الدين - في اعداد الخبز للمقاتلين . وكانت الحروب الصليبية قد فقدت الكثير من طابعها التعصبي ، وصبغتها الدينية ، فانضم كثيرون من مسيحيي الشرق الى جيوش المسلمين ، كما تحالف الامراء المسلمون مع زعماء المسيحيين في بعض الظروف .

وراح يعقوب يقص على صلاح الدين واخيه ومن في مجلسهما من كبار القواد والاعيان ، كيف ان ذلك الملك يمتشق سيفاً يزن بضعة ارباط ويضرب به جوادا فيشطره الى شطرين . وانه كثيرا ما يشب على المحاربين في وسط المعركة فيقبض بيديه على اثنين من اعدائه ويضرب راس الواحد برأس الآخر ، فيتركهما جثتين هامدتين ! وانه مع ذلك كان يوصي رجاله دائما بان يمتنعوا عن الازهاز على خصمهم اذا ما جرح في القتال ، والا يضربوا عدوا سقطت السيف من يده . والا يتعرضوا لمن يجدونه في طريقهم من الشيوخ والنساء والاطفال !

وكان صلاح الدين يعفى الى حديث يعقوب باهتمام واغترباط ، فلما انتبهى التفت الى جلسائه وقال : «الا تشاطروننى الراى فى أنه خير لنا ان ننازل خصما من الطراز الاول ، حتى ولو تساوينا معه فى القتال ، من ان ننازل خصما لثيما جباناً ، ونحرز عليه نصراً ليس من العظيمة على شيء ؟ ان جل ما اتمناه ايها الابطال الاماجد ، ان اصارع قلب الاسد بقلب مثل قلبه ، وارد على شهامته بشهامه مثلها . وقد يتاح لى ان افعل هذا فى معركة الغد ، وان غدا لناظره قريب » !

في اليوم التالي ، ه آب - أغسطس ١١٩٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٨ لهجرة ، التقى الجيشان في معركة « أرصوف » ، أو معركة يافا الثانية . وكان صلاح الدين الايوبي في الخامسة والخمسين ، وريكاردوس قلب الاسد في الخامسة والثلاثين ، وكان ميناء يافا في ذلك اليوم موضوع الرهان بين الغدوين العنيدين !

قاد جيش الافرنج ريكاردوس بنفسه . وقاد جيش المسلمين صلاح الدين وأخوه . واحتدم القتال منذ الفجر ، وظل يشتد حدة حتى غروب الشمس فامتلا السهل الممتد حول المدينة البحرية الحصينة بأشلاء القتلى والجرحى ، وجثث الخيول وحطام الاسلحة ، واصطبغ اديم الارض بالدماء القانية ، وحامت الغربان والنسور في الفضاء ، تبحث خلال انهار المتصاعد عن غذائها ، قبل ان تنتهى المعركة ويتفرق المقاتلون

كان صلاح الدين والملك العادل يشرفان على الميدان من فوق تل صغير . أما ريكاردوس ، فقد انطلق في مقدمة جنوده ، ويده سيفه المشهور ، يضرب به الهامات ويجندل الفرسان ، والسهام تنهمر عليه كالطر المdrار من كل جانب وصوب ، حتى لقد شبهه المؤرخون العرب فيما بعد بالقنفذ المدرع بأشواكه ، لكثرة ماعلق بثوبه وسرج حصانه من السهام والنصال !

في تلك المعركة الهائلة ، ضرب ريكاردوس ضربة السيف الفريدة ، التي تناقلها الرواة ودونها التاريخ في صفحاته ! فقد اغار عليه امير عربى ويده رمح صوب سنامه الى صدره ، فتفادى ريكاردوس الطعنة ، وهوى بسيفه على غريمه ، فشطر جسمه شطرين من راسه الى خصره ، ولم تنقذه درعه الفولاذية من تلك الضربة الرائعة .

وامام تلك القوة الخارقة رفع فرسان المسلمين السيوف والرماح فوق رؤوسهم ، لا ليضربوا بها ذلك الملك الشجاع ، بل ليؤدوا له في الميدان تحية الاكبار والاعجاب !

ووثب امير عربى على فارس من الاعداء وضرب ضربة قطع بها عنق جواد الانجليزى ، فرقع ريكاردوس وفرسانه سسيوفهم تحية للعربى وهتفوا له وهللوا ! ..

وتوقف القتال الى حين ...

واستؤنفت المعركة بعد قليل بشدة لا هوادة فيها من الطرفين . وحدث ان قتل جواد ريكاردوس فاعطاه احد رفاقه حصانا آخر قتل ايضا .

فأخذ حصانا ثالثا قتل مثل سابقه . فاعتلى قلب الاسد صخرة في وسط الميدان وراح يضرب بسيفه ويواصل القتال على قدميه . . .

وعلت صيحة من الجانب الاخر . ونادى المنادون : « تفرقوا عن ملك الافرنج يا رجال ! »

واذا بفارس عربى يشق الصفوف قادما من التل الذى اتخذه صلاح الدين واخوه الملك العادل مرقبا لهما يديران منه دفة القتال ، وكان الفارس يقود وراءه جوادين مطهين . فاقترب من الملك وخاطبه قائلا :

— أبها الملك ، ان مولاي السلطان صلاح الدين واخاه الملك العادل ، وقد شاهدا فعالك في حومة الوغى ، يبعثان اليك بأطيب التحيات ، ويرسلان اليك هذين الجوادين ، « الطارق » من السلطان ، « والمارق » من أخيه ، هدية لك وتقديرا لشجاعتك ، لكى تواصل القتال وانت راكب ، لانه لا يليق ببطل مثلك ، وضارب سيف من طرازك ، أن يحارب وهو واقف على قدميه ! .

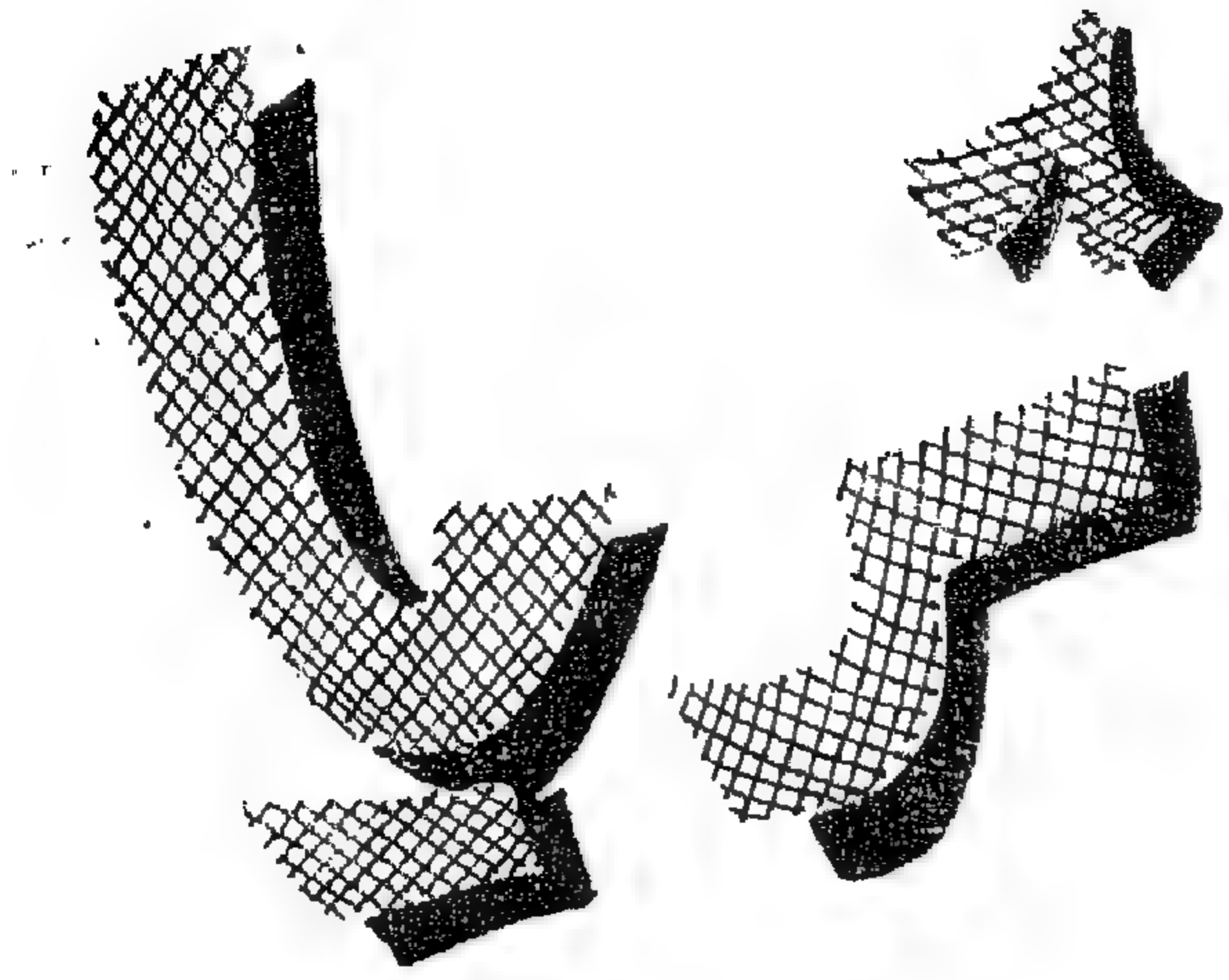
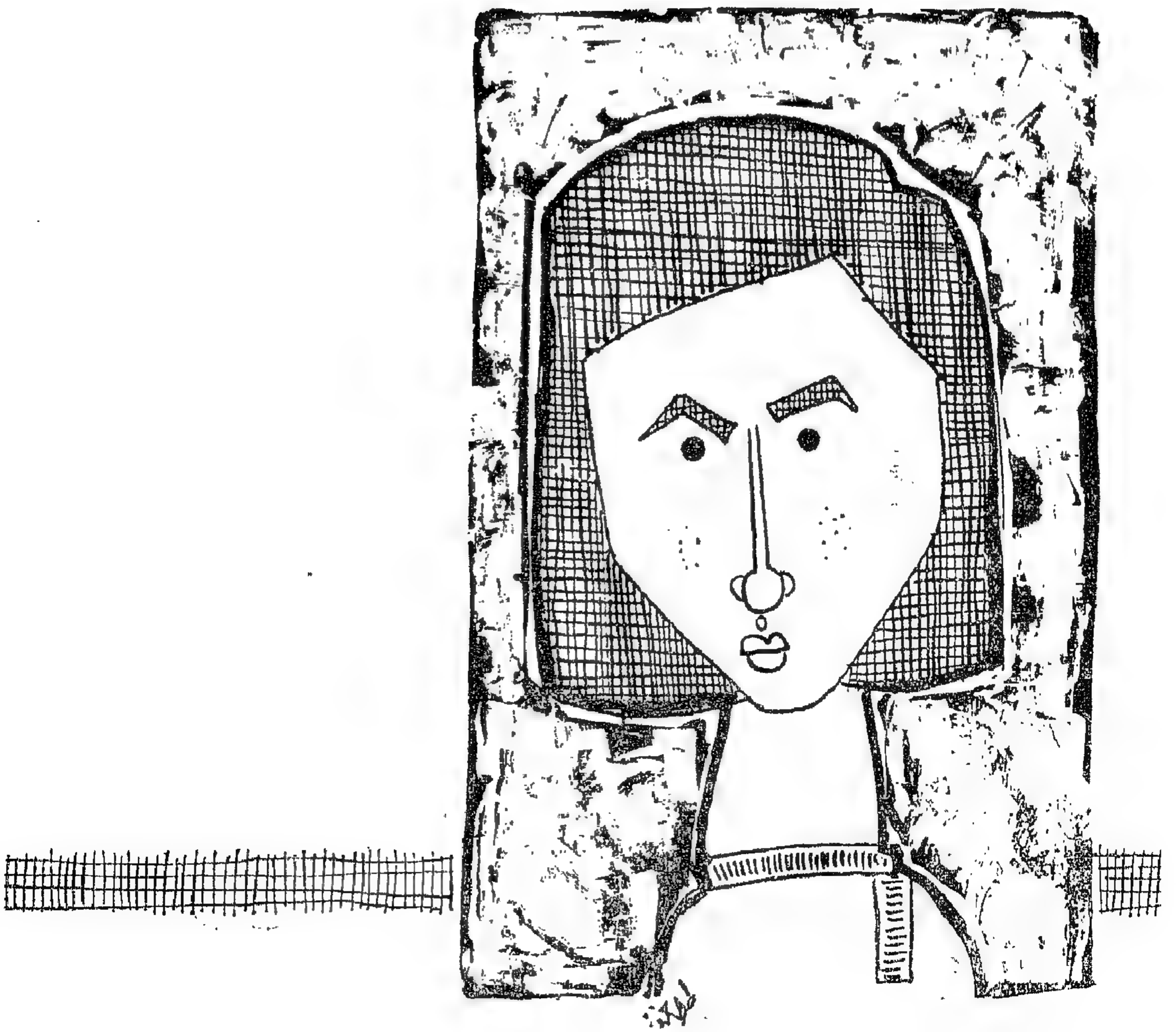
كانت دهشة ريكاردوس عظيمة . لكنه تقبل الهدية شاكرا ، وقال للرسول :

— عد الى السلطان الشهم وأخيه العادل ، ورد اليهما تحيتى ، وقل لهما أن ريكاردوس سيعلم على الملأ أن الفضل في انتصاره في معركة أرسوف يرجع الى ما أبدياه نحوه من شهامة ونبل وكرم اخلاق .
وواصل ريكاردوس القتال . وربع المعركة ودخل ميناء يافا في اليوم التالى .



دب الخلاف بين قادة الحملة الصليبية الثالثة ، وامتنع ريكاردوس قلب الاسد عن مهاجمة بيت المقدس ، وعقد مع صلاح الدين الايوبى صلحا مؤقتا . ونشأت بين سلطان المسلمين وسيد ملوك النصارى في ذلك العهد صداقة متينة ، وراح كل منهما يفرط في الشناء على الآخر ، ويتغنى بصفاته وشمائله !

وظل ريكاردوس قلب الاسد الى اخر ايامه يذكر بالخير خصمه الشهم النبيل ، ويروى لجلسائه كيف أن صلاح الدين واخاه أهدياه جوادين في وسط المعركة ، لكى يواصل القتال ويستصر !



عندما انتهى الجندي « غليوم » من كلامه ، نظر اليه مولاه
« روجيه بيكون » وسأل :

— أوافق انت مما تقول ؟

فانحنى الجندي الى الارض وأجاب :

— نعم يا مولاي !

سكت روجيه لحظة أطرق فيها مفكرا ثم رفع راسه وسأل
ثانية :

— وهل عرفتك الفتاة كما عرفتها انت ؟

— عرفتني .. وتذكرت تلك الايام السعيدة التي كنت اقوم فيها
بخدمتكما هناك في قصر والديكما في سكوتلندا ..

— ما العمل اذن ؟ وماذا قالت لك ؟

— قصت على قصتها، وحدثتني عما قاسته من عذاب وماتجرعته
من مرارة ، منذ وقوعها في الاسر الى اليوم ..

— ينبغي لنا ان ننقذها . وسأضحى في سبيل ذلك بكل شيء .
لن اذوق راحة بعد الان ما دامت اختي ترسف في قيود الدل والعبودية
— سننقذها يا مولاي !.. يجب ان ننقذها !..

— سأرفع الامر الليلة الى ملكي ريكاردوس قلب الاسد لكي
يرى رايه فيه !

نهض « روجيه بيكون » وجعل يروح ويجيء في مضربه كأسد
أصابه سهم حاد ..

كان يحب اخته « ماري » حبا جما . وعندما لبى النداء العام ،
وسافر مع جيش ريكاردوس قلب الاسد ملك الانجليز الى الاراضي
المقدسة متطوعا في الحرب الصليبية ، الحت عليه اخته بأن يصطحبها
معه ، فأجابها الى رغبتها وسافر الاثنان معا الى السواحل
الشرقية ..

كان السلطان صلاح الدين الايوبي قد سحق جيش الافرنج في

« طبريا » ومزق شملهم شر معزف . وانتزع منهم بيت المقدس وبسط
سلطان العرب على سورية ومصر

ودعا ذلك الانتصار الباهر ملوك الغرب الى تجريد حملة جديدة
على الشرق . فدقت الاجراس والنواقيس ودوت الطبول وهتفت
الابواق وعلت اصوات المنادين الى الجهاد . فتألب الشبان والكهول
من كل فج وصوب الى معسكرات الجيش ، في المانيا وفرنسا وانجلترا
.. وحمل البحر الزاخر من الغرب الى الشرق جحافل الحرب
الصليبية الثالثة بقيادة الملوك الثلاثة : بربروس الالماني وفيليب اوغست
الفرنسي وريكاردوس قلب الاسد الانجليزى .

وكان ذلك في سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة سنة ٥٨٥ للهجرة .

مات الماهل الالماني غرقا في الطريق . ووصل رفيقاه بجيئسهما
المشترك امام عكاء الحصينة فهاجما اسوارها واستوليا عليها بعد قتال
عنيف .

هناك جرح روجيه يكون بضربة مزارق اخترقت كتفه اليسرى
فنقل مع المصابين من ابناء قومه الى المستشفيات .

وعندما ابتعد فرسان العرب عن الاسوار حملوا معهم الاسرى
والسبايا . وكانت الفتاة «مارى» اخت الجندى «روجيه» بين النساء
اللواتى سباهن الجنود .

سنة ١١٩١ ميلادية الموافقة سنة ٥٨٧ للهجرة ...

الفتاة تدعى الآن «تريا» وتقيم فى قصر الملك الناصر يوسف
صلاح الدين بين السراى والجوارى ، وقد حكم عليها القدر ان تقضى
بقبة حياتها بعيدة عن وطنها وابناء عشيرتها .

اشفق عليها الملك الناصر عندما قصت قصتها ، فامر بان لا يلحق
بها اذى وان تظل حرة فى حدائق القصر وردھان الواسعة .

لكنها كانت كالعصفور السجين تطوف فى ارجاء القصر ناظرة الى
النور من خلال السجف الشفافة والنوافذ الضيقة ، الى القابات ترنم
فيها الثعالب والضباع والى مسارج الغزلان فى سفوح الجبال ، الى
الفضاء اللانهائى تسبح فيه النسور والعقبان .

حسدت الطيور الصغيرة والجوارح تطاردها لان تلك الطيور
حرة فى فضائها

وآنرت استنشاق هواء ميادين القتال وقد سممته نثانة الجيف

وعفونة الجثث ، على استنشاق هواء القصور وقد امتزج بعبير الورود والياسمين .

هناك وعلى تلك الحالة رآها خادم روجيه - الجندي «غليوم» - وكان مولاه ريكاردوس قلب الاسد قد بعثه برسالة الى الملك الناصر صلاح الدين .

عمد الجندي الى الحيلة وتمكن من محادثة الفتاة . فعلم منها كيف وقعت في الاسر وانها تتحين الفرص السانحة للفرار من سجنها .

ولكن ، كيف السبيل الى الفرار والقصر يعج بالنساء والرجال ، والحدائق محاطة بالاسوار العالية ، والحراس والجنود يملأون السهول والطرق .

حمل الجندي الخبر الى روجيه ليكون ، فاسرع الشاب الى مولاه الملك والقى بنفسه على قدميه باكيا ، طالبا منه المغونة لانقاذ اخته من الاسر . . فطيب ريكاردوس خاطره وهذا روعه ، ووعده بأنه سيعقق امنيته قائلا له :

- اعلم ان السلطان صلاح الدين شهم همام ، شريف النفس عالي الهمة عادل رحيم ، وقد اثبتت لي الحوادث ذلك بما لم يترك مجالا للشك . .

الا تذكر ياروجيه تلك الموقعة التي التحمنا فيها مع جنود السلطان ، على مقربة من يافا ، والتي قتل فيها جوادى ، فأرسل الى صلاح الدين واخوه جوادين اصيلين ، حتى لا أكف عن القتال بل امضى فيه الى النهاية ؟ الا تذكر ايضا اننى قلدت ابنه الشاب سيف الفروسية في ميدان القتال اعترافا منى بجراته وشجاعته ، ونزولا على رغبة ابيه ؟ اننا ياروجيه نحارب ابطالا مثلنا ، يضعون قواعد الشرف وتقاليد الفروسية نصب اعيينهم في كل ظرف وحال . وسأكتب الى صلاح الدين طالبا منه ان يعيد اليك اختك ولن يرفض لى رجاء ! فشكر الجندي للملك عطفه عليه ، وقال له :

- هذا هو املى ورجائى ايضا يامولاي . فقد قال صلاح الدين مرة في مجلس جمع اقطاب العرب في هذه البلاد : « لن يقال انه وجد بين من حكموا العرب من هو اكرم من يوسف صلاح الدين ! »

وكتب ملك الانجليز الى ملك العرب الخطاب الآتى :

« أيها الملك . .

« حامل خطابي ، جندي من جنودى البواسل ، وهو بطل لاقى
ابطالك فى الميادين ، وأبلى مثلهم فى القتال البلاء الحسن . وقعت أخته
أسيرة فساقها رجالك الى قصرك . كانت تدعى ماري ، فأطلقت عليها
اسم ثريا . وللك الانجليز رجاء يفضى به الى ملك العرب : اما ان تعيد
الى الاخ اخته ، واما ان تحتفظ به أسيرا معها فلا تفرق بين من جمعهما
الله ولا تحكم على عصفور بأن يعيش بعيدا عن عشه

« انى فى انتظار قرارك . واذكر بك قول امامكم عمر بن الخطاب
وقد تلقنته عن صديقى الامير حارث اللبائى : « متى استعبدتم الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

فامتطى روجيه ليكون أسرع الجياد ، وراح ينهب الارض نهبا
الى مقر السلطان وسجن شقيقته
ومثل بين يدي الملك الناصر ، فدفع اليه الكتاب ووقف ينتظر
الرد وقلبه يخفق وشفتاه تختلجان
قرا صلاح الدين الكتاب ورفع نظره الى الشاب المضطرب ، ويده
تعبث بلحيته الكثيفة ، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هى علامة
الرضا والإرتياح
ثم دعا روجيه الى الجلوس وقال :

— يسرنى ايها الفتى ان اجيب مليكك الى رغبتك ، وان يكون
حامل رسالته الى بطلا من أبطاله الشجعان ، وان اصافح هذا البطل
مضافحة الجندي للجندي ! ساكون عند حسن الظن بى ، ولن ارفض
لريكاردوس طلبا .

وامر السلطان برد الفتاة الى اخيها . ومد يده الى روجيه فأكب
الشاب عليها يقبلها وقد تساقطت دموع الفرح من عينيه

وكتب صلاح الدين الايوبى الى ريكاردوس قلب الأسد هذا
الرد على كتابه :

« ايها الملك ..

« صافحت الجندي الباسل الذى بعثت به رسولا الى . فليحمل
اليك المصافحة ممن عرف قدرك فى الميادين . لن احتفظ بالاخ أسيرا
مع اخته لاننا لا نستبقى فى بيوتنا الا أسلاب المعارك . لقد أعدنا للاخ
اخته . واذا ما نزل صلاح الدين على قول عمر بن الخطاب ، فانما
فعل ذلك لكى ينسزل ريكاردوس على قول عيسى : « اعطوا ما ليقصر
لقيمصر وما لله لله ! » فارحل ايها الملك عن أرض ليست ملكا لك وأعددها
الى اصحابها الذين اغتصبوها منهم ! »



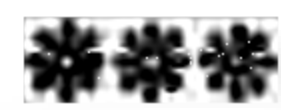
خرج رسل صلاح الدين الايوبى من دمشق راكبين البغال لا الخيول مجردين من الاسلحة، عدا الخناجر ممدوسة في محازمهم ، دليلا على أن النية التي تخالج صدورهم طيبة ، والمهمة التي خرجوا لادائها سلمية .

حرصوا على ألا يثير منظرهم الشكوك والريب عند الاصدقاء وعند الاعداء على السواء ، وأن يعتقد من يراهم أنهم تجار يجوبون البلاد . فاجتازوا الجبال والهضاب والوديان التي القوها أو الفها بعضهم منذ خمسة أعوام ، ومروا في مناطق يسكنها المسلمون والدروز والمسيحيون ، حتى بلغوا بأمان وسلامة تلك الصومعة التي يقصدون اليها حاملين الى الناسك الذي يعيش فيها ، هدايا السلطان مشفوعة بتحياته وتمنياته .

تلقى الرجل التمنيات والتحيات والهدايا شاكرا . ووضع امام الرسل قرصا من عسل النحل ، وكمية من الفاكهة البرية المجففة ، وقطعة من الخشب ملاها بماء النبع ، فأكلوا وشربوا واخذوا قسطا من الراحة ، ثم هموا بالانصراف عائدين من حيث أتوا ..

ودعهم الناسك في هذه المرة ايضا ، ولكنه اضاف الى كلمات الوداع عبارات طلب منهم أن يعيدوها على مسامع السلطان ..

قال الناسك : « سأقضي ليلة العيد ويوم الفصح جاثيا على ركبتى ، اتضرع الى الله لكى يطيل في عمر الملك الناصر ويزيده عزا على عزومجدا على مجد . ولكن ملاك الموت الحاصد سوف يرفرف بجناحيه فوق هذه الصومعة . ويختطف منها الناسك الغريب الذي حباه صلاح الدين بمطفه وشرفه بصداقته : اننى اخطو نحو نهاية حياتى الخطوات الاخيرة . ففى مثل هذا اليوم من العام القادم ، ستكون هذه الصومعة قد تحولت الى قبر ، وتكون روحى بين يدى خالقها ، ليحاسبها على مسلك هذا الجسم الفانى في هذه الحياة الدنيا !. وهذه اخر رحلة من رحلاتكم ! »



ذهب الرسل ، وبقي الناسك مع ذكرياته !

عادت به الى الوراة عشرة أعوام كاملة .

جاء « مرثان آدان » واخته « بلانش » الى الارض المقدسة في عام ١١٨٢ ميلادية ، الموافق لعام ٥٧٨ للهجرة ، مع فوج من الجنود

والحجاج الفرنسيين ، ونزلا في مدينة « صور » حيث كان الملك « بودوان » الذي يسميه العرب « بلدوين » يقضى عيد الميلاد ضيفا على الاسقف المؤرخ « غليوم الصوري »

كانت المدينة اللبنانية تابعة لمملكة اورشليم الصليبية ، ومهددة مثل عاصمة المملكة ، بهجوم مفاجيء من جانب القوات التي حشدتها صلاح الدين الايوبي في الديار السورية ، لاسترجاع ارض فلسطين من الافرنج .

ادى مرتان وأخته فريضة الحج الى قبر المسيح في بيت المقدس ، والى مهده عليه السلام في بيت لحم ، واستقرت الأخت في صور حيث انصرفت الى أعمال البر والاحسان ، والعناية بالمرضى والجرحى ، وفاء لنذر قطعته على نفسها قبل أن تغادر وطنها مهاجرة الى الشرق

اما الاخ ، فقد تطوع في جيش الصليبيين ، وعرف بمهارته في استخدام الأجهزة القاذفة للهب والقطران والماء المغلى ، في حصار القلاع والدفاع عن الاسوار ..

ذاعت شهرته بين قوات الصليبيين وقوات المسلمين على السواء .. فان صلاح الدين الايوبي كان حريصا على أن ينشئ في جيشه وحدات متخصصة في مقاومة الوحدات المماثلة لها في جيش العدو . وقد عنى عناية خاصة بتدريب الخبراء الذين عهد اليهم في مواجهة الوحدة التي كان يقودها مرثان اذان ، بالنظر الى ما كان الخبر يلحقه من أضرار بجنود السلطان ، في المعارك وأعمال الحصار التي يشترك فيها .

قضى مرثان خمسة أعوام متنقلا من مدينة الى مدينة ، ومن حصن الى قلعة ، ملبيا أوامر رؤسائه ، مؤديا واجبه كاملا كجندى قطع على نفسه عهدا بأن يحارب بدون هوادة ، وأن لا يكف عن القتال إلا في إحدى حالتين : الموت في الميدان ، أو الوقوع في الأسر

في نهاية السنة الخامسة بعد وصوله الى فلسطين ، ساهم في آخر معركة ، وفي آخر حصار !

ففي صيف سنة ١١٨٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة ، وقع الصدام الرهيب الحاسم بين السلطان صلاح الدين الايوبي وملك الافرنج جى دى لوسينيان ، في سفح جبل حطين ، على ضفاف بحيرة طبريا ، حيث التحم الجيشان في معركة دامية ، كتب فيها النصر لصلاح الدين ، وكانت هزيمة الافرنج كاملة ماحقة ..

افنى الجزء الأكبر من جيش لوسينيان ، ووقع الملك في الأسر مع فريق من قواده وجموع كبيرة من جنوده ، وفر الباقون طالبين

النجاة خلال السهول والهضاب ، على أمل أن يصلوا الى بيت المقدس ويحتموا بأسوارها ..

فى تلك المعركة ، أبلى مرثان بلاء حسنا ، وتفنن فى استخدام سلاحه الفتاك ، مما استرعى أنظار صلاح الدين وقواد جيشه ، وأثار غضبهم المزوج بالدهشة والاعجاب ..

وتمكن الرجل من الفرار بعد الهزيمة ، فكان بين الذين وصلوا الى بيت المقدس ، وقصوا على حاميتها تفاصيل الكارثة التى حلت بالملك وجيشه فى حطين !

قررت الحامية أن تصمد خلف أسوار المدينة المقدسة ، وبدأت تعد العدة للمقاومة ، فى انتظار قدوم صلاح الدين بجيشه المظفر ، وضرب الحصار على عاصمة المملكة ، بعد أن خلا له الجو وفتح أمامه الطريق ..

وتأهب مرثان للمساهمة فى الدفاع ، بعد أن ساهم فى المعركة الأخيرة ..

أسبوعان دار فيهما الصراع عنيفا متواصلا فى الليل والنهار ، بين الجيش المحاصر والحامية المحاصرة . وأظهر مرثان آدان فى استخدام أسلحته ما ألفه منه الفريقان المتقاتلان من تفنن وبراعة وعناد . فأثار الرجل للمرة الأخيرة دهشة بنى قومه ودهشة أعدائه على السواء ..

وسقطت المدينة ..

دخلها صلاح الدين الايوبى دخول الفاتحين فى اليوم الثانى من شهر اكتوبر سنة ١١٨٧ ، أى بعد ثلاثة شهور من معركة حطين التى يعرفها الافرنج بمعركة طبريا ..

أصبح سكان المدينة كلهم ، سواء اكانوا من الجنود ام من غير المحاربين ، أسرى حرب بمقتضى القوانين والتقاليد المعمول بها فى ذلك الوقت .

أفرج عن فريق منهم مقابل فدية دفعت لبيت المال . وأفرج صلاح الدين عن فريق بدون مقابل .. وكان مرثان آدان بين هذا الفريق ..

طلب السلطان ان يجيئوه بقاذف الذهب ، فمثل الرجل بين يدي الفاتح المنتصر ، الذى دعاه الى الجلوس وتبسط معه فى الحديث .. عرض عليه أن يخدم فى جيشه ، ووعده بمكافأة سخية . لكن الرجل

رفض معتذرا ، وقال ان ماضيه كان ناصعا ، فلا يريد ان يلطخ سمعته
بالمار ، فيحارب قومه ، ويفقد بعشيرته !

اكبر صلاح الدين مشاعره ، وكرر له اعجابه بمهارته ، وتقديره
لبطولته ، ثم ختم حديثه معه قائلا :

— أنت حر طليق يا مرثان ، ولكن للقرار الذى اتخذه الان بشأنك
شرطا اود ان اعرف اذا كنت موافقا عليه ..

فقال الرجل قبل ان يذكر له السلطان ذلك الشرط :

— اشكر لك صنعك ايها المولى واود من ناحيتى ان افضى اليك
بالقرار الذى اتخذه انا تجاه نفسى : فقد اعتزمت ان اهجر الحياة
بين الناس ، وان اعتزل الخدمة فى الجيش ، فان وقوعى فى الاسر قد
حلنى من قسمى ، وسأذهب الى جبل لبنان حيث ابحت عن منسك
اقضى فيه بقية العمر !

مد السلطان يده الى قاذف اللهب ، وقال :

— صافحنى يا مرثان : ان الشرط الذى كنت اريد ان اربطك به
هو عهد منك بان لاتحارب رجالى بعد الان . وقد سبقتنى ولييت رغبتى
قبل ان افضى بها اليك .. فاذهب بسلام !

فأكب مرثان آدان على يد صلاح الدين ، وطبع عليها قبلة حارة ،
وقال : « سأصلى لله أيها المولى ، لكى يعيد السلام والمحبة الى هذه
الارض المقدسة ، ويبعد عنها شبح الحرب ، ويجعل الناس جميعا اخوة
وأصدقاء . »

درج صلاح الدين الايوبى على عادة ظل محافظا عليها الى اخر
سنة من حياته ، وقد ذكرها المؤرخون الغربيون وامتدحوا السلطان
من أجلها

ففى اعياد النصرى ، وعلى الخصوص فى عيد الميلاد ، كان الملك
الناصر يبعث بهداياه الى فريق منهم ، ويطوف بنفسه على بعض
البيوت ، ويوزع المال والزيت والدقيق على الفقراء ، ويأمر أحيانا بان
يمتنع جنوده عن القتال فى تلك الاعياد ، ليشركوا لاعدائهم فرصة
الاحتفال بها ..

ولما اقترب عيد الفصح ، بعد سقوط القدس ، اعد صلاح الدين
العدة للقيام بمثل هذا العمل الذى ألفه الناس منه ، وارسل من يسأل
عن قاذف اللهب السابق ، مرثان آدان ، واذا كان قد بر بوعده ،
وتنسك فى الجبال .

وجاءه الخبر اليقين بأن الرجل يقيم في منسك اختاره لنفسه
في مكان منعزل ذكره له .

فالى أين ذهب مرثان آدان بعد اطلاق سراحه من الاسر ؟

زار أخته في مدينة صور ، واطلعها على عزمه . فوافقتة على ما
أراده لنفسه . وقررت من ناحيتها أن تنتقل الى مدينة بيروت وكانت
في ذلك الوقت خاضعة لحكم صلاح الدين - وان تقيم فيها منصرفاً
أيضاً الى مواساة المرضى ..

- أما مرثان ، فقد خرج وحده وتوغل في جبل كسروان من
سلسلة جبال لبنان ، فصعد في وادي نهر الكلب ، وبلغ الجرد حيث
اختار موضعاً بالقرب من ملتقى نهر اللبن بنهر العسل وقرر أن يكون
هناك منسكه ..

بنى بيديه كوخاً من أغصان الشجر ، عند الجسر الطبيعي المكون
من صخرة واحدة تربط بين ضفتي الوادي ، وهو المعروف باسم «جسر
الحجر» ، ويعتقد الناس ، بناء على أسطورة تناقلتها الاجيال المتتابعة
أن ابانا آدم عليه السلام هو الذي رمى الصخرة من ضفة الى ضفة
يوم مر بلبنان بعدطرده من الجنة !

فقد اعتبر مرثان آدان أن الاقدار هي التي ساقته الى ذلك المكان
فاسم «آدان» هو التحريف الافرنجي لاسم « آدم » وجسر الحجر الذي
رفعه أبو البشرية بيديه القويتين خير مكان أذن لاقامة الناسك الهارب
من الناس !

هناك استقر مرثان آدان - أو آدم - خمسة أعوام كاملة ، في عزلة
وتقشف وصلاة ، بعد أن خاض غمار المعارك خمسة أعوام سابقة ..

والى هناك أوفد اليه صلاح الدين الايوبي رسلاً يحملون اليه
تحيات السلطان وهداياه في عيد الفصح بعد سقوط بيت المقدس وأنهيار
مملكة اورشليم ..

والى هناك كان الرسل يقصدون في كل سنة ، في مثل ذلك اليوم
لاداء تلك المهمة ..

وكان الناسك يتقبل الهدايا والعطايا بالشكر والدعاء للسلطان
الكريم ..

وبعد انصراف الرسل ، كان يخرج من منسكه ، ليوزع ما تلقاه
في العيد على الفقراء والمعوذين من سكان القرى والحقول ، في تلك
الجبال الوعرة

زارته أخته مرة واحدة ، وماتت في بيروت بعد سنتين من انتقالها اليها من مدينة صور ..

كان الرسل يخرجون اليه من بيروت او من دمشق، حسب الظروف والاحوال ، وكان القرويون النصارى يعرفون المهمة النبيلة التى من أجلها يجتاز أولئك الرسل جبالهم ، فيرحبون بهم ، ويرافقونهم أحيانا الى مقر الناسك عند جسر الحجر ، ليشاهدوا القديس يأخذوا بركته ..؟

للمرة الخامسة ، فى سنة ١١٩٢ ميلادية الموافقة لسنة ٥٨٨ للهجرة، جاء الرسل من دمشق ..

وللمرة الخامسة تقبل الناسك الهدايا ، وكان بينها فى هذه المرة صليب قالوا له ان السلطان يخصه به : لانه ملك اناسك مثله ، جاء من جبال الاردن الى بيت لحم لزيارة مهد المسيح ، فقضى نحيبه هناك، ورأى السلطان أن يكون صليبه من نصيب الناسك مرنان .

وفى تلك المرة ، فاه الناسك بالعبارات التى وعده الرسل بان ينقلوها الى الملك الناصر : « .. فى مثل هذا اليوم من العام القادم ، ستكون هذه الصومعة قد تحولت الى قبر ، وتكون روحى بين يدي خالقها .. وهذه آخر رحلة من رحلاتكم . »



هل قرا الناسك المتعب ما يخبئه الغد ، فى صفحات الغيب لا ..

فى أوائل سنة ١١٩٣ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٨٩ للهجرة ، فاضت روح الملك الناصر صلاح الدين الايوبى فى دمشق الفيحاء .. وعمت المآتم وارتفع النواح فى جميع ارجاء الدولة المرامية الاطراف .

وفى عيد الفصح من تلك السنة ، لم يخترق رسل السلطان على بغالهم جبال لبنان فى طريقهم الى جسر الحجر ..

ولما قصد سكان القرى الى صومعة الناسك الغريب ، وجدوه قد فارق الحياة منذ بضعة ايام ..

كان ممددا على ظهره ، وقد ضم يديه على الصليب الخشبي الذى جاءه هدية من السلطان فى العيد السابق ولم تقترب منه الوحوش الضارية ، ولم يتطرق الفناء الى جثمانه

فتنادى الناس للصلاة عليه ، ودفنوه فى المكان الذى تنسك فيه !



وفاء السلطان

القتال على أشده ، والصراع رهيب ، وضروب الفروسية من الناحيتين متلاحقة متواصلة . وكفة المعركة تتأرجح بين كر وفر ، تميل ساعة الى هذا الفريق ، وساعة الى الفريق الآخر .

كان ذلك في سنة ٥٧٦ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٠ ميلادية ، يوم داهم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، سلطان المديار الشامية والمصرية ، جيشا من الأفرنج يقوده ملك القدس بلدوين الرابع ، كان قبل بضعة أيام قد نصب كميناً لكوكبة من الفرسان العرب ، وأفناها عن آخرها ، فأسرع السلطان الى الأخذ بثأر رجاله ، قبل أن تبرد دماؤهم ، فوقع الاصطدام بين الجيشين في بلدة مرجعيون ، بجبال لبنان الجنوبية .

لم يكن عدد المقاتلين كبيراً من الجانبين ولكن وجود الملكين في مقدمتهم جعل منهم جميعاً أبطالاً صناديد ، فأبوا إلا أن تكون المعركة حاسمة . فاصلة ، وحولوها الى مجزرة كست أشلاؤها الأرض وصيفتها الدماء بحمرة قانية .

وفي غمرة الممعة ، أخذت عين صلاح الدين منظراً طار له قلبه جعل منهم جميعاً أبطالاً صناديد ، فأبوا إلا أن تكون المعركة حاسمة المقربين اليه ، كبت به فرسه ، فاوشك أن يهوى عنها ، واحاط به ثلاثة من رجال بلدوين ، شاهرين سيوفهم تأهباً للفتك به ..

أصيب الفارس بضربة سيف في كتفه ، وقبل أن تدركه ضربة ثانية كان صلاح الدين قد وثب وبادر الثلاثة بضربات ثلاث صائبات ، فأنقذ الرجل من موت محقق ..

وعانقه ، لا عناق الرئيس لرؤوسه ، والمتبوع لتابعه ، بل عنناق الصديق لصديقه ، والاخ لاخته ..

لكن السلطان أصيب أيضاً ، في ذلك الاشتباك ، بجرح في زنده اليمين ، من ضربة سيف سددها اليه واحد من الثلاثة قبل أن يصاب بدوره ..

واختلط دم الجريحين في ذلك العناق الاخوي .. وتم الأخذ بالثأر في تلك المعركة . فقد انجلت عن احراز العرب انتصاراً رائعاً ، ووقوع بعض القواد الأفرنج في الأسر فافتداهم الملك بالمال ، وتهادن الفريقان وكفا عن القتال لدفن القتلى ونقل الجرحى الى مكان أمين .



في بيت منزول ، عند مشارف مرجعيون ، جلس صلاح الدين بجوار الفارس الذي أنقذ السلطان حياته في المعركة ، وراح يواسيه بنفسه ، ناسياً أنه مصاب مثله بجرح يتطلب الاسعاف والعناية ...

قال الفارس الجريح وهو يلثم اليد التي دفعت عنه الموت بضربات
السيف الثلاث :

— ان حياتك يا مولاي لاغلى بكثير من حياتي . فكيف تعرضها للخطر
من اجلى ، وهى الدخيرة الثمينة ، التى تفديها شعوب مصر والشام
بالمهج والارواح .

فاجاب صلاح الدين وقد ارتسمت على محياه امارات القبطة والامل :
— ما فعلت انا اليوم يا صابر غير ما فعلته انت بالامس مرتين . وبلد
الى الآن ان استعيد معك تلك الذكريات الحلوة ، التى عشنا حوادثها معا
جنباً الى جنب ، يارفيق العمر .

وفى سكون الليل ، على ضوء السراج الزيتى ، ينمى الجنود
المنتشرون فى البلدة وحولها ، يأخذون قسطهم من راحة استحقوها
ببطولتهم ، او يتغنون باناشيد قومهم على انعام الناي ، عباد الجريحان
بالذاكرة الى الوراء احواما عديدة . . عادا الى عهد الطفولة ، فى مدينة
يعليك بلبان ، يوم كان يتولى شئونها نجم الدين ايوب ، والحروب
قائمة حولهما على قدم وساق .

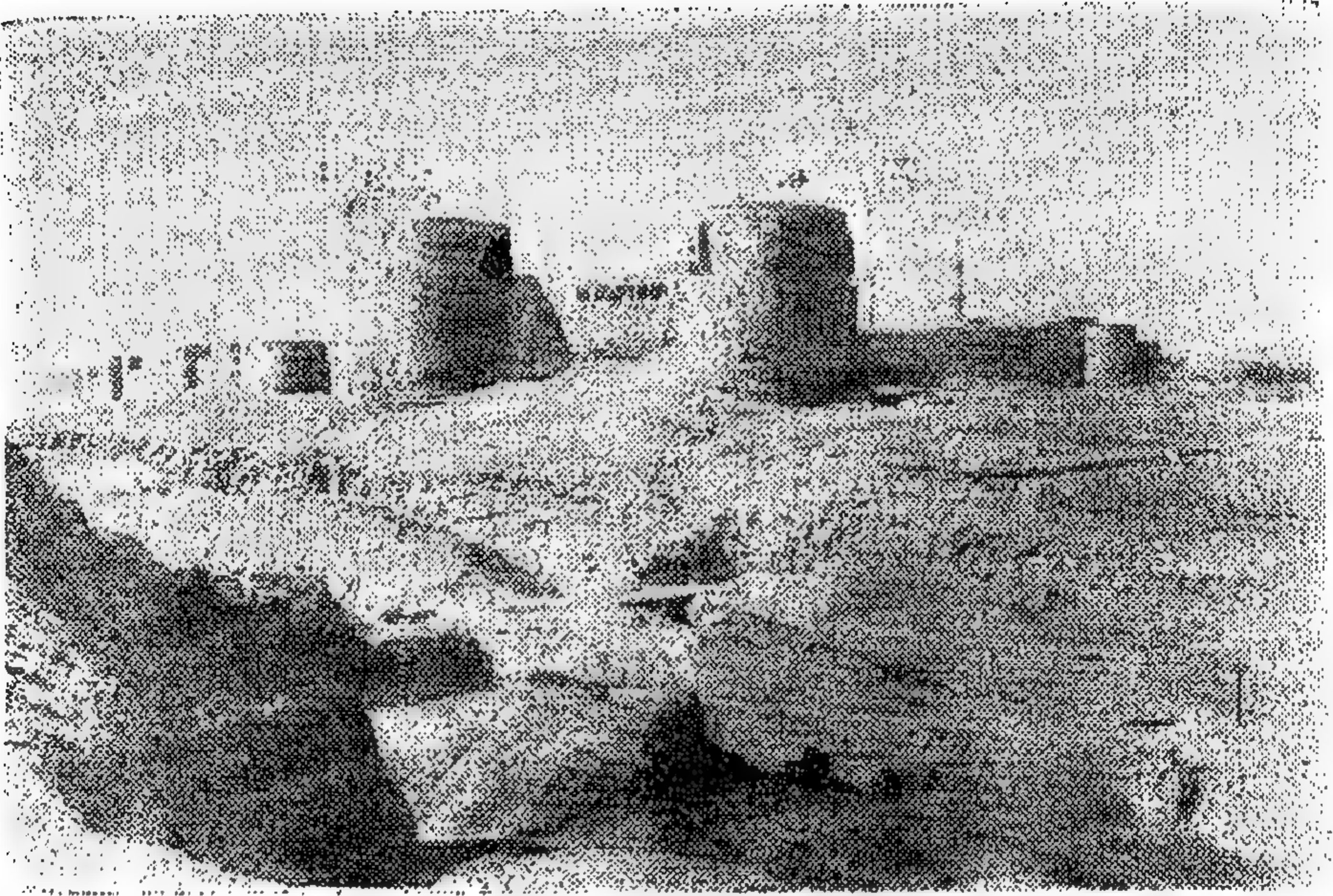
فى المدينة طفلان لايفترقان ، العايبهما مشتركة بينهما ، يخرجان معا
فى مقامرات جريئة ، خلال الجبال والوديان ، وينتصر الواحد منهما
للاخر فى كل مشاجرة يشتبك فيها اطفال المدينة .

الطفلان هما : صلاح الدين بن نجم الدين ايوب ، صاحب يعليك ،
وصابر العمر ، من ابناء العشائر فى جبل الهرمل .

انهما ، بالرغم من صغر سنهما ، ذائبان على التمرين المتواصل على
استخدام الاسلحة من كل نوع ، القوس والسهم ، السيف والرمح ،
الخنجر والفأس . . اما سمما نجم الدين يقول يوما لزوجته ام صلاح
الدين : « صاحب ولدنا الى ميادين القتال يوم يبلغ العاشرة » ؟

انهما اذن يستعدان للقاء ذلك اليوم : صلاح الدين ليرافق اياه ،
وصابر العمر ليلحق بصديقه الصغير . وخزجا ذات صباح الى الهضاب
المحيطة بالمدينة ، وقضيا نهارهما فى رشق السهام ، ومطاردة الحبال
فوق الصخور . ولما انهكهما التعب ، وشعرا بالجوع والظما ، عولا
على العودة ، واستلقيا فى ظل شجرة وارفة ، لاستعادة
انفاسهما ، وتجديد قواهما .

وفجأة ، طلع عليهما ذئب اغبر ، فاغر الفم بارز الاتياب . ووثب
على صلاح الدين وانشب مخالفه فى ذراعه . وفى اللحظة ذاتها ، كان
صابر العمر قد استل خنجره ، وبسرعة البرق اغمد نصله فى عنق



أبراج من عهد صلاح الدين في قلعة القاهرة المعروفة باسمه

الوحش الهائج ، ودار صراع عنيف بين الطفل المدافع عن رفيقه، والدئب الذى ارتد نحوه وقد ضاعف الالم هياجه . ولما افاق صلاح الدين من ذهوله ، كان الوحش ضريبا عند قدميه ، وصابر العمر يواصل طعنه بخنجره وقد أضحت ثيابه حمراء .. وتعانق الصديقان الصغيران ، واختلطت دماء جراحهما في ذلك العناق الاخوى .

لم ينس صلاح الدين ذلك اليوم الذى انقلد فيه صابر العمر حياته ، في هضاب بعلبك ..

بلغ الطفلان العاشرة ، فاصطحبهما نجم الدين ايوب معه الى الميادين، واشتركا في القتال جنبا الى جنب مع الكبار .

بلغا سن الشباب وطور الفتوة ، فازدادت روابط اللفة والتعاون بينهما توثيقا . وبقي صابر ملازما لصلاح الدين ملازمة الظل ، في ايام السلم وايام الحرب على السواء .

تزعزع عرش الفاطميين في مصر ، فتطلع اليه سلطان الديار الشامية نور الدين محمود ، واوفد الى الديار المصرية واحدا من خيرة قواده ، اسد الدين شيركوه ، الذى اصطحب معه ابن اخيه الشاب صلاح الدين يوسف ، فوجد صابر العمر نفسه في مصر مع صديقه .

مات شيركوه فخلفه صلاح الدين ، وتولى الوزارة وقيادة الجيش . ثم قضى على الخلافة الفاطمية ، وخدمه الحظ فمات نور الدين في وقت واحد ، وخلا الجو للايوبي لكى يحقق حلمه ، وهو الاستيلاء على الحكم في البلدين .

كان ذلك في سنة ٥٦٧ للهجرة الموافقة لسنة ١١٧١ ميلادية . وكان صلاح الدين في الرابعة والثلاثين من العمر . وبدأت للعيان بسرعة مواهبه العجيبة ، وتجلت آيات نبوغه ، وراح يقطع المراحل واحدة بعد واحدة ، بقدرة ثابتة وعزم لا يعرف الكلل ، الى الارجاء الذى شاءت الاقدار أن ترفعه اليه .

زحف على سورية بعد أن اطمأن على سلطته في مصر ، وتوالت المعارك وتتابعت معها الانتصارات .

وكان رفيقه الامين الى جانبه ..

حارب معه في دمشق وحلب ، في اللاذقية وحمص وحماء ، في بيروت وصيدا ويافا وعسقلان : كان صابر العمر يعنى براحة السلطان ، ويسرج له الفرس بيده ، ويسهر على اعداد الطعام له ، ويشجده له الأسلحة ويصونها .

وفي معركة حمص ، بين جيش صلاح الدين وقوات حلب والموصل بقيادة سيف الدولة غازي ، في سنة ١١٧٤ م ، حدث ان توغل صلاح الدين كماداته في صفوف المقاتلين ، فابتعد عن رجاله ، وأصيب جواده بسهم فسقط على الارض وفارسه تحته يتعذر عليه الخلاص . ومانجا السلطان من الموت اختناقا في ذلك اليوم ، الا بفضل رفيقه الملازم له ، صابر العمر ، الذي انقذه من ورطته .

وقال صلاح الدين لصديقه ، وهو يضحك مما حدث : « لم تكن الميثة تحت جثة حصان لائقة بمن يقود الجيوش في الميادين يا صابر » ، وتعانق الرجلان ، واختلطت ضحكاتهما في ذلك العناق الاخوى .



مرتان انقذ فيهما صابر العمر حياة الملك الناصر صلاح الدين يوسف : مرة في بعلبك ومرة في حمص ، وهما الحادثان اللذان جعللا السلطان يقول لصابر ، يوم انقذه بدوره في معركة مرجعيون : « ما فعلت انا اليوم يا صابر غير ما فعلته انت بالامس مرتين » .

تلك هى الذكريات التى استعادها الرجلان ، في البيت المنعزل ، على ضوء السراج في سكون الليل .

واستأنف صلاح الدين حروبه وغزواته ، في جبهتين معا . لتوحيد منابقي من الديار الشامية تحت سلطته ، من ناحية ، ولإستخلاص ما تبقى من ارض فلسطين في أيدي الافرنج ، من ناحية أخرى . وظل صابر العمر على ملازمته للبطل الذى وقف له حياته ، وربط مصيره بشخصه . وكان صلاح الدين يكرر دائما قوله لصابر : « لقد وفيت نحولك ديني مرة واحدة . فمازلت انت صاحب الفضل » .

وفي مجانبه مع عظماء الدولة وقادة الجيش ، كان صلاح الدين يكثر من الاشارة الى وفاء صابر واخلاصه ، ويسميه « رفيق العمر » . ومضت الاعوام ، وحقق صلاح الدين احلامه ، وبلغ اهدافه ، وأنشأ في الشرق الادنى دولة عظيمة تنوعت مفاخرها ، وتعددت امجادها ، وترامت في الاتساع حدودها . .

كتب له النصر في معركة حطين ، في سنة ٥٨٣ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٧ ميلادية ، فدخل بيت المقدس ، وحصر البقية الباقية من الافرنج في بضع مدن ومواقع على ساحل الارض المقدسة ، وانصرف الى تدبير الشؤون الادارية والتجارية والصناعية .

عرض على صابر العمر ان يتولى الحكم في اية حاضرة من حواضر الدولة ، فاعتذر رفيق العمر ، ورجا السلطان ان يتركه على حاله ، صديقا ، وملازما ، وخادما ، واجابه صلاح الدين الى رجائه .

في سنة ٥٨٩ هـ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٩٣ ميلادية ، كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى في عاصمته الشامية دمشق . وكان السلم مخيما على أرجاء الدولة . والرسلى يروحون ويجيئون بين المدينة الزاهرة الزاهية ، وعواصم الشرق والغرب على السواء .

وفى بيت صغير متواضع ، على مقربة من قصر السلطان الباذخ، كان صابر العمر قد استقر وحيدا ، لا أهل ولا زوجة ولا أبناء حواه . ظل يعيش من أجل السلطان ، ومن خير السلطان ، الذى ظل من ناحيته يفمره بعطفه ، ولا يخرج من العاصمة بدون أن يسمح له بأن يكون فى ركابه وبين حاشيته .

قال صابر العمر ذات يوم لصلاح الدين ، والقلق والاضطراب باديان على وجهه : « انك تعلم يامولاي اننى ممن يصدقون الاحلام ويجيدون تفسيرها . ولقد طالما بعث ذلك ابتسامة على شفتيك ، ووصفته بأنه اوهام فى اوهام . ولكننى بالامس حلمت حلما ازعجنى . فقد رايتك فى المنام عائدا من رحلة صيد ووجهك شاحب ، والعرق يتصبب من جبينك . فقلت لى ان الرحلة كانت شؤما عليك . وانها ستكون الاخيرة . »

فابتسم الملك الناصر وقال لصاحبه : « وما معنى هذا الحلم يا صابر ؟ »

واجاب الرجل : « معناه يامولاي مطابق لما حلمت به . وقد علمت انك خارج الى الصيد فى صباح الغد ، افلا تصفى الى نصيحتى ، وتعديل عن عزمك ؟ »

فابتسم صلاح الدين ايضا ، وقال لرفيقه : « لقد حلمت انا ايضا ، فى الليلة الماضية ، بأننى كنت اعاتب نفسى فى أحد مجالسى ، وعلى مسمع من رجال حاشينى ، فقلت لهم اننى مدين لك بالحياة مرتين ، وقد كنت لك وفيما مرة واحدة ، وبقي على ان اكون وفيما مرة ثانية . وستكون المرة الثانية يوم يصيبك ، لا سمح الله ، اذى . فاذا أدركك الموت قبلى ، لحقت بك . واذا أدركنى قبلك ، كان موتى تصفية لدينى لك . »

وسكت الملك الناصر ، ومزق صابر العمر السكوت بقوله : « وهذا ايضا يامولاي حلم لا يبشر بالخبر . فاستحلفك بالله بأن تلزم قصرى غدا ، ولا تخرج الى الصيد . واذا فعلت ، فاننى سوف اتخلف عن مرافقتك للمرة الاولى فى حياتى . وسوف أقضى يومى فى المسجد الاموى ، أصلى واتضرع الى الله بأن يحفظك ويبعد عنك الشر والاذى . »

وللمرة الاولى ، خرج صلاح الدين يوسف الايوبى فى رحلة لم يكن فيها رفيق العمر صابر العمر فى ركابه . ظل اسبوعين كاملين يطارد الغزلان ويصطاد الطيور فى البرارى والجبال ، شرق العاصمة دمشق . وكان يصحبه أخوه الملك العادل ، ونخبة من الفرسان والرماة . .

وعاد من رحلته مريضا .. أصابته الحمى الصفراء ، فلزم فراشه .. وأسرع صابر العمر الى قصر السلطان ليطمئن على صحته . وكان قد قضى تلك الايام كلها في الجامع الكبير ، لايفادره في النهار ولا في الليل ..

تمتم صلاح الدين قائلا : « هاقد تحقق حلمك يا صابر . فياليتني اصفيت الى نصيحتك وغملت بها . »

فأجاب صابر : « عسى الله يامولاي أن يحول دون تحقيق حلمك أنت . »

وتعائق الرفيقان ، واختلطت أنفاسهما في ذلك العناق الاخوى .

تحقق الخلم الثاني .. فقد عاد صابر العمر الى بيته ، مصابا بالحمى الصفراء مثل سبده ، وقد انتقلت اليه العدوى منه .

وفي السادس والعشرين من صفر سنة ٨٩٠ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٩٣ للميلاد . في أثناء النهار ، مات صابر العمر ، وهو يذكر اسم صلاح الدين يوسف ، ويرجو له الشفاء من مرضه .

وفي السابع والعشرين من صفر ، لفظ الملك الناصر الايوبي أنفاسه الاخيرة ، في السادسة والخمسين من العمر .

لم يترك مالا ولا عقارا . ولكنه ترك مجدا خالدا واسما لا تزال حروفه ترن في آذان التاريخ .

وكان بموته وفيما لصديقه مرة ثانية . فقد مات « رفيق العمر » في النهار ، ولحق به السلطان في الليل . أما الرفيق المتواضع الذي لازمه في حياته ولم يفارقه الا يوم موته ، والذي رفض المال والمناصب ، ومات في بيت صغير ، فقد نسي الناس اسمه ، ولا يعرف أحد في أية بقعة من المدينة الكبيرة يرقد رقاذه الاخير .

یوسف

الحیسی



سنة ١٢١٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٦١١ للهجرة ، تنادى ملوك
في الافرنج ملبيين دعوة البابا ، وقرروا تجريد حملة صليبية جديدة
لانتزاع الاراضى المقدسة من ايدى المسلمين ، بعد ان ادت وفاة الفاتح
العظيم صلاح الدين الايوبي الى تطرق الضعف فى دولته المترامية الاطراف ،
والتي اقتسمها خلفاؤه من بعده . وعرفت تلك الحملة فى التاريخ باسم
« الحرب الصليبية الخامسة » .

نقلت اذن مئات من السفن الاجناد والعتاد الى الساحل السورى
وبعد انقضاء سنة كاملة فى اخذ ورد لا طائل تحتها ، وتهرب كل فريق
من الالتحام بالفريق الاخر ، تحركت الحملة من جديد ووجهتها مصر .
والقت السفن مراسيها امام ميناء دمياط وشاطئها . وكان ذلك فى سنة
١٢١٧ ، الموافقة لسنة ٦١٥ للهجرة .

دافع عن المدينة المصرية فى تلك المحنة الامير نصر الدين محمد ،
ابن الملك العادل سيف الدين ، الذى آل اليه الحكم فى مصر بعد وفاة
اخيه صلاح الدين . . وكان فى القدس فاسرع الى نجدة ابنه ، ولكن المنية
وافته قبل ان يصل الى مصر ، فنودى بنصر الدين سلطانا باسم الملك
الكامل .

ودارت رحى القتال بين المصريين والافرنج . وسقطت دمياط فى
قبضة هؤلاء بعد بضعة شهور من دفاع مجيد وصراع مرير . وتراجع
الملك الكامل بجيشه ، واستقر فى مكان انشأ فيه مدينة عرفت فيما
بعد باسم « المنصورة » .

وبات الفريقان صامدين وجها لوجه ، يرقب كل منهما الاخر ،
ويتحفظ للانقضاض عليه : الافرنج يريدون التوسع والتوغل فى داخل
البلاد ، والمصريون يتأهبون لاسترجاع ما ضاع من ارض وطنهم . . .

فى هذه الاثناء ، وصل الى مقر السلطان الملك الكامل نصر الدين
محمد ، رجل غريب فى نهاية العقد الثالث من العمر ، تصحبه امرأة فى
العقد السابع ، متكئة على ذراعه ، تجالذ المرض البادى عليها بوضوح .
وكان الرجل اعزل من كل سلاح ، لا يحمل غير عصاه ، وقد علق فى كتفه
جرابا فيه زاد وماء .

طلب الفريقان بالحاح الثول بين يدي الملك الكامل فاذن لهما نصر
الدين ، وعرف منهما ان المرأة فرنسية وان الرجل الذى يصحبها
هو انها . .

وأصفى السلطان اليهما وهما يقصان عليه قصتهما ، ويفضيان
اليه بالفرض الذى من أجله غادرا دمياط وطلبا الثول بين يديه

فقلت المرأة :

— ايها الملك : ان هذا المجندى الذى تراه امامك بلا سلاح ، ولدنى الارض المقدسة منذ حوالى ثلاثين سنة ، اى فى الفترة من الحرب الصليبية الثالثة التى حاصر فيها الصليبيون مدينة عكا ، وحاصر جيش صلاح الدين الايوبي المحاصرين انفسهم من البر ، فاصبحوا بين نارين : نار الحامية فى داخل الاسوار ، ونار الجيش الذى احاط بهم من الخارج فهناك ، فى معسكر الافرنج ، وضعت مولودا هو هذا الذى تراه معنى الان . وقد مات زوجى بعد مولد الطفل بأسبوعين ، فى وثبة من وثبات جيشنا على اسوار المدينة المحاصرة ..

فقاطعها الملك الكامل سائلا :

— وما الذى حملك على مرافقة زوجك ؟

— الرغبة فى الحج الى بيت المقدس . وقد تحققت رغبتى ... ولكن دعنى اقص عليك الحوادث حسب وقوعها .. فقد بلغ الطفل نهاية السنة الاولى من عمره ، والحالة باقية على ما كانت عليه : الافرنج يحاصرون المسلمين فى داخل المدينة ، والمسلمون يحاصرون الافرنج من الجبال والسهول الواقعة حول عكا .. وفى ذات يوم ، فوجئنا بهجوم كوكبة من الفرسان على احد اركان المعسكر ، وفى غمرة الضوضاء والاضطراب ، تفقدت ولدى فلم أجده . وعلمت ان المهاجمين عادوا على اعقابهم ومعهم اسلاب واسرى ، وان واحدا منهم اخذ الطفل وانصرف به من حيث جاء ! .. وطار لى .. فجعلت ابكى واندب حظى : لقد مات زوجى وفقدت وحيدى ، وانا فى بلاد الغربة . فهل يبقى على الا ان موت كمدا وحسرة . غير ان بعض الجنود من رجالنا نصحونى بأن اذهب بنفسى الى قائد المسلمين وكبيرهم صلاح الدين الايوبي ، وكان فى ذلك الوقت مع رجاله امام عكا ، واشكو اليه ما حدث . فذهبت ... نعم ذهبت بنفسى الى ذلك الملك العظيم العادل الرحوم .. وركعت امامه ... فامسك ييدى وامرنى بأن اقف على قدمى .. وسألنى ماذا اريد فقلت له : اريد ولدى الذى سرقه رجالك من كنفى فحرمونى فلذة كبدى .. وامر السلطان فى الحال بأن يجرى البحث عن الطفل .. فعاد رجاله يقولون انه بيع فى السوق وان امرأة اشترته ... فامر صلاح الدين بأن يؤخذ الطفل من المرأة ، على أن يعاد اليها الثمن الذى دفعته ، من ماله الخاص .. وهذا ما حدث : فقد عاد الى ولدى . ولما سألت السلطان كيف يمكننى أن أعبر له عن فرحى وعرفانى لجميله ، قال لى « ليكن اسم هذا الطفل « يوسف » واذا وجدت نفسك واياه فى محنة مرة اخرى ، فتعالى الى صلاح الدين كما جئت اليه اليوم ! .. »

وسأل الملك الكامل ، مشيرا الى رفيق المرأة :

— وهذا هو يوسف ؟

— نعم ، هذا هو الطفل يوسف ، الذى أصبح الآن رجلا .. وقد اذن لى صلاح الدين ، بعد ذلك الحادث ، بالذهاب الى بيت المقدس فى حراسة اثنين من رجاله . فذهبت ، وقمت بفريضة الحج الى قبر السيد المسيح ، ويوسف الصغير على ذراعى ...

سكتت المرأة . فقال نصر الدين :

— علمت الآن كيف بدأت قصتك منذ ثلاثين سنة .. فهل لك ان تطلعيني الآن على ما حدث فى خلال هذه المدة الطويلة ، وما الذى قادك الى مصر مع يوسف الذى أصبح كبيرا ؟

فاجابت الفرنسية :

— لقد جاء دوره ... فهو الذى سيروى لك بقية القصة ..

كانت المرأة تتكلم بالعربية . وتابع ابنها الحديث بالعربية ايضا

فقال :

— مكثنا فى الارض المقدسة خمسة أعوام ، لقينا خلالها من السلاطان صلاح الدين ، ثم ممن خلفوه فى الحكم هناك ، كل عطف ورعاية ... وتعلمت اللغة العربية من صغرى ، كما تعلمتها امى ايضا ، ثم رحلنا عائدين الى وطننا فرنسا ، ومنذ ذلك الوقت حافظنا على عادة التخاطب بهذه اللغة فيما بيننا .. وقد ترعرعت وكبرت ، وذكرى تلك الايام الاولى من حياتى باقية فى ذهنى راسخة متينة .. اما الآن ، فقد التحقت بالحملة الصليبية وجئت ثانية الى الشرق ، لا لكى احارب واقاتل ، بل لكى ازور المكان الذى ولدت فيه ، وافضى الى الذين خلفوا صلاح الدين فى الحكم بما احفظه فى نفسى من اجلال وتمجيد للذكرى ذلك العاهل النبيل .. وانت ايها الملك خليفته على عرش مصر ... والحرب قائمة الان بينك وبين جماعة من بنى قومي ، نزلوا فى ارض هى ارضك ، واحتلوا مدينة هى ملكك .. وقد جئت الآن اقترح عليك ، بدون استشارة احد من قادة الافرنج ، التوسط بينك وبين أعدائك لعقد صلح يكون فى مصلحتك لا فى مصلحتهم .. فهل لك أن تأتمنى وتطلعنى على رغباتك وشروطك ؟

فأجاب الملك الكامل :

— أعطنى فرصة يوما وليلة للتفكير فى الامر . وانت وأمك منذ

هذه اللحظة ضيفان على !

كان الملك العادل في مركز حرج . فالاعداء على الابواب . بل انهم طرّقوا تلك الابواب واقتحموا منها واحدا . وابناء عمومته وحلفاؤه من الامراء غير قادرين على نجدة ، لان كلا منهم منهمك في اعداد العدة للدفاع عن نفسه واملاكه . فلا سبيل الا للتفاوض والتضحية ، ريثما تسنح فرصة اخرى لاخذ الثأر .

اوفد نصر الدين اذن الزائر الفرنسي يوسف الى قادة الافرنج في دمياط ، وعرض عليهم بواسطته ان يسلمهم خشبة الصليب التي اخذها صلاح الدين من ملك القدس في معركة حطين ، سنة ١١٨٧ للميلاد وان يتنازل لهم ايضا عن ثلاث مدن في الارض المقدسة ، مقابل رحيلهم عن دمياط واعادتها الى اصحابها ..

ذهب يوسف الى دمياط ، وبقيت أمه في ضيافة السلطان الذي قدمها لزوجته « مؤنسة خاتون » ابنة عمه صلاح الدين الايوبي ، فآكرمت وفادتها ، واتخذتها منذ اللحظة الاولى صديقة لها ..

ومضت أسابيع والرسول لم يعد من رحلته : ذلك لانه لم يوفق الى اقناع رفاقه بقبول الشروط التي كلفه الملك الكامل بعرضها عليهم . وعبثا حاول الرجل ان يبعث الخوف الى نفوسهم ، قائلا ان السلطان يناهب للاخذ بالثأر ، وانه قادر على مهاجمتهم واسترجاع المدينة منهم قوة وقسرا . فقد ظلوا متشبثين بعنادهم . ولما أدرك يوسف ان لا فائدة من أطالة البحث ومواصلة الجدل ، قفل راجعا الى الملك الكامل واطلعه على ما حدث .

وقال الرجل :

— ايها المولى : اننى اعود اليك وفي نفسى ما فيها من موجدة على بنى قومي . وقد نبت لدى انك كريم مسالم ، وانهم لا يضمرون غير الشر .. ولهذا ، فاننى انصحك بمضاعفة جهدك في الاستعداد للقتال واضع تحت تصرفك خبرتى ومعرفتى بحالة قومي اكثر منك ، ان كنت تؤمن باننى مخلص صادق .. فقد عرضت عليهم صلحا بشروط سخية رفضوها . وهم يعتقدون ان فى وسعهم مهاجمتك والتغلب عليك . ولكنهم فى اعتقادهم مخطئون .. فانت امنع مركزا منهم ، وجيشك أوفر عددا من جيشهم وفى وسعك انت أن تكون المهاجم الغالب ..

فسكت الملك الكامل ، واطرق مفكرا ، ثم خاطب الغريب بلهجة تنم عن الشك فقال :

— ولكن ... كيف تعمل ضد قومك ، وكيف تحمل السلاح فى وجه بنى وطنك ؟

— فأجاب يوسف :

— لن أحاربهم بالسلاح كما أننى لم أحاربكم انتم بالسلاح ، ولن أقتل واحدا منهم كما أننى لم أقتل أحدا منكم . . . ولكنى مدين لواحد من ملوككم بالحياة . ولولاه لكنت الآن بين العبيد الأرقاء فى قصر من قصور الشرق . فان صلاح الدين لم يهبنى الحياة فقط ، بل وهبنى الحرية أيضا ، كما وهبها للمرأة التى أحبها أكثر من أى شخص فى العالم وهى أمى! . . . أما هؤلاء الذين اغتصبوا منكم مدينة وأضرموا فيها النار، واستعبدوا سكانها ، فانهم يشيرون فى نفسى استنكارا واشمئززا . فلا أرى أن فى مساعدتكم على تخليص مدينتكم من قبضتهم خيانة نحو وطنى وقومى ، وخروجا على ما يفرضه على ضميرى! . . . وأقسم لك بالله الذى أعبده ، وبالحب الذى أكنه فى صدرى للمرأة التى ولدتنى وبذكرى الرجل الذى أعادنى طفلا الى هذه المرأة اننى سأكون مخلصا وفيما فيما يمكن أن أسديه إليك من نصائح وأرشادات ومعلومات فى خلال هذا الصراع بينك وبين مفتصبى دمياط !

فمد الملك الكامل يده ، وصافح الرجل الفرنسى . .

واصل السلطان منذ ذلك اليوم تأهبه للحرب بعد ان أيقن ان الصلح بعيد المنال . . وما مرت شهور حتى علم من يوسف ، الذى كان يروح ويجىء بين المنصورة ودمياط ، أن الافرنج تلقوا نجدة من الغرب وأنهم يستعدون للزحف على الجيش المصرى . . .

وأطلع يوسف صديقه نصر الدين على ما توفر عند القوم من أسلحة وعتاد ، وعلى مواضع ضعفهم ، والثغرات التى يمكن أن تنفذ منها الضربات الصائبات الى صدورهم ، وكان مما قاله لهم :

— اننا الان فى وقت الفيضان . ومياه النيل ترتفع يوما بعد يوم . وليس لهؤلاء الافرنج علم بما يحوق بهم من مخاطر بسبب المياه المتدفقة الجارفة . . . فعليك أن تقطع السدود عندما يبدأ زحفهم من دمياط ، لكى تحاصرهم المياه بدل ان يحاصروك هم ، كما حدث منذ ثلاثين سنة ، عندما حاصر عمك صلاح الدين الأيوبى بجيشه ، جيش الصليبيين المحاصرين لعكا . . !

وعمل الملك الكامل بنصيحة يوسف .

فما بلغه خبر خروج الافرنج عليهم بخيلهم ورجلهم من مدينة

دمياط ، حتى أوفد رجاله ليقطعوا سدود النيل . وتدفقت المياه من
تل صوب ، واحاطت سيولها بالجيش الزاحف ، فاذا بالافرنج يجدون
أنفسهم محاصرين في أرض تحولت في بضعة ايام الى جزيرة منعزلة عما
عداها من أرض مصر ...

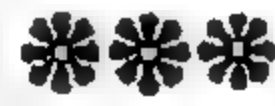
ولم يهاجمهم المصريون . ولم يشهروا في وجوههم سيفاً ولا رمحاً .
بل باتوا في معانقهم يرقبون ، ويرون ذلك الجيش الذي كان بالامس
يزحف في خيلاء وضوضاء وقعقة ، يتحول الى قطيع من الجياع ..

وأرسل قائد الافرنج يطلب المفاوضة في الصلح . فأوفد اليه الملك
الكامل خمسة من رجاله ومعهم يوسف الفرنسى !

وعاد الوفد يعرض على السلطان ، باسم قائد الافرنج ، تسليم
مدينة دمياط بلا قتال ، مقابل ترك الجيش المحصور يتراجع الى المدينة
بلا قتال أيضاً ، ليجر منها الى حيث يريد !

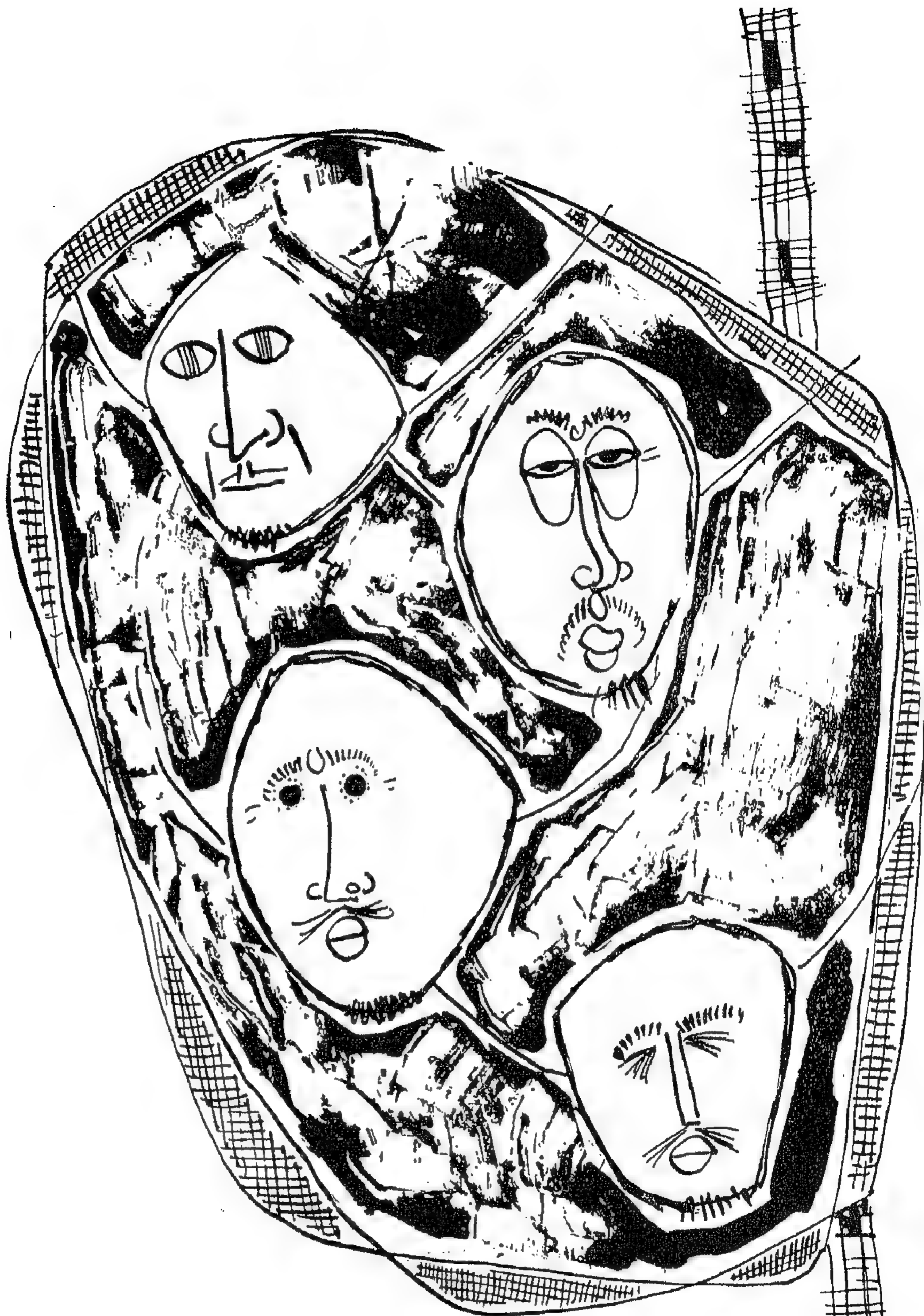
وسلمت المدينة الى الملك الكامل ، وفتح المصريون طريقاً للافرنج
سلكوها نحو الشاطئ حيث أقلتهم السفن الى الغرب ..

وكان ذلك في سنة ١٢٢١ للميلاد - الموافقة لسنة ٦١٨ للهجرة ..



أما يوسف وأمه ، فقد بقيا في مصر ، حيث ماتت المرأة في قصر
السلطان ، بعد ان عملت وصيفة لزوجته مؤنسة خاتون . ولما أصبح
يوسف وحيداً في العالم ، طلب من السلطان نصر الدين السماح له
بالرحيل الى جبل لبنان . فأذن له ، وزوده بمبلغ من المال ، ففادر
يوسف أرض مصر ، وأقام في احدى المغاور الواقعة في سفح جبل الارز،
بوادى قاديشيا ، حيث انصرف الى التنسك والعبادة ، فعرفه الناس
باسم « يوسف الحبس » .

وعاش الناسك طويلاً ، وذاع صيته في البلاد ، وزاره السلطان
يبرس البندقدارى ، في غزوته السورية سنة ١٢٧٧ للميلاد . الموافقة
لسنة ٦٧٥ للهجرة . وكان يوسف الحبس قد جاوز العقد التاسع
من العمر ..



الخنزيرة

في سنة ٦٣٧ للهجرة ، الموافقة سنة ١٢٤٠ للميلاد ، خرج

الافرنج من بعض الحصون والقلاع التي كانوا يملكونها في جنوب جبل لبنان وشمال فلسطين ، وزحفوا على وادي التيم بقصد الاستيلاء على عاصمته حاصبيا ، والانتقام من امرائه الشهابيين لما انزلوه بهم من هزائم سابقة ، فاستنجد امير وادي التيم ، عامر الشهابي ، بجاره عبد الله بن سيف الدين المعني ، امير جبل الشوف ، واصطدم الفريقان جيش الافرنج وجيش الاميرين اللبنانيين ، في مكان يعرف بمرج الخيام، واحتدم القتال اربعة ايام متوالية ، تأرجح النصر خلالها بين الفريقين، حتى استقر في النهاية عند الاميرين ، فانكسر الافرنج وتقهقروا عائدين من حيث أتوا ، حاملين الجرحى ، تاركين القتلى .

في اليوم التالي ، عند الفجر ، استعاد اثنان من المقاتلين وعيهما ، فوجد كل منهما نفسه مستلقيا على الارض بجانب زميله الجريح مثله، وقد امتزج الدم بالدم ، واختلطت الانفاس بالانفاس ..

وتذكر كل منهما ما حدث بالامس ...

في غمرة المعركة ، اشتبك اثنان من جنود الافرنج واثنان من جنود الاميرين ، في صراع عنيف وقتال مرير ، وابتعدوا شيئا فشيئا عن الميدان وتوغلوا بين الصخور ، وانتهى الصراع بأن قتل واحد من كل جانب وجرح الاخران ، وسقط الجريحان جنبا الى جنب على بعد خطوات من القتيلين ..

تبادلا النظرات ، وادركا ان المعركة قد انتهت بدون ان يعرفا من الذي انتصر ومن الذي انهزم ...

وابتسم العدوان كل منهما للآخر ، وقد شعرا فجأة بأن المحبة حلت في قلوبهما محل البغضاء .

— من أنت ؟ .. ما اسمك ؟ ..

— أنا من رجال الكونت فيليب دي مونفور .. التحقت منذ سنة بقائد حصن الشقيف بلبنان .. اسمي ماثيو المرسيلي .. وأنت ؟ ..

— أنا من رجال الامير عامر الشهابي .. جئت من الحجاز .. مقرى مدينة حاصبيا .. اسمي حسن القواس ..

— والرجل الذي كان معك وقتل ؟

— هو أخى .. فرج السياف .. من رجال الامير عبد الله المعنى .. ورفيقك الذى قتل أيضا ، من هو ؟

— هو أخى .. الفونس المرسيلى ..

سكت الجريحان . وراح كل منهما يعالج نفسه ، ثم مال على جاره يعالجه أيضا من جراحه .

حسن القواس يواسى قاتل أخيه فرج .. ومائيو المرسيلى ينزع من قميصه رباطا للذراع الذى قتل أخاه الفونس .

وبكلمات قليلة ، عبارات مقتضبة ، املتأ عليها الظروف الرهيبة تفاهم الرجلان ، واتفقا على أن لا يعودا الى مقرهما ، وان يعتزلا الحياة بين الناس ، ويذهبا معا الى مكان بعيد من المدن والقرى ، ويعيشا فى خلوة هادئة ساكنة ، عيشة النساك فى صوامعهم .

ولما اطلت الشمس من خلف الجبال الشاهقة ، وصبت اشعتها على الميدان الذى كان بالامس مسرحا لمذبحة تجلت فيها البطولة من الجانبين المتقاتلين ، كان العدوان اللذان اصبحا صديقين ، يتعدان بين الشعاب ، ويسوقان أمامهما حصانا جريحا مثلهما ، رفعا على ظهره جثتين : جثة القتيل الفرنجى ، وجثة القتيل العربى .

قررا الذهاب الى « جبل الشيخ » الرابض على مقربة من مرج الخيام ، على أن يقضيا فى سفحه أو على قمته ما تبقى لها من العمر . وفى الطريق ، قص كل منهما على الآخر قصته ..

قصة مائيو المرسيلى بسيطة قصيرة ..

جاء الى الارض المقدسة ليزور بيت المقدس ومعه اخوه الفونس ..

سماه رفاقه « المرسيلى » لانه من أبناء مرسيليا ، المدينة الفرنسية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط ، حيث كان يمارس مع أخيه حرفة ارشاد السفن فى دخولها الى الميناء وخروجها منه وبعد سنتين من وصوله الى بيت المقدس ، تم للسلطان صلاح الدين الايوبى الاستيلاء على تلك المدينة على اثر معركة حطين ، فكان الاخوان مائيو والفونس بين الاسرى الذين افرج عنهم السلطان المنصور بدون فدية ، فذهبا الى صور ، ثم الى صيدا ، ثم التحقا بخدمة الامراء الافرنجى الواحد

بعد الآخر ، حتى انتهى بهما الامر الى البقاء في قلعة الشقيف
بلبنان ..

وفي معركة مرج الخيام ، مشيا الى القتال بالرغم من وطأة
السنين ووهن الشيخوخة . وفي خلال المعركة ، اشتبكا في ذلك الصراع
مع الاخوين العربيين ، فكان مصير الفونس الموت بضربة من سيف حسن
القواس وكان نصيب ماثيو ان اصيب بجرح في كتفه افقده الوعي ..
ولكن بعد ان طعن أحد الاخوين طعنة نافذة اودته قتيلا ، وصوب الى
الآخر ضربة مزقت ذراعه .

ولما صحا من غشيته ، وجد نفسه على الارض بين الصخور ، يعانق
الرجل الذي قتل اخاه وأوشك ان يقتله .

اما قصة حسن القواس .. فهي اطول من قصة غريمه ، ومثيرة
اكثر منها ..

كان منذ نعومة اظفاره ، شديد الولع برشق السهام
ومطاردة الغزلان والذئاب والثعالب في جبل الحجاز . فنشأ صيادا
ماهرا ، طبقت شهرته الافاق ، وسارت بذكرها الركبان ، وكثيرا ما كان
يتوغل مع اخيه فرج في بطن الصحارى ، او في الوديان المحيطة بقلعة
- العقبة - او في الهضاب المشرفة على نهر الاردن حيث الحروب
متواصلة بين الامراء من اهل البلاد والغزاة القادمين من
القرب .

في سنة ٥٧٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٣ ميلادية ، قام الافرنج
بمغامرة بحرية وبرية ، فهاجموا بسفنهم سواحل مصر والحجاز ، والبحر
الاحمر ، وتمكن القائد حسام الدين لؤلؤ من التغلب عليهم وتحطيم
مراكبهم وتشتيت شملهم . وكان حسن القواس واخوه فرج بين الشبان
الحجازيين الذين تطوعوا للقتال في تلك الحرب الدموية . فدعاهما
حسام الدين لؤلؤ للذهاب معه الى مصر فلبيا الدعوة ، والتحقا بالجيش
وانتقلا مع الكتائب التي ارسلت الى جنوب البلاد الشامية ، مما اتاح
لهما فرصة الاشتراك في معركة حطين ، بقيادة صلاح الدين الايوبي
ودخول بيت المقدس مع الجيش المنتصر .

في معركة حطين ، وفي حصار بيت المقدس ، ادهش الحجازيان
رفاقهما بما اظهراه من مهارة في رشق السهام والضرب بالسيف ، فاطلق
عليهما صلاح الدين نفسه الاسمين اللذين عرفا بهما فيما بعد : حسن
«القواس» نسبة الى القوس وفرج «السيف» نسبة الى
السيف .

في حطين ، ونب مقاتل افرنجي وشق طريقه بين الكتائب ، رافعا
سيفا ضخما بيديه الاثنتين ، فبادره فرج بضربة من سيفه قطعت اليدين
معا وحزت جزءا من الكتف .

وفي معركة حطين ايضا ، تسلل احد الرماة الافرنج الى الصفوف
الامامية ، وهم باطلاق سهم على صلاح الدين . فبادره حسن بسهم
من قوسه ، صائحا به : « خذها في العين اليسرى » فاصابه في عينه
ونفذ السهم من الخلف .

وبعد معركة حطين ، لما جرى الى خيمة صلاح الدين بملك الافرنج
وقواده اسرى مستسلمين ، امر السلطان بان تقسم لهم اقداح شراب
الورد ، وان يقوم بهذه المهمة الاخوان حسن القواس وفرج السيف
عملا بتقاليد الضيافة ، التي كان الملك الناصر الايوبي
يحرص على التمسك بها .. في السلم والحرب على
السواء .

ولما مات صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٩٣
ميلادية ، بلغ الحزن من الاخوين الحجازيين مبلغه ، وفكرا في العودة
الى موطنهما ، والانصراف من جديد الى الصيد ومطاردة الغزلان والذئاب
والثعالب في الصحارى والجبال والوديان ..

ولكن الاقدار ارادت لهما غير هذا فقد كتب لهما في صفحاتها
ان يظلا بعيدين عن الارض المقدسة في الحجاز ، وان يقضيا
بقية العمر في الارض المقدسة في الديار الشامية ، وان يطوى رفاتهما
سفح جبل الشيخ الاجرد ..

قادتاهما الظروف مرة الى حاصبيا ، القلعة اللبنانية المنيعة التي
اتخذها الشهابيون عاصمة لامارتهم بوادي التيم ، فاستبقاهما الامير نجم
الشهابي عنده ، وكانت شهرتهما قد بلغت مسامعه ، فوافق الاخوان
على البقاء في ذلك الربع ، وقد استهواهما جمال الطبيعة ، واعسادت
وعورة المسالك الى ذهنيهما صورة الجبال التي كانت مرتعا لمغامرات
الشباب ، وسحر لهما مائجلى لهما عند الشهابيين من كرم ونبيل
وشهامة واباء ..

وصادف ذات يوم ان كان الامير سيف الدين المعنى ، صاحب جبل
الشوف ، في زيارة عند جاره وحليفه الامير نجم الشهابي ، فخطر له ان يتقدم
باقتراح الى مضيفه ، وهو ان يتناوب الاخوان الاقامة في وادي التيم
وفي جبل الشوف ، واحد منهما عند المعنيين ، وواحد عند الشهابيين
لتمرين الجنود على ضرب السيف ورشق السهام .

وراق الاقتراح للامير نجم ، ولم يمانع الاخوان . وهكذا بقى حسن القواس وفرج السياف الحجازيان في لبنان ، ضيفين مكرمين على آل معن وآل شهاب ، منذ سنة ٥٩٠ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٩٤ للميلاد . . .

كانا يضطلعان بمهمتهما مع المديرين في الجيشين ، ويخرجان معاً في ساعات الفراغ ، للصيد في الجبال والوديان ، ويتسلقان احيانا سفوح جبل الشيخ - وهو الذى يعرف ايضا بجبل حرمون ، حيث تكثُر الوحوش من كل نوع .

وعلى قمة ذلك الجبل ، شيد الامير نجم الشهابى داراً اعدّها للنزهة والراحة . واليها كان يدعو الاهل والاصدقاء والضيوف ، لقضاء ايام بين احضان الطبيعة ، أو لمطاردة الضباع والذئاب .

ومرت الاعوام متتابعة ، بعضها في هدوء ، وبعضها في اضطراب ، عام في سلم وعام في حرب . وزحف الشيب الى رأس حسن ، وإلى رأس فرج ، ولكن الشيخوخة لم تنل من مهارة الاول في رشق السهام ولا من قوة الثانى في ضرب السيف . .

مات الامير نجم الشهابى وخلفه ابنه الامير عامر ، ومات الامير سيف الدين المعنى وخلفه ابنه الامير عبد الله . وفي عهدهما ، وأصل ابطال وادى التيم وجبل الشوف الاشتراك في المعارك التى كانت الارض المقدسة مسرحاً لها منذ عشرات السنين .

وكانت معركة مرج الخيام آخر معركة خاض الاخوان غمارها . .



في الطريق الى جبل الشيخ ، وفي اثناء الزحف البطيء على سفحه خلف الحصان الاعرج الذى اثقلت ظهره الجثتان ، جثة فرج السياف وجثة الفونس المرسيلى ، عرف كل من الرفيقيين الجريحين قصّة رفيقه ، كما رواها له بنفسه ، وهو يتكىء على عصا من اغصان الشجر ويصعد لاهثاً نحو القمة المكلفة بالثلوج . .

في منتصف الطريق بين القمة والوادي ، توقف الرجلان عن السير فقد ادركهما الظلام ، وبدأ يطرق سمعهما عواء الذئاب الخارجة من جحورها ، فقال حسن : « هذه الذئاب ، سوف نروضها . » وردد ماتيو : « نعم ، سوف نروضها . »

قضيا ليلتهما الاولى في كهف بجوار الجثتين ، وطالما كان حسن القواس من قبل قد آوى الى ذلك الكهف مع رفاق من الصيادين . . وفي

اليوم التالى ، فام الرجلان بدفن الجثتين فى قبرين متجاورين . وجعلا يفكران فى كيفية نزيب حياتهما فى طورها الجديد .. حولا الكهف الى مسكن .. وجلبا من القرى والحقول ماكان لابد منه لاعداد الطعام والفراش والحمىاية من الوحوش .

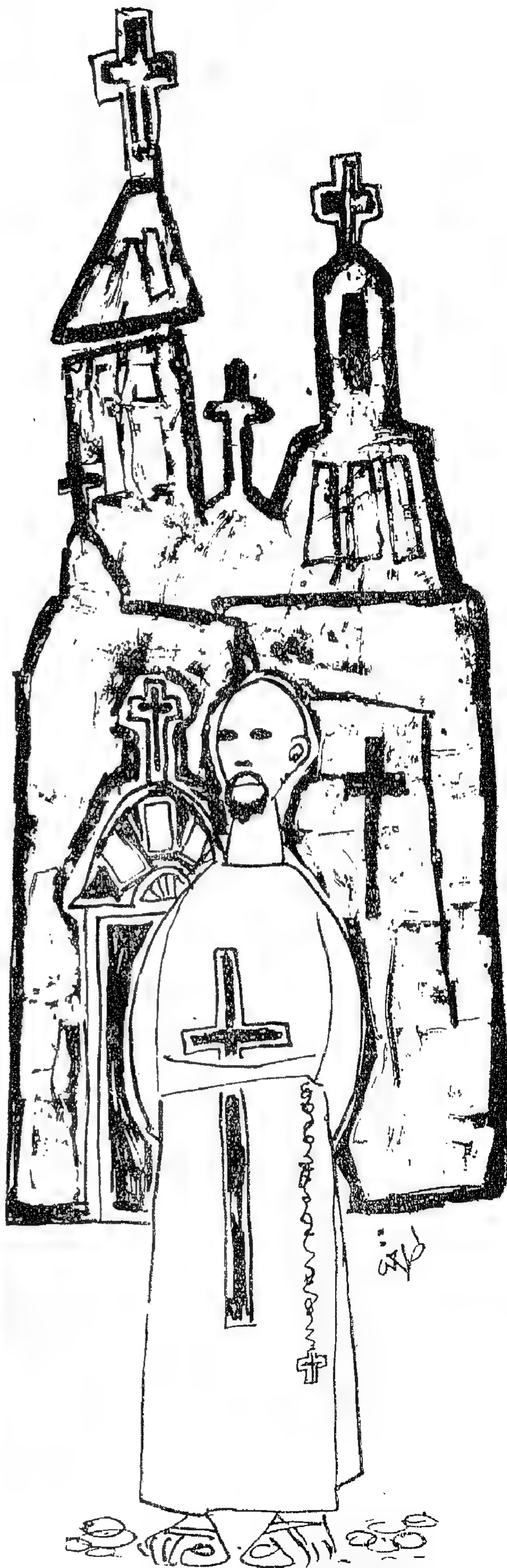
ومرت اسابيع ، وشهور ، واعوام .. عرف الناس بامرهما ، وبما حدث لهما ، وماقرراه من اعتزال الدنيا فى ذلك المنسك البعيد ، فاحترموا ارادتهما ، واكبروا مشاعرهما .. ولم تهدأ الحروب حولهما ، وظلت الممالك دائرة ، متقاربة او متباعدة ، فى الجبال والوديان والسهول والسواحل .. ولكن جبلهما الوعر الشامخ ظل فى منأى عن ذلك التناحر الدموى ، ولم يعكر جوه صليل السيوف وصفير السهام ..

عواء الذئاب وحده كان يعكر ذلك الجو ، لكن عواء الذئاب تفسر مع الوقت بالنسبة الى الناسكين ولم يعد مرعبا مروعاً .. فبعد ان قضى حسن القواس عمره فى اصطياد الذئاب ، ختم ذلك العمر فى ترويضها وساهم معه رفيقه ماثيو فى تلك الهواية العجيبة .

حول الرجلان بصبرهما ، وجلدهما ، ومهارتهما ، ذئاب جبل الشيخ المفترسة الى كلاب اليفة . وعاشا معها بضعة أعوام فى سلام ووثام ، فكانت جيرتها اوفر امانا فى بعض الاحيان ، من جيرة الانسان .

وفى سنة ٦٤٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٥٠ ميلادية حل اجل الناسكين ، وفاضت روحاهما فى وقت واحد ..

او هذا ما اتضح للقرويين ، عندما صعدت جماعة منهم الى الكهف الموحش ، بعد ليلة باردة مظلمة ، تصاعد فيها عواء الذئاب بكثرة ، وتحول الى مايشبه الندب والنواح . فقد وجدوا الصديقين المعجوزين جالسين عند باب الكهف ، وقد وضع كل منهما يده على كتف الاخر ، وقد فارقتهما الحياة .



على مسافة بضعة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة طرابلس،

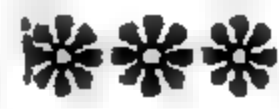
المتربة على شاطئ البحر عند سفح جبل الارز ببلبنان ، دير تكتنفه الحقول والصخور ، وتحمل جدرانه العالية عبء القرون فلا تنوء به وتضم بين جوانبها فريقا من الرهبان الروم الارثوذكس ينصرفون في تلك العزلة الى الصلاة والعبادة ، ويعدون فريقا من الطلبة الفتيان لمرتبة الكهنوت ، ويستثمرون خيرات الارض التابعة لديرهم

يعرف ذلك الدير باسم « دير البلمند » من قديم الزمان ، ويرجع تاريخ انشائه الى اواسط القرن الثاني عشر للميلاد . فقد شيده جماعة من رهبان « سيتو » الفرنسيين سنة ١١٥٧ ، حول كنيسة بيزنطية متهدمة ، واقاموا فيه الى اواخر القرن الثالث عشر . ثم تفرقوا مع من تفرق ن الجماعات الدينية الصليبية .

ولم يتفق المؤرخون على سبب تسمية الدير باسم « بلمند » وعلى اصل هذه الكلمة في لغة الصليبيين الا فرنج . فقد تكون تحريفا لاسم - بلمون - ومعناها « الجبل الجميل » وقد تكون مشتقة من اسم - بوهيمون - احد ملوك القدس ، الذي تولى الوصاية على امارة طرابلس الصليبية ، في السنوات الاولى من حياة الدير

واذا اختلف الناس في تحديد كيفية انشاء الدير وتعليل تسميته فانهم لا يختلفون على الاطلاق في تقدير اهميته من الناحيتين التاريخية والدينية ..

فان دير البلمند يعد من ادوع الآثار في لبنان ، وكنيسته من اقدم الكنائس ، وقبة اجراسه تعد فريدة في شكلها الهندسي .



في صيف سنة ١١٨٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة ، طرقت باب دير البلمند طارق ، في ساعة متاخرة من الليل ، فتردد الراهب القائم على حراسة الباب في فتحه ، على خلاف عادته ، فان ضيافة رهبان البلمند للمسافرين ايا كان دبتهم ، كانت مضرب الامثال في الحواضر والبادي . ولكن بواب الدير في تلك الليلة اراد أن يطمئن الى الطارق قبل ان يرفع مزلاج الباب ، بسبب ما كان يساور نفوس الناس من قلق ، وخواطرهم من هياج ، على اثر الهزيمة الماحقة التي حلت بالجيوش الصليبية على يد صلاح الدين الايوبي ، في معركة حطين ، وانهيار دولة اورشليم ، وتفكك اوصال الامارات الصليبية ..

غير ان طارق باب الدبر لم يكن غير جندي صليبي ، وواحد من

اولئك الذين كتبت لهم النجاة من تلك المعركة ، فهموا على وجوههم
باحثين عن مأوى يأوون اليه لمعالجة جراحهم ، او حصنا يستعيدون فيه
قواهم تاهبا لاستئناف النضال ..

كان الرجل في حالة يرثى لها . فقد اصيب بجراح لم تترك ناحية
من نواحي جسمه سليمة من الاذى . وبلغ منه الضعف والهزال
مبلغهما ، فكان أشبه بمتسول مريض منه بجندى من جنود
الصليب ..

رحب به الرهبان واسعفوه بالعلاج والقوت . وانزلوه في حجرة
من حجرات المضيفة تطل على البحر . وعهدوا الى واحد منهم ، وهو
« الاب روبر » اكبر سكان الدير سنا ، بالعناية بالضيف والسهر
على راحته ..

وسأله عن اسمه فقال : « هنرى التولوزى » ، من جنود القائد
الصليبي « رينو دى شاتيون » الذى قتله صلاح الدين بيده في معركة
حطين »

واضاف الرجل الى هذا التعريف قائلا : « لقد انتهت حياتى كجندى
.. واشعر باننى سائر بخطى سريعة الى القبر . ولهذا فقد رغبت
في الاقامة عندكم لقضاء البقية الباقية من ايامى في طلب الغفران
من الله عن ذنوبى وخطاياى »

وكان جواب الرهبان : « على الرحب والسعة . فديرنا مفتوح
في وجه كل ضيف عابر ، وكل مذنّب تائب »

عبثا حاول الاب روبر ان يعيد الى اللاجئ المسكين صحته وقوته .
فلا الاعشاب ولا العقاقير ولا الصلوات كانت مجدية . وما مرت اسابيع
معدودة على اقامة هنرى التولوزى في دير البلمند ، حتى أدرك الراهب
المكلف بالسهر عليه ان المريض مشرف على الموت ، وان ايامه أصبحت
معدودة . فكاشفه بمخاوفه ، ودعاه الى الاستعداد للقاء ربه

وقابل الرجل دعوة الراهب بهدوء واطمئنان ، كأن الموت لم يكن
في نظره غير مرحلة باقية لابد من اجتيازها ، وكأن هذه المرحلة سيكون
فيها العلاج الناجع والخلاص من العذاب ، فاخذ يد الراهب الشيخ
بين يديه ، وقبلها بحرارة وقال :

— ايها الاب الجليل والناسك القديس ، لقد حاولت انقاذ جسدى
فلم توفق . فساعدنى الآن على انقاذ نفسى من نيران الجحيم . فاننى
أضم في صدرى سرا رهيبا ، اود ان أفشى به اليك .. ليس فقط كانسان

عرف من تجارب الحياة حلوها ومرها ، بل ايضا ككاهن في كـرسى الاعتراف ، ياتمنه المؤمنون على اسرارهم ويسردون خطاياهم ، ويستمدون منه مغفرة ذنوبهم ، وراحة ضميرهم ، قبل ان تفارق روحهم الجسد ، وتقف امام خالقها الديان الاعظم !

فقال الاب روبير :

— اننى اصغى اليك يابنى ، كانسان ، وكاهن ، فخفف عن ضميرك اثقاله ، واعلم ان عدالة السماء فوق عدالة الارض

وفى سكون الليل ، على ضوء سراج زيتى معلق فى كـسوة امام تمثال العذراء مريم ، بين اربعة جدران قاتمة عاربة فى حجرة ضيقة مغلقة الباب جلس الراهب روبير على حافة سرير خشبى ، وجلس الجندى هنرى التولوزى بجانبه ، وراح يسرد قصة حياته ، بصوت هادى عميق ، ونبرات ثابتة ، بدون ان يرفع نظره الى الكاهن ، الذى اخذ راسه بين يديه ، وجعل يصغى الى الجندى بهدوء لا يقل عن هدوئه ، ولكن رعشة خفيفة كانت من لحظة الى اخرى ، تنتاب أصابعه المتجمدة ، فيتكالب بها على وجهه ، أويخفيها فى طيات لحيته البضاء الكثيفة ..

قال هنرى التولوزى :

— ان الاسم الذى احملة يا ابى ليس اسمى الحقيقى . بل انتحلته لنفسى بعد الحادث الذى ساقصه عليك .

— ليس فى هذا ما تؤاخذ عليه يابنى : فانا ايضا احمّل اسما غير الذى عرفت به بين الناس قبل دخولى الدير ..

— كنت اعيش فى بيت واحد مع اخى الكبير فى مدينة طرابلس ، وكان اخى يكبرنى بعشر سنوات . وله زوجة شابة لاتعادلها امرأة فى طرابلس علما وشجاعة وجمالا . ابوها من زعماء المسيحيين فى لبنان وامها ارمنية من انطاكية . وقد سميت « وحيدة » لان أمها ماتت يوم ولادتها .. ولابد من ذكر هذه التفاصيل ياابى ، لكى يمكنك ان تحكم على مدى الفظائع التى سارويها لك ..

— تكلم يابنى واذكر ما شئت من تفاصيل

— مرت ثلاث سنوات على الزواج رزق اخى خلالها من زوجته ولدين ، وكنا نقيم جميعا فى بيت واحد ، فى ظاهر المدينة ، وعلى مقربة من النهر الذى يسميه اهل البلاد — النهر المقدس — ولم يقع فى تلك المدة اى حادث من شأنه ان يعكر صفو حياتنا العائلية السعيدة .. ولو لم يرحل اخى ..

— الى اين رحل اخوك ؟

— خرج الى الحرب وتركنى فى طرابلس لحراسة البيت والسهل
على راحة زوجته وولديه ..

— فحسرت وسمهت .. ؟

— ولكننى تخطيت حدود الحراسة والسهل : فقد احببت وحيدة
وبادلتنى حبا بحب فخانت زوجها من اجللى ، وخنت اخى من
اجلها .

— وعلم اخوك بما حدث ؟

— علم بعد عودته ولكنه لم يكن واثقا من ان الخيانة قد
وقعت .

— وظل بين الشك واليقين ؟

— نعم ولكن شكوكه لم تدم طويلا ، فقد خرجنا ذات يوم الى الصيد
فى الجبال ، نحن الاثنان ، ولم يكن معنا ثالث .. فعاتبنى اخى ، واشتد
بيننا الجدل ، فانكرت التهمة فى بادىء الامر ، ولكنه ضيق على الخناق
وجرحنى بكلمات قاسية ، فصغته بالحقيقة المرة ، ووثب على كالوحش
الكاثر ، فتراجعت وحاولت الفرار ، غير ان ذراعه كانت اسرع من قدمى
فاغمد خنجره بين كتفى ، وسقطت على الارض فاقد الوعي ، وتركنى
اخي على تلك الحالة ، وهرب عائدا الى طرابلس ..

— هذا فظيع !...

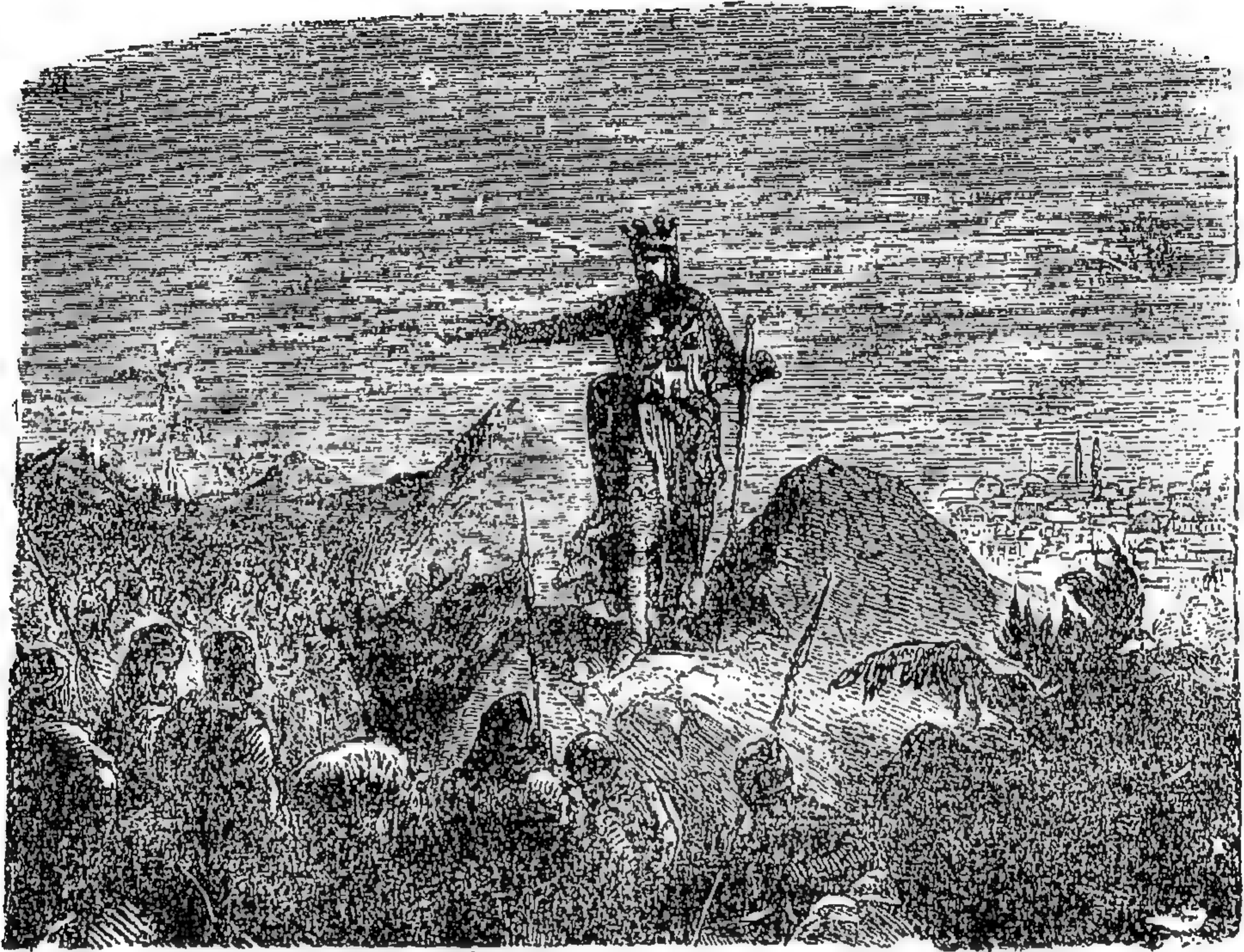
— وما يلى افزع منه يا ابى ، فاعرنى سمعك الى النهاية !

— تكلم يا بنى . فان الله يسمعك هنا كما اسمعك انا

— عاد اخى الى بيته ولم يعلم احد ماذا حدث بينه وبين زوجته
وهل اطلعها على الجريمة التى اقترفها ام لا . والذى عرفه الناس
فى اليوم التالى جعلهم يعتقدون ان اخى قد اصاب بالجنون ، لانهم
راوه فى ساعة مبكرة من الصباح يغادر بيته عارى الرأس صائحا :
« قتلها ! قتلها ! » ويفر الى الجبال لا يلوى على شىء . اما الزوجة
فقد وجدوها مخنوقة فى فراشها وبجوارها الطفلان اليتيمان مرعوبين
منتحبين !

— واخوك ؟

— لم يره احد منذ ذلك الوقت ، وظن الناس انه انتحر
او افترسته الوحوش فى الغابات !



ريكاردوس قلب الاسد
ثلاث مرات وقف أمام أسوار المقدس
وثلاث مرات أحجم عن مهاجمتها

— وائت يا ولدى ؟ .. انك لم تمت ما دمت اراك الان
امامى !

— كلا ، لم امت بالرغم من ان الطعنة كانت غماسة نجلاء ! فقد
عشر على جماعة من الخطابين الجبليين غارقا في بحر من الدماء يسير
الصخور فنقلوني الى كوخ على ضفة الفدير ، وانتزعوني من
الموت انتزاعا ، فعدت الى طرابلس بعد شهرين كاملين .

— عدت للاخذ بشارك ؟

— نعم ، وقد هالنى ان يفلت اخى من يدى ، بعد ان اعتقد انه
تركنى جثة هامدة في الجبال ، وبعد ان قتل المرأة التى تخلت عنه
واحبتنى ، ولم اجد امامى غير الطفلين ، وقد تبناهما الجيران ، فداهما
ليلا وذبحتها بهذه اليد ، التى تمسك بيدك الآن يا ابى

— فعلت هذا ؟ ..

— فعلت هذا وانطلقت هائما على وجهى في البرارى والقفار . . .
وانتقلت الاسم الذى عرفت به منذ ذلك الوقت اسم — هنرى التولوزى —
وقادتنى قدمائى الى حصن من الحصون التابعة لرينو دى شاتيون ، في
البلاد الواقعة شرق الاردن ، فالتحقت بجنود ذلك الامير اللص ، وجعلت
اشاركهم في حروبهم احيانا ، وفي السطو على القوافل احيانا
اخبرى . . .

— وارى ان الممارك التى خضت غمارها قد تركت فيك
آثارها

— ان الجراح التى اصبت بها لا يمكن حصرها في هذا الجسم
البغائى يا ابى ! .. ولكن آلام الجسد لا تقاس بآلام النفس ، فائنى اتعذب
منذ سنين عديدة ، ولم اذق طعم الراحة ليلة واحدة ، خلال هذه الحياة
الملوثة بالمغامرات ..

— وما جاء بك الى هنا ؟

— غلب الصليبيون على امرهم كما تعلم في معركة حطين على
ضفاف بحيرة طبرية ، ووقع ملكهم وامراؤهم في الاسر ، وقتل رينو دى
شاتيون ولجا من لجا من الفارين الى اسوار بيت المقدس ، ولست
ادري ماهى القوة التى دفعتنى في طريق طرابلس ، مسرح جسيمتى
وجريمة اخى . . . ولكننى لم اصل اليها ، بل آثرت دخول هذا الدير على
ان لا اخرج منه بعد الآن ..

— وهذا ما فعله اخوك من قبل يا بنى ؟

— اخى ! ؟

— نعم اخوك شارل ليبار .. يافيليب ليبار! ..
فانتفض الجندي .. ورفع راسه .. والتفت عيناه بعيني الراهب
الدامعتين ..
وسكت الرجلان ، وحقق كل منهما البصر في
الآخر ..

وتمسك الراهب روبر ..
— اما عرفتنى يافيليب ؟ انا اخوك شارل .
— انت .. ؟

— اخوك الذي طعنك طعنة ظننا قاضية ، في سفح الجبل الذي
تعلوه غابات الارز .. اخوك الذي اراد قتلك والذي قتل زوجته
يسيبك .. والذي انتقمته منه بقتل ولديه .

— شارل .
— شارل ، نعم . بعد جريمتي البشعة ، خرجت من البيت لالوى
على شيء ، وفكرت في الالتجاء الى حصن من حصون المسلمين . ثم
قادتني قدامى الى مقر السلطان صلاح الدين ، فطلبت حمايته بعد
ان رويت له ما حدث لى ، وما اقترفته يداي . ولكنه انتهرنى قائلا :
« نحن لانحمى غير الابرار من الناس ، حتى ولو كانوا من الاعداء .
ونطرد الاشرار حتى ولو كانوا من الاصدقاء »

سكت الراهب لحظة ، ثم استطرد قائلا :
— هالنى ما قاله لى سلطان المسلمين .. ولكننى الحجت عليه
بالبطل .. قائلا ان عودتى الى بنى قومي تعرضنى للخطر .. فكان
جوابه :

« اذهب وادخل الدير وكفر عن آثامك . ففى الدين وحده يمكنك
ان تختفى عن الانظار ، بين الرهبان الصالحين »

— وبمسد ؟

— وبعد .. جعلت اتنقل من مكان الى مكان ، وانا افكر فيما قاله
لى السلطان صلاح الدين ، وقررت اخيرا ان اعمل باشارته ، فجئت
الى هنا ، الى هذا الدير ، حيث تلقانى الرهبان بالترحيب ، وافسحوا
لى مكانا بينهم ، بدون ان يسألنى احد منهم عن سبب اعتزالى الحياة
العامة وهربى من العالم والتجائى الى الدير . وهنا عرفت باسم «الاب
روبير » كما عرفت انت بين رفاقك باسم « الجندي هنرى التولوزى »

ظل الاخوان واقفين حامدين لحظة أو لحظات ، يحاول كل منهما ان يفوه بكلمة فيعقد عن النطق لسانه وتعبير الدموع وحدها عما يتلاطم في صدره من عواطف ومشاعر من فرح ممزوج بالالام ، من امل ممزوج بالخسوف ، من رجاء ممزوج بالحسيرة !

وفجأة ، فتح كل منهما ذراعيه ، والقي بنفسه في احضان الآخر ...

وامتزجت زفرات الاخوين التائبين بهدير الامواج المتزاحمة على صخور الشاطئ ...

- شارل !

- فيليب ! ..

- لقد تعذبت كثيرا يا أخى .. وبكيت كثيرا .. وصليت كثيرا من أجلك ومن أجل وحيدة أيضا ، ومن أجل خلاص نفسى فى الآخرة ! ... ولكننى لم انج من تبكيت الضمير .

- وانا ياشارل .. لم يكن عذابى أقل من عذابك .. لقد قتلتنى ، او حاولت قتلى ، وقتلت زوجتك لانها كانت خائنة كما كنت انا خائنا فنحن الاثنان كنا مذنبين نستحق القصاص ... اما انا ، فقد اخمدت انفاس طفلين بريئين ، لم يقترفا اثما ، ولم يستحقا عقابا ... ولهذا فان جريمتى افزع من جريمتك .

- نحن فى الاجرام سواء عند الله ، وعنده سواء فى العقاب . . . فلنفزع اليه معا ، يا أخى ، لعله يرحمنا ويغفر لنا ..
- لقد غفرت لك ياشارل فاغفر لى انت ! ..

- وانا ايضا غفرت لك يا فيليب !

ركع الاخوان جنبا الى جنب ، وانبعث من صدريهما دعاء واحد ، وانطلقت من بين شفاههما صلاة واحدة ، فارفعت الى الله عز وجل فى عليائه .. :

« ربنا ، تقبل توبتنا ، وامح خطايانا ، واصفح عن ذنوبنا ، وارحم ضحايانا ، وانسح لنا مجالا فى ملكوتك السماوى ، فقد كفرنا بما عايناه من عذاب عما ارتكبناه من جرائم . انك الرحمن الرحيم ، السميع المجيب .. آمين »

ثم نهض الاخوان ، وتعانقا مرة اخرى ، وقال الاب روبير - اوشارل لآخيه هنرى - او فيليب :

- شاركنى ياأخى فى الدعاء الى الله بان يحفظ السلطان صلاح

الدين ويجازيه خيرا عما اسداه الى من نصبح يوم لجأت اليه . فلو لم
يسر على بأن اذهب الى الدير واكفر فيه عن آثامي ، لما جئت الى هنا
ولما النقينا معا في هذا المكان ..

اشندت في اليوم التالى وطأة الضعف على فيليب ليبار ، المعروف
بهنرى التولوزى ، ففاضت انفاسه الاخيرة بين ذراعى اخيه الاكبر ،
شارل ليبار ، المعروف بالاب روبر فقد اغمض الراهب عينى اخيه باليد
التي طعنته بالخنجر ، قبل ذلك باعوام كثيرة لتقتلع روحه من بين
جنبه ...

وشاءت الاقدار الساخرة ان لا يعيش الاخ طويلا بعد موت اخيه،
فقد لسعته حية في الاسبوع التالى ، وسرى السم فى جسمه ، فلهق
الراهب بالجندى ، وضم رفاتهما قبر واحد ..

ولو نبش رهبان البلنند اليوم اقبية ديرهم ، حيث يرقند
رفاقهم الذين سبقوهم الى العالم الاخر . فقد تعثر ايديهم على هيكلين
عظميين متشابكين فى حفرة واحدة

تلك هى البقية الباقية من الاخوين التائبين !

على فتير صالح الدين



فى اليوم الثانى من شهر ايلول - سبتمبر سنة ١١٩٢ ميلادية،
الموافقة لسنة ٥٥٨ للهجرة ، تم الصلح بين الملك الناصر صلاح الدين
الايوبى ، ساطان الديار المصرية والشامية ، وريكاردوس الاول الملقب
بقلب الاسد ، ملك الانجليز .

وضع ذلك الميثاق حدا للحرب الصليبية الثالثة ، بعد صراع مرير
استغرق سنتين كاملتين ، وكانت الارض المقدسة فى سورية الجنوبية
مسرحاً له ..

كان على راس الجيوش الوافدة من الغرب ، ثلاثة من ذوى
التيجــــــــــــــــان :

فردريك بربروس امبراطور المانيا ، وفيليب اوغست ملك فرنسا
وريكاردوس ملك انجـــــــــــــــــــــــلـــــــــــــــــــــــس ..

مات الاول غرقاً فى قيليقية ، وعاد الثانى الى بلاده بعد اقامة
قصيرة فى الشرق ، وبقي الثالث وحده .. فتولى قيادة الحملة ، وخاض
فمار المعارك ضد خصمه القوى ، الذى كان قد وحد القطرين ، مصر
وسورية فى دولة متماسكة الاطراف منيعة الجوانب

اخذ عكاء ويافا وغيرهما من المعاقل الحصينة ، فى صيف سنة
١١٩٠ ، الموافقة لسنة ٥٨٦ هجرية ، وزحف ثلاث مرات متوالية
فى اتجاه القدس ، ورجع عنها فى كل مرة بدون ان يهــــــــــــــــاجم
أسوارها ..

وادرك فى النهاية الا فائدة من مواصلة القتال ، وان التفاهم الودى
خير وأوفى من الاصرار على تحكيم القوة ، بينه وبين السلطان ، وان صلاح
الدين كان على حق يوم كتب اليه يقول ، فى بدء الحرب بينهما ، أن الحملة
الصليبية الاولى لم تكلل بالنجاح الا لان الافرنج وجدوا فى الشرق دولة
مفككة الاوصال اضعفها التناحر والتخاذل . اما وقد توحدت هذه
الدولة وتماسكت اجزاؤها ، فان كل هجوم عليها فى المستقبل سيكون
مــــــــــــــــســــــــــــــــيرــــــــــــــــة الفشل والهزيمة !

وبموجب معاهدة الصلح التى عقدت بين الطرفين المتخاربين ، لمدة
ثلاثة اعوام وثلاثة شهور ، بقيت بعض المواقع الساحلية فى ايدى الافرنج
وتعهدوا بالا يتخذوها قواعد لغزو الاراضى المجاورة لها ، وترك صلاح

الدين القدس مفتوحا امام النصارى الراغبين في زيارة قبر المسيح فيها ، على شرط الا يدخلوها مسلحين ..

واصبح العدوان منذ ذلك الوقت صديقين . وكان كل منهما شديدا الاعجاب بشجاعة الاخر ، ومهارته في قيادة الجيوش

وتم تبادل الاسرى بين الفريقين ..

وارسل ريكاردوس يقول لصلاح الدين : « لقد استبقيت عندي الفتى ابراهيم بن سريع واخته بسمة فهل يجد السلطان مانعا في ان اصطحبهما معي الى بلادى ، اذا وافقا على هذا ؟ »

وكان رد صلاح الدين : « لامانع عندي في ان يذهب الفتى في صحبة الملك الى بلاد الانجليز ، اذا اراد ذلك بلا اكراه . اما الفتاة ، فاني افضل ان تبقى هنا في حمايتنا ، وان تعيش في كنفنا . فهي تذكرنا بان اياها كان جنديا مخلصا ، وواحدا من النصارى الذين حاربوكم في صفوفنا !! »

وعمل ريكاردوس قلب الاسد باشارة صلاح الدين الايوبى ، ونفذ له رغبته ، واعاد اليه بسمة بنت سريع الجليلية ، واحتفظ باخيها ابراهيم ليأخذه معه الى بلاد الغربه ...

● اقلعت السفن من موانئ الارض المقدسة في التاسع من شهر اكتوبر سنة ١١٩٢ ، عائدة الى الغرب بالبقية الباقية من الحملة التي قادها ملك الانجليز ، ولم يتخلف غير بضع عشرات من الرجال والنساء اثبروا البقاء في الشبرق ، والاقامة في المدن والحصون .

وعلى ظهر السفينة التي رفعت عليها الاعلام الملكية ، وقف الفتى ابراهيم بن سريع ينظر الى الشاطئ وقد انقبض صدره وترقرقت الدموع في عينيه ، وراح يناجي نفسه متسائلا : « هل أخطأت في الالتحاق بهؤلاء القوم ؟ وماذا ينتظرنى في بلاد ساكون غربا فيها ؟ .. وهل أندم فيما بعد على ما اصنعه اليوم ؟ » ..

كان ابراهيم وبسمة توأمين . ولم يكونا بعد قد بلغا الخامسة عشر من العمر يوم حرما من رعاية ابيهما واصبحا يتيمين .. وقد دفعت الاقدار كلا منهما في طريق .

سارت السفن شمالا ثم اتجهت غربا ودخلت البحر الادرياتيكي .. وهناك داهمتها عواصف هوجاء ، فتفرقت باحثه عن ملاجئ ، تأوى اليها على طسؤل السساحل .

كائنت سفينة الملك اسوأ حظا من غيرها . لقد تعذر على ربانها

ان يتغلب على الرياح والامواج ، فقرر ريكاردوس فجأة ان ينزل الى اليابسة ويواصل السفر برا ، فيجتاز بلدانا يناصبه حكامها العدا

ترك لرفاقه حرية اختيار الطريق الذي يريدونه ، للعودة الى ديارهم وتشكر هو في زى حاج عائد من الارض المقدسة ، ودخل ارض النمسا حيث كان يتولى الحكم الدوق ليوبولد الاول ، الد أعدائه . والتابع الامين لامبراطور ألمانيا هنرى السادس . فعرفه رجال الدوق ، واعتقلوه واخذوه الى سيدهم ، الذى سلمه الى الامبراطور فزج به هنرى السادس فى سجن مظلم ..

عرف قلب الاسد اللل والهوان ، وذاق مرارة الاسر ، ولم يسترد حريته الا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال ، فخرج من سجنه فى الثانى من شهر مارس سنة ١١٩٤ ، أى بعد ابحاره من سورية بنحو سنة ونصف

ووصل الى بلاده بعد غيبته الطويلة ، فاذا به يجدها غارقة فى الاضطرابات والقلق ، بسبب انتفاض أخيه عليه ، ومحاولته اغتصاب العرش منه ، بمساعدة حليفه السابق ملك فرنسا فيليب اوغست فحارب الثائر المتمرد وتغلب عليه واستأثر بالحكم والعرش والتاج .

وكان ابراهيم بن سريع ، الفتى العربى ، قد وصل الى انجلترا مع الجنود والحجاج الذين نجوا من العواصف وافتتوا من الأعداء . فشمله الملك بعطفه ، وجعله واحدا من حملة اعلامه فى القصر ، واصدر امره بان يعامل الفتى الذى تبناه كفرد من افراد الاسرة المالكة

ولكن ابراهيم بن سريع كان حزينا كئيبا ..

وازداد الشاب حزنا وكابة ، يوم حمل الحجاج العائدون من الشرق خبرا لم يكن وقع على قلب ابراهيم بن سريع العربى اخف من وقع علمه ، قلب الاسد الانجليزى ، نفسه : لقد مات صلاح الدين الايوبى ، فى السنة التالية لمعاهدة الصلح ، التى انتهت الحرب الصليبية الثالثة ودفن السلطان فى عاصمة دمشق ، واصبح قنبره ، بجوار المسجد الاموى محجة للزائرين ..

وقال الفتى للملك : « اريد أن اعود الى بلدى ! »

فقال الملك الفتى : « عد الى بلدك فانى اقدر العاطفة التى تغذى هذه الرغبة فى نفسك ! ولكننى اريد لك سفرا مضمونا ، فارحل مسرع اول قافلة للحجاج ، تقصد الى الشرق . وسيكون معك اثنان من رجالى المخلصين يسهران عليك فى الطريق »

ولما ازف وقت السفر ، ودع ريكاردوس قلب الاسد صديقه وضيغه
العربي ، وقد بلغ منه التأثير مداه ، وقال له :

— خذ هذا الخنجر يا ابراهيم . انه خنجر دمشقى اخذته من
امير عربى وهو يحتضر فى ميدان القتال ، عند ابواب يافا . دافع به
من نفسك اذا ما داهمك خطر فى الطريق ، وفى دمشق ، ضعه على قبر
صلاح الدين الايوبى ، الملك الناصر ، والخصم الشريف الذى اخبرت
صفاته وشمائله ، فى أيام الحرب وأيام السلم على السواء . . . وخذ : هذا
الرداء المصنوع فى بلادنا ، هدية منى لاختك بسمه ، التى تركتها هناك فى
حماية صلاح الدين ، وقد تكون الآن فى حاجة الى من يسهر عليها .

واستطرد ريكاردوس قائلا :

— وهذه صرة من النقود ، لك ان تفعل بها ما تشاء .

● مع فوج من الحجاج الافرنج ، بلغ ابراهيم بن سريش الارض
المقدسة ، فى اوائل سنة ١١٩٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٩٤ للهجرة
بعد رحلة شاقة بالبر والبحر ، كانت مليئة بالمتاعب ولكنها خالية من
الايثار فقد ارادت العناية الالهية ان يرجع الفتى الى وطنه سليما
معا . .

وصل ابراهيم الى دمشق . وذهب الى الجامع الاموى فشكر
الله على رعايته ، ثم قصد الى الضريح ليلبغ الرسالة ، ويؤدى الامانة

وفوجىء بما لم يكن ينتظر ويأمل !

على باب الفناء الخارجى ، كانت اخته بسمه واقفة تتطلع بيمينها
وبيسارها ، كأنها على موعد

وكان اللقاء الاول ، بعد فراق دام نحو خمسة اعوام

وقدمت الأخت ل أخيها رجلا واقفا على بعد خطوتين منها : « زوجى
يا ابراهيم . . مرقص الصائغ ، من دمياط »

واتجه ابراهيم بن سريش ، ومعه بسمه وزوجها ، وخلفهم عشرات
من الرجال والنساء ، الى القبر الذى يضم الودبعة الكريمة ، جثمان
الملك الناصر صلاح الدين الايوبى ، فوضع الشاب عليه خنجر الملك
الذى حاربه بالامس ، وتلا الحاضرون الفاتحة على روح البطل العظيم

عرفت بسمه من أخيها ما حدث له منذ رحيله من ارض الوطن
الى ديار القربة ، مع ملك الانجليز . وعرف ابراهيم من اخته كيف ان

صلاح الدين اعطاها بيتا في دمشق ، واعطاها مع البيت زوجا في شخص الصائغ المصرى ، الذى كان يعمل في بيت المال بالقاهرة ، ثم انتقل الى دمشق بأمر من السلطان ..

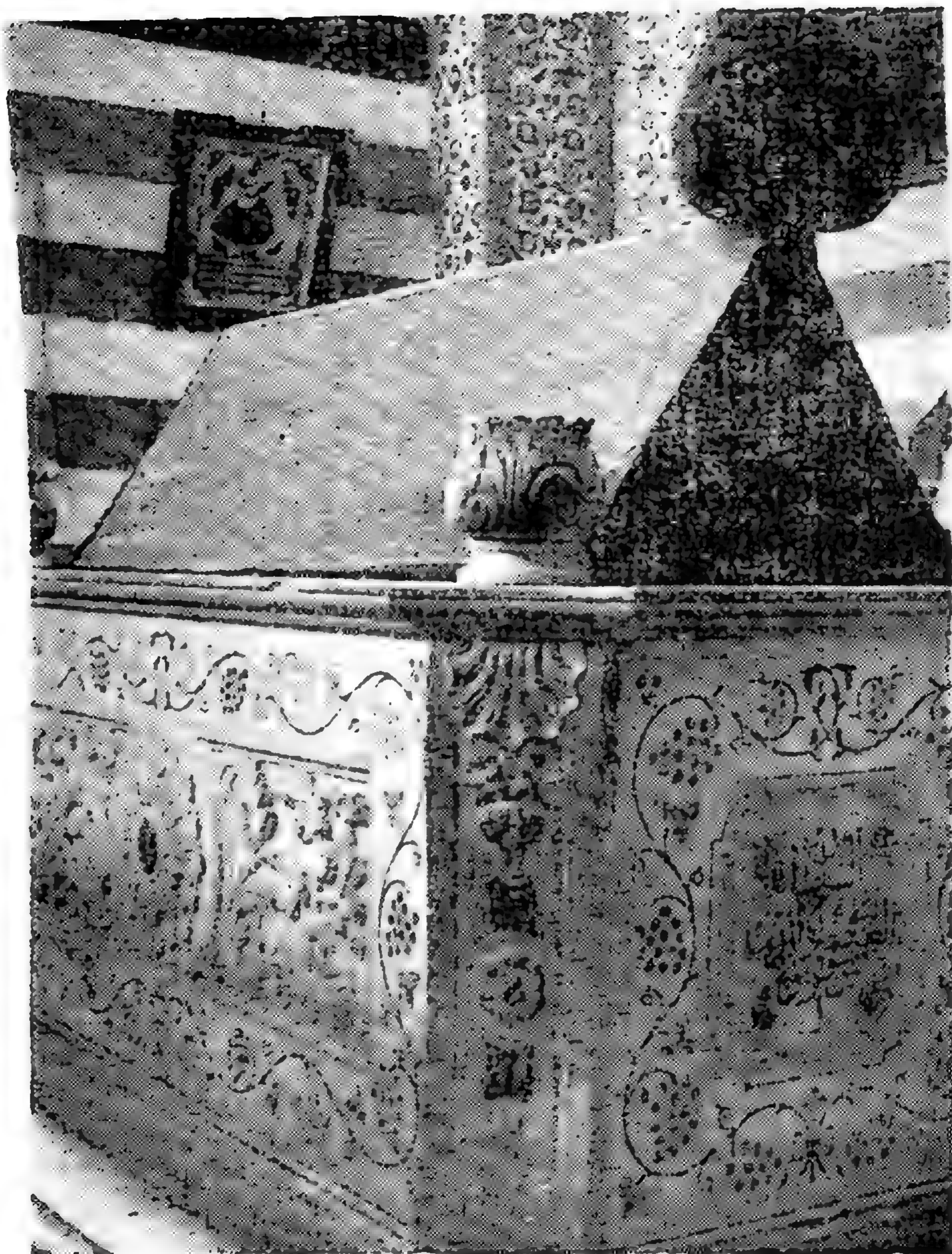
وعرف ابراهيم ايضا كيف مات صلاح الدين بعد عودته من الصيد ، في سنة ٥٨٩ هجرية، الموافقة لسنة ١١٩٣ للميلاد ، بعد ان وطد ملكه ووضع حدا للحرب بينه وبين الافرنسج .

وعرف اخيرا كيف ان الصائغ وزوجته اصبحا من حراس القبر فقرر ابراهيم ان ينضم اليهما ، ويحرس القبر ايضا ، مع حراسه المسلمين ، وفاء لذكرى السلطان صاحب الفضل على أسرته

اما المال الذى حمله معه من الملك ريكاردوس ، فقد ورعه على الفقراء ، ولم يحتفظ بشيء منه لنفسه .

بعد وفاة الملك الناصر يوسف صلاح الدين الايوبى ، سسلطان الديار المصرية والشامية ، مات الملك ريكاردوس الاول ، الملقب بقلب الاسد ، ملك الانجليز .

فقد خرج في غزوة الى اقليم ليموزان بفرنسا ، على امل ان يعثر فيه على كنز قيل له ان احد الاشراف قد خباه هناك ، فاصيب بجرح عميق من سهم مسموم ، وقضى نحبه في ٦ ابريل سنة ١١٩٩ . وكان دائما يذكر بالخير خصمه النبيل الشهم المغوار ، الملك الناصر صلاح الدين ..



ضريح صلاح الدين بدمشق

فہرست

	أهداء	٣
	تصدير	٧
	صلاح الدين في سطور	٩
	صلاح الدين وريكاردوس	١٢
	الاميرة الافرنجية	٢٣
	عرس في حسانة	٣٣
	كذبة السلطان	٤٣
	كتيبة الجليل	٥٣
	الحبيب القاتل	٦٣
	بعد معركة حطين	٦٩
"	الصيفان	٧٩
	يوم من أيام صلاح الدين	٨٥
	حراس الحدود	٩٧
	هدية العيد	١٠٥
	هدايا صلاح الدين	١١٣
	ناسك الارض	١٢١
	الخنجر الذهبي	١٣١
	قلب حائر	١٤١
	حصان الملك	١٥١
	ثريا	١٥٧
	الناصر والناسك	١٦٣
	وفاء السلطان	١٧١
	يوسف الحبیب	١٨١
	الاخوة الاربعة	١٨٩
	توبة الاخوين	١٩٧
	على قبر صلاح الدين	٢٠٩

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - دوح الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

فرع الصحافة : ١١ شارع الصحافة

تليفون ٨١٣٠٣٤ - ٨١٣١١٩ - ٨١٣٢١٤

المصحح : أ.ش

« طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا »



من الشرق والغرب

تقدم

بين أمو- داربا وجمينا

أرنولد توينبي^{بمجلد}

الثنى ٢٥ قرشاً

العدد ٥

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥